



المجلة
للدراسات والبحوث
الاسلامية

المجلد الاثني عشر

جامعة الشارقة الاسلامية

العدد ٢٠١٢



المجلة
للدراسات والبحوث
الاسلامية

العلم والادب

سراج الفكر وسبح الحكيم

محدث المؤتمر العلمي الدولي الاول

الجزء الاول

اختيارات نهج البلاغة

اختيار مصباح السالكين «إنموذجاً» دراسة في الأسلوب والمنهج

للشيخ ميثم بن علي البحراني «١٢٣٨هـ-١٢٩٩هـ»

الإستاذ الدكتور صاحب محمدحسين نصّار - جامعة الكوفة - كلية الفقه

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين...

مقدمة

نحن الآن نتفياً ظلال نهج البلاغة حَوْل دوحة الإمامة وشاخص الإيمان وسارية التوحيد أمير المؤمنين (عليه السلام) أمير البيان والفصاحة والقرآن الناطق. يتفقُ جميع المسلمين وغيرهم على أنّ علي بن أبي طالب (عليه السلام) هو مَنْ سَنَّ البلاغة والفصاحة ورافدها الذي لا ينضب. لذا كَثُرَ شَرَاخُ نهج البلاغة من جميع المذاهب والأفكار وشتى الأصقاع والأوطان فضلاً عن ذلك كان يهتم بحفظه حملة العلم والحديث في العصور المتقدمة حتى اليوم، وهذا دليلٌ على عظمة النهج وصاحبه وهو باب مدينة علم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لقوله: «أنا مدينة العلم وعليٌّ بأبها»

سلامٌ على وُردِهِ الأَعْدَبِ

سلامٌ على النَجْفِ الأَطِيبِ

وريحانةَ الشَّرْقِ والمَغْرِبِ

عليٍّ ويسحرَ هَذي القلوبِ

«فأنت إذا تأملت نهج البلاغة وجدته كله ماءً واحداً ونفساً واحداً وأسلوباً واحداً كالجسم البسيط الذي ليس من أبعاضه مخالفات لباقي الأبعاض في الماهية، وكالقرآن العزيز أوله كأوسطه وأوسطه كأخره وكل سورة منه وكل آية مماثلة في المأخذ والمذهب والفن والطريق والنظم لباقي الآيات والسور ولو كان بعض نهج البلاغة منحولاً وبعضه صحيحاً لم ذلك كذلك فقد ظهر لك بهذا البرهان الواضح ضلال من زَعِمَ أن هذا الكتاب أو بعضه منحول إلى أمير المؤمنين (عليه السلام)»^١.

هكذا تحدث السيد الشريف الرضي (رض) وهو أعرف من أن يُعرّف بِيَدَ أن مايناسب المقام هنا أنه «قليل الرعاية للعصبيّة المذهبية، والظاهر أنه كان حُرَّ العقل إلى حد بعيدٍ، فقد كان يدرس جميع المذاهب الإسلامية ليمدّ عقله بالأنوار التي يُرسلها إختلاف الفقهاء»^٢ وهذا توصيف أحد دارسيه وهم كَثُرَ وهو الدكتور زكي مبارك في دراسته العبقريّة الشريف الرضي.

وكان من أولئك العظام الذين شرحوا وتصدوا للنهج وحتى الكلمات القصار من حكمه ووصاياه ومواعظه وآثاره التي خلفها لنا الإمام (عليه السلام): الشيخ ميثم بن الشيخ علي البحراني (١٢٣٨-١٢٩٩هـ) الذي أنبرى لما خلفه الإمام نهجاً وغيره.

والشيخ ميثم البحراني أحد رواد المعرفة الأمثال جذوره «البحرين» تلك الواحة العربية الإسلامية ولودة الفقهاء كالشيخ علي الشيخ سلمان البحراني وصاحب الحدائق الشيخ يوسف وأبن عصفور وغيرهم الكثير.

وملهمتهُ الشعراء وماشئتُ فعبّر، فقد أوى السيخ كمال الدين ميثم البحراني إلى الحلة الفيحاء وريثةُ بابل التمدن والتحضر ومهد حمورابي وهي أُنْذَاك «عَشُ» الشيعة وحاضرة الفقه ومثابة

١ . نهج البلاغة: جمع الشريف الرضي (المقدمة).

٢ . عبقريّة الشريف الرضي: د. زكي مبارك ١٢٥/١.

الإعلام: الحليان: المحقق والعلامة وابن نما وابن أدریس والسيدان حيدر وجعفر وقبلهما صفي الدين شاعر أهل البيت (عليهم السلام) القائل مطرراً علم العراق:

بيضٌ صنائعنا سودٌ وقائعنا
خضرٌ مرابعنا حمراً مواضعنا

ذلكم هو تشييعُ العراق وعراقهُ التشيع وعروبة المذهب.
ثم أرتحل الى بغداد وسكنها فترةً قبل رجوعه الى البحرين وبغداد يوم ذاك فمُ الدهر وعاصمة الدنيا ومنتج العلماء.

في ذينك البعدين: الزماني والمكاني شرح شيخنا النهجَ وما كان لعدّ عبقرِي أن يتصدى للشرح إلا إذا كان بمستوى شرح النهج، ذلكم النهج وصاحبه الذي هو ترجمان القرآن، الحجّة الناطق هو الأدب العربي يمشي على قدمين وتلك شهادة مناوئيه قبل أوليائه.

تداوله السابقون واللاحقون بالتنقيح والتبويب والتحقيق والتوثيق، ومالقي أي كتاب مثل مالقيه نهج البلاغة، بل أستوقف جمعاً من المفكرين والأدباء، وقفوا ملياً عنده حتى القصار من كلماته وهي حاوية لكل الإعجاز البياني والبلاغي، وذلك ما حدا بالدكتور طه حُسين عند معالجته لمقولة أمير البيان وإمام البلاغة (عليه السلام) «اعرف الحق تعرف أهله»، فقد كانت دراسة الشيخ البحراني وشرحه للنهج متميزاً بعقليته الواسعة الفذه فقد اخترنا من بين تلك الدراسات والشروح للنهج «اختيار مصباح السالكين» إنموذجاً للدراسة في أسلوبه ومنهجه وكانت الدراسة متضمنة تمهيداً عن البحرين وأعلامها وعلمائها ومفكرها ومن أولئك شيخنا المبحوث بشرحه لنموذج من بلاغة الإمام (عليه السلام)، فقد عرضت في التمهيد لأساتذته من شتى البلدان كذلك تلامذته موزعين على ثلاثة أقسام في الحلة الفيحاء وثانيها من البحرين والثالث منها من أماكن أخرى وختمت التمهيد بمؤلفاته وأثاره العلمية، أما الدراسة فقد أنتظمت على ثلاثة مباحث الأول منها كان مختصاً ببيان مدارس وشرحه من النهج وغيره والمبحث الثاني قد وضّح الأسلوب والأسلوبية عموماً، ثم وضّحت أسلوبه الخاص ومنهجه المتميز في شرحه وعرضه أما المبحث الثالث فقد إنعقد لدراسة نقدية ومنهجية وعلمية لكتابه «اختيار مصباح السالكين» وهو بيت القصيد للدراسة.

وأسأل الله ان أكون قد وفقت بهذه الدراسة المتواضعة عن علم من أعلام البحرين لشرحه وبيانه لنموذج من نماذج البلاغة والبيان والذي قيل عنها وعن صاحبها «دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق».

وفي الختام أتمنى للجميع التوفيق في جهودهم العلمية والتسديد والنجاح
وأخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

الباحث: صاحب محمد حسين نصّار

تمهيد:-

ليس غريباً بل من الطبيعي أن يبرز أعلام أفاض وعلماء أجلاء من البحرين، البلد العربي الإسلامي الأصيل فهو ذو أصالة وحضارة موهبة بالقدم، نشأت قبل ميلاد السيد المسيح (عليه السلام) بثلاثة آلاف سنة، تميز أولئك العلماء بثتى العلوم والمعارف، وعلى مر العصور مقرونة بالأخلاق الحميدة والأداب الجليلة والصفات النبيلة، فمن الفلاسفة والحكماء الى الفقهاء والمحدثين والمفسرين وما الى ذلك، ومن أعلامهم شيخنا العلامة المحقق الحكيم ميثم البحراني. ترجمته وموجز سيرته:-

نحاول عرض السيرة الذاتية والعلمية وكما يلي:
أولاً: موجز ترجمته:

هو الشيخ كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني (قدس) ولد في البحرين^١ وتوفي عام ١٢٩٩م^٢ وقبره في هلنا إحدى القرى الثلاث المجاورة للبحرين، وهو الآن مزار مبارك ضريح شاخص يؤمه الزائرون من داخل البلاد وخارجها^٣.
ثانياً: أساتذته وشيوخه:

درس على ثلة من العلماء الأعلام في مقدمتهم:
الشيخ أبو السعادات أسعد بن عبد القاهر الاصفهاني العالم المحقق الفاضل (ت ٦٣٥هـ).
الشيخ جمال الدين علي بن سليمان البحراني الفيلسوف الحكيم.
الخواجة نصير الدين الطوسي (ت ٦٧٢هـ) في الحكمة وهو غني عن التعريف ومن طريف الأمر أن الخواجة نفسه قد درس الفقه على الشيخ ميثم.
فضلاً عن المباحثة والمدارسة بينه وبين المحقق الحلبي نجم الدين أبي القاسم (ت ٦٧٦هـ) أثناء وجوده في مدينة الحلة.
ثالثاً: تلامذته:

أن تلاميذ الأستاذ أثر من آثاره، وكثيراً ما يكون تنقيب الأستاذ عن مواهب طلابه، ثم عنايته بصقلاها وتوجيهها وبيانها وذلك بالسهل على تخريجهم وهو أجدى للمجتمع من تأليف كتاب أو إجابة مسألة. فهم في الحقيقة كتبه الحية السريعة الأثر في المجتمع والناشرون لآراء أستاذهم. فيكفي العلامة الشيخ ميثم البحراني فخراً وعزاً من أبرز تلامذته:
١. من الحلة الفيحاء:-

أ. السيد عبد الكريم أحمد بن طاووس (ت ٦٩٣هـ).
ب. العلامة الحلبي الحسن بن يوسف بن المطهر (ت ٧٢٦هـ).
ج. الشيخ محمد بن الجهم الأسدي الحلبي الربيعي.
فضلاً عن المحقق الحلبي نجم الدين أبي القاسم (٦٧٦هـ) الذي كان يتحاور معه.
٢. من البحرين:-

أ. الشيخ عبد الله صالح البحراني وغيره.
٣. آخرين:-

أ. الشيخ الجرجاني الشيخ أبو المحاسن «كان معاصراً للعلامة الحلبي».
رابعاً: مؤلفاته وأثاره العلمية:

كان له الكثير من المؤلفات والآثار العلمية ما أغنى به المكتبة الإسلامية في شتى المواضيع في مقدمتها وأهمها: دراسته وشرحه لنهج البلاغة فضلاً عن الآثار الجليلية البيانية والبلاغية والحكمية كالكلمات القصار وغيرها، لمولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام).
وقد تميز شيخنا البحراني (قدس) بشرحه وبيانه لنهج البلاغة هذا السفر الخالد والأثر العلمي الكبير الذي قال عنه ابن أبي الحديد المعتزلي: (أنه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق) أنه من الطبيعي لايتأتى لأي أنسان شرح كلام سيد البلغاء وإمام الفصاحة والبيان القرآن الناطق إلا إذا كان بالمستوى العلمي الذي يؤهله لسير أغواره وتوضيح مفرداته وبيان مكوناته بما يحويه النهج من المكننات البلاغية والثروات اللغوية والروائع البيانية فضلاً عن المعارف والعلوم والحكم التي تبلورت بين ثناياها، كاد الشيخ ميثم البحراني أن يكون المتخصص في نهج البلاغة وكذا في الآثار والكلمات القصار التي وردت عن سيدنا ومولانا أمير المؤمنين (عليه السلام) فقد

١ . البحرين قديماً كانت تضم الإحساء والقطيف وأوال (أي البحرين).

٢ . البحرين قديماً كانت تضم الإحساء والقطيف وأوال (أي البحرين).

٣ . وهو أصح الرويات بتاريخ وفاته كما ذكر ذلك الطهراني في الذريعة وأغلب المترجمين، وأنه أنتهى من الشرح الصغير سنة ٦٨١هـ.

ينظر، لؤلؤة البحرين، ص ٢٦١+أنوار البدرين، ص ٦٦.

٤ . وهذه الطريقة متبعة ومعروفة في الدراسة الحوزوية في مدرسة النجف الأشرف والحلة الفيحاء وباقي الحوزات، التدريس والتلمذة في آن واحد.

أثر عن البحراني العديد من المؤلفات والكتابات التي بُحثت في جميع جوانب النهج بأسلوبه المُمَيِّز وطريقة دراسته وفق المنهج العلمي.

ولغرض بيان ذلك سوف تنتظم الدراسة على النحو الآتي:

المبحث الأول: بيان وعرض مدارس وشرحه من النهج وكلام الإمام (عليه السلام).

المبحث الثاني: الأسلوب الخاص المتميز في شرحه وعرضه له.

المبحث الثالث: دراسة نقدية ومنهجية لكتاب (إختيار مصباح السالكين) «إنموذجاً».

المبحث الأول: بيان وعرض مدارس وشرحه من النهج وكلام الإمام (عليه السلام):

أن شرح نهج البلاغة في الواقع ثلاث شروح فضلا عن شرحه للمائة كلمة ولبيان ذلك ينتظم المبحث على مطلبين وكما يلي:

المطلب الأول: شروح نهج البلاغة وهي على ثلاثة أقسام:

أولاً: الشرح الكبير: وقد سماه (مصباح السالكين) وهو كتاب قيّم رائع واضح المعالم منتظم زاخرٌ بدقائق العلم والمعرفة ويوضح مفردات المطلوب بأسلوب الحكمة والفلسفة وقد أورد به نواذر جمة ومفيدة.

سبب تأليفه هو مارآه من شوق وشغف وطلب علاء الدين عطاء الملك بن بهاء الدين محمد الجويني الى كشف وبيان ومعرفة حقائق ومسائل نهج البلاغة، وقد تم أهداء الكتاب إليه كما يبدو من ديباجة الكتاب، وقد فرغ من تأليفه عام ٦٧٧هـ كما ذكر ذلك الشيخ البحراني نفسه في آخر الشرح وقد طبع هذا الشرح بخمسة مجلدات ولعدة مرات وتلك قرينة مؤكدة على الأهمية والحاجة لهذا السفر الخالد وقد عمت شهرته العالم الإسلامي أجمع، ولأهمية الشرح هذا فقد أُختصر من قبل أعلام أجلاء من ابرزهم:

العلامة الطلي يوسف بن الحسن المطهر (ت٧٢٦هـ) وقد أورد الطهراني الشيخ أغا بزرك في الذريعة بأنه لم يعثر على نسخة منه.

نظام الدين علي بن الحسن الجيلاني وسماه (نور الفصاحة وأسرار البلاغة) وقد أضاف إليه بعض الزيادات من شرح ابن أبي الحديد يقع في عدة مجلدات فرغ المؤلف من المجلد الأول يوم الأثنين ربيع الأول (١٠٥٣هـ).

ثانياً: الشرح المتوسط: وهو ملخص الشرح الكبير وسمي (إختيار مصباح السالكين) لخصه بإشارة من علاء الدين لولديه نظام الدين أبي منصور محمد، ومظفر الدين أبي العباس علي فرغ من تلخيصه في شوال سنة (٦٨١هـ).

ثالثاً: الشرح الصغير: أورد الشيخ سليمان بن عبد الله الماحوري المتوفى سنة (١١٢١هـ) سمعت من بعض الثقات أن له شرحاً ثالثاً على كتاب نهج البلاغة الكبير، وقد ذكر الخوانساري في روضات الجنات^١ وقال: ومن مصنفاته البديعة (شرحه الصغير على نهج البلاغة).

المطلب الثاني: هو شرح الكلمات القصار للإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) وكما يلي: منهاج العارفين*

المبحث الثاني: الأسلوب ماهيته ومفهومه ونماذج من ذلك:

ولبيان الحقيقة اللغوية والأصطلاحية للإسلوب وتوضيح مفهومه ونماذجه منه ينتظم المبحث على ثلاثة مطالب وكما يلي:

المطلب الأول: الحقيقة اللغوية والأصطلاحية للإسلوب

أولاً: المعنى اللغوي للإسلوب:

كل طريق ممتد فهو إسلوب وإسلوب: الطريق والوجه والمذهب، يقال أنتم على أسلوب، أي على طريق ومذهب، ويجمع على أساليب^٢ والإسلوب: الفن يقال أخذ فلان في أساليب من القول

١ . روضات الجنات: الخوانساري ٢١٩/٧.

٢ . فقد ورد في بعض المصادر والبحوث بمنهج العارفين كما ورد في بحث السيد محمد بحر العلوم عام ١٩٩٩م ويبدو ان الصحيح (العارفين) كالشروح الاخرى كالسالكين ومختصره وكذلك ورد في بعض المصادر الاخرى بالعارفين.

أي أفانين منه^١، وهذه المعاني اللغوية قسمان: قسم حسي يمثل الوضع الأسبق للفظ، للطريق الممتد أو المسلوك، والإسلوب عليه خطة يسلكها السائر، وقسم معنوي هو الخطوة الثابتة في الوضع اللغوي حيث تنقل الكلمات من معانيها الحسية الى المعاني الأدبية أو النفسية وذلك هو الفن من القول أو الوجه أو المذهب في بعض الأحيان^٢.

ثانياً: المعنى الاصطلاحي للإسلوب:

(هو فن من الكلام يكون قصصاً أو حواراً تشبيهاً أو مجازاً أو كناية، تقريراً أو حكماً أو مثلاً، فإذا صح هذا الأستنباط كان للإسلوب معنى أوسع إذ يتجاز هذا العنصر اللفظي فيشمل الفن الأدبي الذي يتخذه الأديب وسيلة للإقناع أو التأثير)^٣.

أن الإسلوب منذ القدم كان يلحظ في معناه ناحية شكلية خاصة هي طريقة الأداء، أو طريقة التعبير التي يسلكها الأديب لتصوير مافي نفسه أو لنقله الى سواه بهذا العبارات اللغوية، ولايزال هذا هو تعريف الأسلوب الى اليوم، فهو: طريقة الكتابة أو طريقة الإنشاء أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأكيد أو الضرب من النظم والطريقة فيه^٤.

المطلب الثاني : مفهوم الأسلوب

ويتوضح مفهوم الأسلوب من خلال اتجاهين وهما:

الاتجاه الأول:

إذا سمع الناس كلمة (الإسلوب) فهموا منها هذا العنصر اللفظي الذي يتألف من الكلمات فالجمل والعبارات، وربما قصره على الأدب دون سواه من العلوم والفنون وهذا الفهم – على صحته – يعوزه شيء من العمق والشمول ليكون أكثر أنطباقاً على مايجب أن يؤديه هذا اللفظ من معنى صحيح وذلك إن هذه الصورة اللفظية التي هي أول ماتلقى من الكلام لايمكن أن تحيا مستقلة وإنما يرجع الفضل في نظامها اللغوي الظاهر الى نظام آخر معنوي أنتظم وتآلف في نفس الكاتب أو المتكلم فكون ذلك أسلوباً معنوياً، ثم تكون التآلف اللفظي على مثاله وصار ثوبه الذي لبيه أو جسمه إذ كان المعنى في الروح، ومعنى هذا أن للإسلوب معان مرتبة قبل أن يكون ألفاظاً منسقة وهو يتكون في العقل قبل أن ينطق به اللسان أو يجري به القلم.

الاتجاه الثاني:

أن كلمة (الإسلوب) صارت هذه الأيام حقاً مشتركاً بين البيئات المختلفة، ويستعملها العلماء ليستدلوا بها على منهج من مناهج البحث العلمي، ويستعملها الأدباء في الفن الأدبي قصصاً أو جدلاً أو تقريراً، وفي العنصر اللفظي سهلاً أو معقداً وفي إيراد الأفكار منطقياً أو مضطربة وفي طريقة التخيل جميلة ملائمة أو مشوهة نابية، وكذلك الموسيقيون يتخذونها دليلاً على طرق التلحين وتأليف الأنغام للتعبير عما يحسون أو يخالون ومثلهم الرسامون فهي عندهم دليل على طريقة تأليف الألوان ومراعاة التناسب بينها، وهكذا حتى أصبحت هذه الكلمة (أسلوب) تكاد ترادف كلمة الشخصية في المعنى لهذا كله كان إطلاقهم على هذا العنصر اللفظي ضرورة اقتضاها التعليم أولاً ولأنه هو مظهر العناصر الأخرى ومعرضها ثانياً.

المطلب الثالث: نماذج من مميزات وخصائص أسلوبه في شرح النهج

وبغية الوقوف على نموذج لما ورد في النهج ببعض المغيبات وبيان أسلوب الشيخ ميثم البحراني وشرحه ودفاعه عن النهج ينتظم المطلب كالاتي:

النموذج (عرض ودراسة وتعقيب)

ينظر مصادر نهج البلاغة واسبابه: السيد عبد الزهرة الخطيب ٢٧٣/١.

١ . لسان العرب: ابن منظور، المجلد(١) ص٧٣٤.

٢ . م.ن + مختار الصحاح: أبو بكر الرازي ص٣٠٨ طبع دار الرسالة الكويت ١٩٨٣م.

٣ . الأسلوب: أحمد الشايب، مطبعة السعادة، ط٤ ١٩٥٦م، ص٤١.

٤ . م.ن.

٥ . الأسلوب: أحمد الشايب، ص٤٤.

إسلوب الشيخ ميثم الخاص والتميز في كيفية توضيح علم أمير المؤمنين (عليه السلام) ببعض المغيبات الواردة في النهج والرد على من أورد الشبهة.
قبل بيان الإسلوب والكيفية التي عالج وردّها بها شيخنا البحراني أوضح ماهية الشبهة.
أما فحوى الشبهة: ورد في بعض الخطب في النهج أنباء غيبية وأخبار الملاحم والفتن بما يختص علمه بالله تعالى وحده^١.

الجواب والتعقيب عليها: ان الغيب يختص علمه بالله سبحانه وتعالى ومن ارتضاهم من أنبيائه وأوليائه وكم حوت السنة الشريفة أنباءً غيبية وأخباراً عن الملاحم والفتن، فقد أخبر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بمغيبات كثيرة تحقق منها قبل زماننا، وقسم تحقق في هذا الزمان: فمن القسم الأول قوله (صلى الله عليه وآله وسلم)، لإم الفضل حيث ولدت عبد الله بن عباس: «أذهبي بأبي الخفاء» وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) حول علي (عليه السلام): «لا يموت حتى تخضب لحيته من هامته»، ومن أشارته الى عائشة بأنها صاحبة الجمل وتنبحها كلاب الحوآب... الخ^٢، وما ذلك عن النبي الاكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)، إلا بوحى من ربه العليم الخبير، كذلك لا ينطق ابن عمه وربيب حجره وصاحب سره في الملاحم والخفايا إلا بخبر عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)^٣ وقد قيل له (عليه السلام): «لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب» فضحك (عليه السلام) وقال للرجل وكان كلبياً: [ياأخا كلب ليس هذا بعلم غيب، وإنما هو تعلم من ذي علم (أي من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) علمه الله نبيه فعلمنيه، ودعا لي بأنه يعيه صدري]^٤ (وتعيبها أذن واعية)^٥ ولاغرو فقد ثبت عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فيه أنه قال: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»^٦ فمن أختص بهذا الأختصاص لا يستغرب منه أن يملأ الكتب من أسرار الكائنات وكامنات الحوادث، وقد روى عنه (عليه السلام) أنه تنبأ بمصير الخوارج حينما أخبره الناس بأنهم عبروا النهر، قال (عليه السلام): «لا يفلت منهم إلا عشرة ولا يقتل منا إلا عشرة»^٧.

فكان الأمر كذلك وما كان علمه (عليه السلام) وعلم الأئمة (عليهم السلام) من بعده - بأنباء الغيب إلا تعلم من ذي علم، وهو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ويؤكد هذا المعنى ماروى عن الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) حين قال عن علمهم بالغيب: «... والله ما هي إلا وراثته عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)»^٨ فقد أورد العلامة المحقق الشيخ ميثم البحراني مانصه بخصوص توضيح وبيان ما ذكر في الشبهة بإسلوبه الفلسفي الحكيم الرائع الواضح الذي تميز به في شرحه للنهج وكما يلي:

«لا يقال: لا تتسلم أن ذلك علم ألهمه الله أياه، وأفاضه عليه، بل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أخبره بوقائع جزئية من ذلك، وحينئذ لا يبقى بينه وبين غيره فرق في هذا المعنى، فإن الواحد منا لو أخبره الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بشيء من ذلك لكان له أن يحكي ما قال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وإن وقع المخبر به على وفق قوله، ويدل على ذلك قوله بعد وصف الأتراك وقد قال له بعض أصحابه في ذلك المقام: لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب فضحك وقال للرجل وكان كلبياً: «ياأخا كلب ليس هذا بعلم غيب، وإنما هو تعلم من ذي علم، وإنما علم الغيب: علم الساعة وما عدده الله سبحانه وتعالى بقوله [أن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافي الأرحام...]^٩ من ذكر وأنثى وقبيح وجميل وشقي وسعيد ومن

١. م. ن. ٤٠.

٢. ينظر ماهو نهج البلاغة: للسيد هبة الدين الشهرستاني ص ٥٤.

٣. الجديد في الأدب العرب: حنا فاخوري ص ٣٨٢.

٤. ماهو نهج البلاغة: للسيد هبة الدين الشهرستاني ص ٥٤-٥٥.

٥. شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد ١/٢٤٥-٢٤٦.

٦. الحاققة / ١٢.

٧. ماهو نهج البلاغة: للسيد هبة الدين الشهرستاني ص ٥٥.

٨. شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد ١/٢٤٥ (وفيه جمهرة من المغيبات م. ن. ٢٠٨).

٩. الأمالي: الشيخ المفيد (محمد بن محمد بن النعمان) ص ١٣.

يكون للنار حطباً، أو في الجنات للنبين مرافقاً، فهذا علم الغيب الذي يعلمه إلا الله وماسوى ذلك فعلم علمه الله نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم)، فعلمنيه، ودعا لي بأنه يعيه صدري وتضم عليه جوانحي» وهذا تصريح بأنه يعلم من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لأننا نقول: إنا لم ندع أنه (عليه السلام) يعلم الغيب، بل المدعى انه كان لنفسه القدسية استعداد ان تنتقش بالأمور الغيبية عن افاضة جود الله تعالى، وفرق بين الغيب الذي لا يعلمه إلا الله وبين ما ادعيناه، فإن المراد بعلم الغيب هو العلم الذي لا يكون مستعداً عن سبب يفيد ذلك إنما يصدق في حق الله تعالى إذ كل علم لذي علم عداه فهو مستفاد من وجوده إما بواسطة أو بغير واسطة فلا يكون علم غيب وأن كان أطلاعاً على أمر غيبي لا يتأهل للأطلاع عليه كل الناس، بل يختص بنفوس خصت بعناية إلهية كما قال تعالى: [عالم الغيب فلا يظهر على غيبه إلا من أرتضى من رسول] فإذا عرفت ذلك ظهر أن كلامه (عليه السلام) صادق مطابق لما أردناه فإنه نفى أن يكون ما قاله عن غيب لأنه مستفاد من وجود الله سبحانه وتعالى وقوله (عليه السلام) «وإنما هو تعلم من ذي علم»^٢، إشارة الى وساطة تعليم الرسول له وهو إعداد على طول الصحبة بتعليمه، وإشار الى كيفية السلوك وأسباب التطوع والرياضة حتى أستعداد للأنتقاش بالأمور الغيبية والإخبار عنها وليس التعلم هو أيجاد العلم – وإنما كان أمراً قد يلزم أيجاد العلم – فتبين أن تعليم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن مجرد توقيفه على الصور الجزئية بل إعداد نفسه بالقوانين الكلية، ولو كانت الأمور التي تلقاها عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) صوراً جزئية لم يحتاج الى مثل دعائه في فهمه لها فإن فهم الصور الجزئية أمر ممكن سهل من حق من له أدنى فهم، وأن ما يحتاج الى الدعاء، وإعداد الأذهان له بأنواع الإعدادات هو الأمور الكلية العامة للجزئيات وكيفية أنشعابها عنها وتفريعها وتفصيلها وأسباب تلك الأمور المعده لإدراكها، ومما يؤيد ذلك قوله (عليه السلام) «علمني رسول الله ألف باب من العلم فأنفتح لي من كل باب ألف باب»^٣

وقول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) «أعطيت جوامع الكلم وأعطي على جوامع العلم»^٤ والمراد بالانفتاح ليس إلا التفريع وأنشعاب القوانين الكلية عما هو أهم منها، وبجوامع العلم ليس إلا ضوابطه وقوانينه، وفي قوله تعالى [وأعطي] بالبناء للمفعول دليل ظاهر على أن المعطي لعلي جوامع العلم ليس هو النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بل الذي أعطاه ذلك هو الذي أعطى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) جوامع الكلام هو الحق سبحانه وتعالى، أما الأمور التي عددها الله سبحانه فهي من الأمور الغيبية وقوله لا يعلمها أحد إلا الله كقوله: [وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو]^٥

وهو محتمل للتخصيص لما هو في قوله «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من أرتضى من رسول»^٦ وهذا الأمر واضح لا يحتاج العاقل في أستكشافه الى كلفة.
عرض رأي العقاد والتعقيب عليه:

أورد عباس محمود العقاد مانصه (عندما خفي عليه هذا المعنى ولم يقف على كلام الإمام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة): (التهيئات التي جاءت في نهج البلاغة عن الحجج وفتنة الزنج وغارات التتار وما إليها هي من مدخول الكلام عليه مما أضافه النساخ الى الكتاب بعد وقوع تلك الحوادث بزمن قصير أو طويل)^٧ وهذا من الأشكالات الغريبة.
تعقيب ومناقشة للسيد الحسيني رداً على العقاد:

- ١ . لقمان / ٣٤ .
- ٢ . الجن / ٢٦-٢٧ .
- ٣ . شرح نهج البلاغة: ميثم البحراني ١/٨٣-٨٤ .
- ٤ . شرح نهج البلاغة: ميثم البحراني ١/٨٣-٨٤ .
- ٥ . الكافي: الكليني (كتاب العلم).
- ٦ . الإنعام / ٥٩ .
- ٧ . الجن / ٢٦- ٢٧ .
- ٨ . شرح نهج البلاغة: ميثم البحراني ١/٨٣-٨٤ .

(والعجب أن هذا الرأي يصدر من كاتب له قدم راسخة في التحقيق، ولآرائه قيمة عند الأدباء، ولكتبه سوق رائجة بين الناس؟

هب أن الأخبار عن الحجاج وفتنة الزنج أضيفت الى الكتاب بعد صدوره بزمان قصير أو طويل لأنه لا يريد أن يتهم الرضي بالوضع - ولكن كيف يضاف الى الكاتب الإخبار عن فتنة التتار، وكل حوادث التتار من ابتداء من حملات جنكيز خان الى احتلال هولكو بغداد كان ما بين سنة (٦١٦هـ) الى سنة (٦٥٦هـ) وهذه نسخ(نهج البلاغة)المخطوطة قبل هذا التاريخ منها نسخة المتحف العراقي المؤرخة(٥٥٦هـ) أي قبل وقوع تلك الحوادث بمائة عام، وفيها هذا الكلام الذي يشير فيه الإمام أمير المؤمنين(عليه السلام) الى تلك الفتن والمحن وهو لا يختلف عما في النسخ المطبوعة بل والمخطوطة ايضاً^١ علماً بأن ذلك مذكور في شرح ابن أبي الحديد المعتزلي^٢ وشرح الشيخ ميثم البحراني^٣ كما ذكرنا آنفاً فقد أورد موضحاً ابن أبي الحديد ما نصه : «وأعلم أن هذا الغيب الذي أخبر(عليه السلام) عنه قد رأيناه نحن عياناً، ووقع في زماننا وكان الناس ينتظرونه من أول الإسلام حتى ساقه القضاء والقدر الى عصرنا، وهم التتار الذين خرجوا من أقاصي المشرق...»^٤ وأخيراً فمن أدخل هذا الكلام ياترى؟ وأي ناسخ أضافه؟

وهل نسبة علم الغيب الى الوضّاعين والناسخين أقرب الى القبول من علم علي بالغيب؟!...!!!
المبحث الثالث: دراسة نقدية ومنهجية حول كتاب (اختيار مصباح السالكين) إنموذجاً:
رغم مرور أكثر من ألف عام على ظهور نهج البلاغة فإنه مازال يتفاعل في أوساط النقاد والأدباء بل تناوله كلا من اختصاصه وقرائته فهو كتفسير الكتاب الكريم، كما لو كان حدثاً جديداً لم تستنفذ دراسته وفهمه، وفعلاً قد تناوله الأقدمون تارة بالشروح وأخرى بالملاحظات النقدية فيما يتعلق بصحة نسبه بالإمام علي(عليه السلام) وماتزال بعض الدراسات الحديثة تقدم شيئاً جديداً، وأما بالنسبة لطول الشوط الزمني للاهتمام بهذا الكتاب فإنه يعد أهم سفر قيّم بعد القرآن الكريم والحديث الشريف، والمعركة حوله من أهم المعارك في التراث الإسلامي والأدب العربي^٥

(اختيار مصباح السالكين)

اهمية دراسة وبحث الشرح المتوسط (اختيار مصباح السالكين):

انصب بحثي في هذا المبحث على الشرح المتوسط (اختيار مصباح السالكين) لاهمية دراسته والذي أود أن أوضحه أن النقاش حول النهج لم يكن دائماً نقاشاً أدبياً أو موضوعياً فيكتفي بأدوات الحوار المعتادة، وإنما يأخذ بعض الأحيان شكل المعارك التاريخية والعصبيات المذهبية بحيث يبرز الدور الأكبر للعاطفة وذلك لأن صاحب هذا الكلام في هذا الكتاب(الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) فصورة علي(عليه السلام) لدى اخواننا من أهل السنة لا تتسجم غالباً مع وجود خطبة في نهج البلاغة (الخطبة الشقشقية) تتضمن رأيه في الخلفاء الثلاثة، وهو رأي ينطوي على نقد صريح يتعلق بأحقيته الخلافة، وقد عالج الشيخ ميثم البحراني الكثير من الأشكالات التي حاول تصويرها بعضهم حول محتويات النهج وما ضمه بين دفتيه من مواضيع قد تبدو غريبة على الواقع الموضوعي لكلام أمير المؤمنين(عليه السلام). فقد أزاح الغبار الذي تركته الصراعات المذهبية عبر بيان أن الأسلوب المجازي البليغ الذي صيغت به تلك العبارات يجعل من الصعب وصمها ب(السب) الصراح و(الحط) من الخليفين أبي بكر وعمر.

فالنقد الموضوعي من قبيل (أما والله لقد تقصمها ابن أبي قحافة وأنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحي) او (فيا عجباً بينا هو يستقبلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته) ليس سباً

١ . عبقرية الإمام علي: عباس محمود العقاد، ص ١٤٠-١٤١.

٢ . مصادر نهج البلاغة وأسانيده: السيد عبد الزهراء الحسيني، المدخل، ج ١، ص ٢٠٧-٢٠٨.

٣ . شرح النهج: ابن ابي الحديد المعتزلي ٢١٨/٨ الطبعة الجديدة.

٤ . شرح نهج البلاغة: ميثم البحراني ٨٣/١-٨٤.

٥ . شرح النهج: ابن ابي الحديد المعتزلي ٢١٨/٨ الطبعة الجديدة.

أو خطأ إلا إذا أخذنا بالأعتبار أن القائل ليس علياً وإنما شخص آخر متأخر عنه أو أن صورة علي(عليه السلام) عند الناقد ليست الصورة الواقعية له.

الملاحظ أن الناس من ذوي الأقدار المتواضعة في دنيا الثقافة لا يعرفون كبير فرق بين النقد والشم، فالتاريخ يحدثنا عن الصراحة المتبادلة بين صحابة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد كانت المعارك الحربية في حالات نادرة - جزءاً - من تلك الصراحة.

لقد قرأ المحقق ميثم البحراني النص في نهج البلاغة في سياقه التاريخي وظروفه الاجتماعية وأوضاع زمانه الفكرية وسوف نعطي هنا مثالا توضيحياً من معضلة توقف عندها بعض المعترضين لشخصية الإمام علي(عليه السلام) وعبقريته مع إعجابهم البالغ به، وأستفاد منها آخرون للإشكال على (نهج البلاغة) وهي قضية ورود مصطلحات أو مفردات اصطلاحية تخص علوماً لم يعرفها المسلمون إلا بعد سنوات طويلة على وقت صدورها.

وتخص هذه المفردات والصياغات الذات الالهية والصفات التي جاءت ضمنها أعقد قضايا علم الكلام وهي الكلام عن الذات والصفات الالهية.

أنظر مثلاً الخطبة التي يوردها إبراهيم بن هلال الثقفي المتوفى سنة (٢٨٣هـ) في كتابه(الغارات) وهو سابق على النهج بنحو مائة عام(فتبارك الله الذي لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن وتعالى الذي ليس لصفته نعنا موجود ولاوصف موجود ولااجلا ممدود وسبحان الذي ليس له أول مبتدأ، ولاغاية منتهى ولاآخر يفنى فسبحانه هو كما وصف نفسه، والواصفون لايلغون نعته...)^١.

وأنظر أول خطبة من خطب نهج البلاغة في حديثه عن التوحيد أيضاً، وهي أشدها غرضاً للمعرضين وأثارة يقول(عليه السلام): «أول التوحيد معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه ومن جزأه فقد جهله...»^٢.

ويرى المحقق البحراني أن ظاهر هذه الخطبة أوصاف بلاغية وألفاظ جاءت على الأشتقاقات المألوفة في اللغة فكون اللفظة عربية والأشتقاق منها عربي لا يضر عدم اطلاق هؤلاء عليها في كلام العرب في الجاهلية أو الإسلام. ولكن هذا الدفاع لا ينجح في طرد الشبهة كما يبقى الحيرة مرادة للعقول المنصفة.

ونظراً الى منهجه أعتمد على فحص نصوص (النهج) من حيث سياقاتها الزمنية وواقع عصرها الفكري والاجتماعي، نجد المحقق ميثم البحراني قد أتبع أمارات هذا المنهج ويبدو أن إيمانه بقطعية صدور (النهج) عن أمير المؤمنين(عليه السلام) أوقفته عن الأستغراق في تحقيق المسألة وأشهد له (إذا كانت لشهادتي قيمة) بالقابلية التامة على أنجاز هذه المهمة.

فهو في شرح الخطبة السابقة يتوقف عند كلمة (همامة) في قوله(عليه السلام): «ولا همامة نفس أضطرب فيها» فقد فند الرأي الذي يقول: أن الهمامة بمعنى الهمة فقال: «واللغة العربية ما عرفنا فيها أستعمال الهمامة بمعنى الهمة، والذي عرفناه الهمة والهمّة بالكسر والفتح والمهمة وتقول لا همام لي بهذا الأمر مبني على الكسر كقطام ولكنها لفظة اصطلاحية مشهورة عند أهلها»^٣.

ولذا يتوجب علينا بناء علم الكلام وفق ماورد عند الإمام علي(عليه السلام) في سياق تاريخي حضاري غير ماتعارفنا من طرق الأمور بأجمالها، وتبتغي مراعاة الدقة والتخصص والبحث التاريخي والفلسفي العميق وأتخاذ نظرة شمولية تراقب بدقة صعود الحضارات وهبوطها وتغير خارطة نفوذها الجغرافي وانتقال مراكز الفكر فيها وظهور الفرق والأديان وأصطراعها مع بعضها.

١ . أمل الأمل: العاملي ٣٣٢/٢.

٢ . إبراهيم بن هلال الثقفي: الغارات، تحقيق السيد جلال الدين المحدث، طهران، ١٣٩٥هـ.

٣ . من خطاب النهج في باب التوحيد، ينظر الخطبة رقم(١)، ١٨٣، ٦٣ و١٨٤.

والذي أريد توضيحه في هذه الورقة ان هناك مجالاً كبيراً ينتظر الدراسين لربط الحركة العلمية في أواخر القرن الأول بما تقدمها من زمن الرسالة الإسلامية ومجتمعها، وقد أقتصرت البحوث المنشورة في أغلبها على البحث الفقهي أو البلاغي ولم تتجاوزها إلى البحث الكلامي، وعلينا في هذا المجال أن نعيد النظر في فترة (عثمان بن عفان) على وجه الخصوص لما انطوت عليه من اضطراب واختلاف في المقالات، ولأنها ستكون المقدمة التي جاءت بعدها الحوادث الكبرى كما اصطلح عليها طه حسين: (الفتنة الكبرى) في تاريخ الإسلام وبداية تشكيل الفرق، كما أن عصر الإمام علي (عليه السلام) لم يبحث بشكل كاف، بل أن المباحث الفلسفية والكلامية حول نهج البلاغة قليلة وموزعة على الشروح وكتب العقائد ولم تجمع في كتاب مستقل فهناك حاجة ماسة لتكملة هذه الجهود والسير بها خطوة متقدمة بأن تربط بمجمل تطور الفكر الفلسفي والكلامي الإمامي ثم الإسلامي العام.

أتهامات بلا دليل لا أريد استعراض ما جاء في هذه الأطروحة وإنما أقول: أن كثيراً من الدراسات الحديثة ليست حديثة إلا في التاريخ (تاريخ الطبع) لأن الاعتماد على آراء غير محققة هو للأسف ديدن العديد من اصحاب هذه الدراسات.

فإذا أخذنا ما كتبه إسعاف النشاشيبي وجمال سلطان وصفاء خلوصي وإحسان عباس وغيرهم نجد أن الاتهامات هي ذاتها وما يسمى بالأدلة هي ذاتها والفارق الوحيد هو في الأسلوب فقد كتب الباحث وارث حسن معلقاً على ما كتبه الدكتور صفاء خلوصي عن (نهج البلاغة) في أطروحته الموسومة (التأثيرات الشيعية في الأدب العربي) كذلك مقالته في مجلة Islamic Review في أكتوبر ١٩٥٠م قائلاً: «أن تعليقات خلوصي عن.. (كذا وكذا) مطابقة لما ذكره جميل سلطان بصورة تجلب النظر» وفات وارث حسن أن جميل سلطان هو الآخر هضم حقوق التأليف لأسلاف له على رأسهم الشيخ ميثم البحراني ولم يأت بشيء ذي بال من عنده رغم أن أنجازه للأطروحة أستغرق ثمانية سنوات! إضافة إلى هذا فإنه حوّر المعنى بما يفيد الشك علماً أن الذي بذر بذور الشك بحسب الرأي المشهور هو ابن خلكان (٦٨١هـ) ثم ابن تيمية (٧٢٨هـ) في منهاج السنة النبوية، والذهبي في (شذرات الذهب) المتوفى سنة (٧٤٨هـ)، والصفدي (ت ٧٦٤هـ) في الوافي بالوفيات، وابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) في لسان الميزان، كل هؤلاء ردوا شكوك ابن خلكان وربما أضافوا إليها تعليقات أخرى وهكذا يتحول هذا الصرح الضخم من الدراسات النقدية إلى ركام من احجار مكررة بليدة^١.

وهو أمر مؤسف فكتاب نهج البلاغة برأي المتواضع ليس فوق النقد تنزلاً من الناحية الاسلوبية والجمالية، وليس من الناحية العقديّة والايديولوجية لكنه يستحق نقداً موضوعياً جاداً، نقداً على مستوى بعض الشروح التي خلدت ذكره مثل شرح الشيخ ميثم البحراني وهو من كبار الأدباء في القرن السابع الهجري والمأمول أن يتصدى للنقد أيضاً أدباء كبار من هذا العصر بعيداً عن الأتهامات غير الأدبية.

وأستميحك العذر لأنني لم أفصل وتركت كثيراً من التفصيلات على أمل مواصلة هذه الدراسة في فرصة أخرى بإذن الله تعالى.

١ . اخيار مصباح السالكين: الشيخ ميثم البحراني (شرح الخطبة).
٢ . عبد الزهراء الحسيني: مصادر نهج البلاغة وأسانيده - النجف الأشرف/١٩٦٦، ١١٥/١.

السلم والتعايش الإنساني من منظار نهج البلاغة

الإستاذ المساعد الدكتور: محمد أديبي مهر، الدكتور يداالله ملايري (جامعة طهران - الجمهورية الإسلامية الإيرانية)

ملخص البحث:

وتحاول هذه الورقة عرض أهم ما يطرحه نهج البلاغة من استراتيجيات للسلم والتعايش السلمي خاصة تلك التي تتعاطق مع هذه النقاط. وترأى لنا من خلال الدراسة أنّ الخطاب العلوي خطاب مؤسس على التعايش وإعطاء الأولوية للسلم واحترام الآخر، رغم ما يكشفه لنا التاريخ من الحروب والصراعات التي خاضها الإمام (عليه السلام) طيلة حياته المباركة قبل تصديه للسلطة السياسية وبعده.

إشكالية البحث:

تسعى هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على ملامح فكرة التعايش الإنساني في نهج البلاغة بحثاً عن مقومات التفاهم الإنساني في هذا المصدر التراثي. ويتراءى لنا أنّ التعايش الإنساني موضوعة هامة يمكن استخراجها من كلام الإمام علي (عليه السلام)، لتصبح وصفاً ناجعة للتعامل الحضاري البناء بين مختلف المجتمعات رغم تعدد ثقافتها، مما يصون هذه المجتمعات المتعددة في الثقافة أمام الرؤى المنغلقة والمتطرفة التي لا تريد العالم مجالاً للتعامل والحوار والتعددية، بقدر ما يريد حلبة للصراع الحضاري، فالمتشددون لا يعرفون الاصطياد إلا في المياه العكرة!

السلم والتعايش:

يمثل النصّ الديني الحضارة الإسلامية خير تمثيل، لأن هذه الحضارة حضارة النصّ، كما يقول الدكتور نصر حامد أبو زيد، فاستطاعت الحضارة الإسلامية أن ترى الضوء في نهاية الدهليز المظلم قبل سبعة قرون، عندما كان المسلمون يعيشون في إحدى أحلك عصورهم التاريخية، إذ كانوا يتخبطون في الفوضى والتشردم، ولم يعرفوا طريقاً للخلاص إلا عبر التراث الديني. طبقاً للنصوص الإسلامية الأصيلة يمكننا أن ندعي أنّ الديانة الإسلامية - كغيره من الديانات السماوية - يعطي الأولوية للتعايش السلمي بين جميع الناس بمختلف عناصرهم ومعتقداتهم، رغم الأفكار الغربية الهدامة التي يريد أصحابها الانتهازيون الذين قد ارتدوا عباءة هذا الدين بلوغ أهدافهم من خلال استغلال الناس البسطاء الذين لا يعرفون دينهم معرفة حقّة، تكشف لهم لباب الدين دون القشور التي يتمسك بها هؤلاء المستغلون الذين شوّهوا صورة الإسلام حيث جعلوا هذه الديانة المنفتحة السمحة معادلاً موضوعياً للإرهاب والموت والدمار في أذهان الذين لا يعرفون الإسلام إلا من خلال هؤلاء الانتهازيين!

وليست هذه الأفكار الهدامة حكراً على الحضارة الإسلامية بل هي متفشية في بعض جوانب الحضارة الغربية.

وجاءت هذه الورقة ردّاً على تلك الأفكار الهدامة التي ترى في صراع الحضارات طريقاً وحيداً لا بدّ للإنسان من اجتيازه، ومن تلك الأفكار، فكرة «صراع الحضارات» لصاموئيل هانغتيغتون، والتي تمهد بتركيز على الصراع بين الحضارة الغربية والحضارتين الإسلامية والكنفوشية بالأساس للهجوم العسكري على الشرق، كما أنّ الأصوليتين الإسلامية واليهودية وغيرهما من الأصوليات قد مهّدتا للهجوم على الإنسان والإنسانية، وهذا ما يراه الكثير من الباحثين والمفكرين المحايدون في العالم.

«ولا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك الله فيه رضى، فإن في الصلح دعة لجنودك، وراحة من همومك، وأمناً لبلادك» هذا ما يقوله الإمام (عليه السلام) في كتابه للأشتر النخعي حين ولاه على مصر، ونعدّ هذا الكلام تأسيساً لخطابه الفكري في تفصيل السلم على الحرب. ولا يكتفي الإمام بتأسيس الخطاب فحسب، بل يفكر أيضاً في ديمومته فيضيف في الكتاب نفسه «وإن عقدت بينك وبين عدو لك عقدة، أو أليسته منك ذمة، فحط عهدك بالوفاء، وارع ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت، فإنه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد عليه اجتماعاً، مع تفريق أهوائهم، وتشنيت آرائهم، من تعظيم الوفاء بالعهود».

ولم يكن الإمام (عليه السلام) ممن يعشقون الحرب، بل كانت الحرب من المحظورات التي تبيحها الضرورات، فالحرب بدمارها وقتلها للإنسان أي إنسان، وهو إما أخ لنا في الدين أو نظير لنا في الخلق، لاتشكل خيار الإمام الأول، بل هي خياره الأخير، فهو يؤخر الحرب طمعاً في هداية الناس وتجنباً للقتال وحقناً للدماء: «فوالله ما دفعت الحرب يوماً إلا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي، وتعشو إلى ضوئي، وذلك أحب إلي من أن أقتلها على ضلالها، وإن كانت تبوء بأثامها».

ولا شك في أن تفصيل هداية الأعداء ومعايشتهم على خوض القتال معهم فكرة متجدرة في الخطاب القرآني العام، فيأمر الله سبحانه وتعالى موسى وهارون عليهما السلام بذهاب إلى فرعون: «ادْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى».

وللقول اللين أو الحوار - إذا أردنا ترهين المصطلح - مكانة رفيعة في الخطاب القرآني الذي انبنى عليه الخطاب العلوي، فهذان الخطبان المؤسسان على التذكر والخشية أمام الله سبحانه وتعالى كفيلاّن بسدّ الطريق أمام الطغيان الذي يؤسس للحرب والدمار، بعد أن أغلق جميع الأبواب أمام الحوار والتعددية فالتعايش، وهذا ما يشهد عليه التاريخ الإنساني بجميع طغاته.

للتعايش مكانة مرموقة ليس في الديانة الإسلامية فحسب بل في العلاقات التي تحكم بين الديانات السماوية أيضاً، فليس التبشير بظهور نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم) في الكتب السماوية التي نزلت قبل القرآن الكريم إلا برهاناً قاطعاً على النزعة التعايشية المنفتحة التي تحكم تلك العلاقات، كما أنّ المكانة المهمة التي تحتلها قصص الأنبياء السابقين في النص القرآني دليل على هذا التعايش، وتعايش النصوص وهي منظومة من العلامات التي يهتدي بها الإنسان دليل على تعايش المرسل والمرسل إليه، خاصة وإن مرسل هذه النصوص واحد، وهو الله سبحانه وتعالى.

ويسبح النص العلوي بوصفه منبثقاً من النص القرآني في هذا الفلك التعايشي، فنرى أنّ ذكر موسى وعيسى عليهما السلام يدخل في نسيج ضفائر نص نهج البلاغة «وإن شئت قلت في عيسى بن مريم (عليه السلام)، فلقد كان يتوسد الحجر، ويلبس الخشن، وكان إدامه الجوع، وسراجه بالليل القمر، وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها، وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهائم، ولم تكن له زوجة تفتنه، ولا ولد يحزنه، ولا مال يلفته، ولا طمع يذله، دابته رجلاه، وخادمه يداها!»

ولا شك في أنّ هذه الصورة التي يرسمها الإمام لعيسى بن مريم (عليه السلام) تتواشج مع مدلول النص الإنجيلي حين يقول على لسان السيد المسيح: «ما أصعب دخول الأنبياء إلى ملكوت الله! فمرور الجمل في ثقب الإبرة أسهل من دخول الغني إلى ملكوت الله».

وإن دلّ هذا التواشج الدلالي على شيء فيدلّ على عقليّة الإمام (عليه السلام) المنفتحة تجاه الآخر المسيحي ونصّه المقدّس.

ويتراءى لنا أنّ هذا الانفتاح النصي بحاجة إلى انفتاح في التأويل، وهذا الانفتاح يحتاج قبل كل شيء إلى عقلية منفتحة لدى المتلقي، ولا يحصل هذا الانفتاح إلا عبر التعايش السلمي مع الآخر بكيانه المستقل، وهذا يحتاج إلى نظرة تعددية لدى المتلقي أيّاً كانت ديانته.

ونكتشف من خلال فك شفرات هذه الفقرة من النصّ العلوي ومقارنته بالنصّ الإنجيلي أنّ الإمام يركّز على التعايش السلمي البناء مع الآخر، ولا نحصل على هذه الحصيلة الدلالية إلا من خلال

الحفر في أعماق النصّ، كما رأينا، وليس الاكتفاء بقشوره، أي إنّ النصّ العلوي - وكذلك النصّ القرآني - لا يذكر الأنبياء السابقين عليهم السلام لنعبر بقصصهم فحسب بل يريد - وهذا هو الأهم برأينا - أن يؤسس من خلال هذه العلاقة التناسية لخطاب فكريّ منفتح حيّ - وكلّ حيّ منفتح - ليأتسي به كلّ من يقتدي بالإمام، فيحترم الآخر وينفتح عليه، ليكون التعايش السلمي معه خيارنا الأول والأهم في الحياة الاجتماعية والعلاقات الإنسانية على المستويين المحلي والعالمي.

الاستعداد والوحدة صماما أمان للسلام والتعايش:

يجب الانتباه إلى أنّ التركيز على التعايش السلمي وتفضيل السلم على القتال في الخطاب العلوي لا يعني أن نغطّ في نوم الغفلة العميق، بل علينا دائماً أن نكون على أهبة الاستعداد لمواجهة الأخطار التي يمكن أن تكون لنا بالمرصاد، ومن جملة هذه الأخطار الكيان الصهيوني الذي أصبح يهدد السلام العالمي.

ونرى كيف أنّ الإمام (عليه السلام) يطالب الأشر النخعي بأخذ الحذر كئنه: «ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه، فان العدو ربما قارب ليتغفل، فخذ بالحزم، واتهم في ذلك حسن الظن».

ولا شك في أنّ أخذ الحذر من العدو أو كلّ من بإمكانه أن يشكل خطراً للمسلمين - ويبدو أنّهم غالبية من يتلقون النص العلوي - يتطلب تضامناً حقيقياً بينهم، ليصبحوا أقوىاء يستطيعون الرهان على السلام و التعايش مع الآخر، لأنّ سلام الأقوياء يشكل خياراً أنسب في عالم لا نستطيع أن نعيش فيه حياة كريمة لمجرد النوايا الطيبة، وتكشف لنا تجارب تاريخية على مستوى العلاقات الدولية مثل الحرب الباردة، أنّ السلام والتعايش في أدنى درجاتها يمكن أن يتحققا من خلال موازنة الخوف من الآخر، ولاشك في أن هذا اللون من السلام والتعايش أفضل بكثير من الصراع والحرب.

ويرى الإمام في الوحدة رمزاً للقوة وفي الفرقة رمزاً للضعف: «فانظروا كيف كانوا حيث كانت الأملاء مجتمعة، والأهواء مؤتلفة، والقلوب معتدلة، والأيدي مترادفة، والسيوف متناصرة، والبصائر نافذة، والعزائم واحدة، ألم يكونوا أرباباً في أقطار الأرضين، وملوكاً على رقاب العالمين! فانظروا إلى ما صاروا إليه في آخر أمورهم، حين وقعت الفرقة، وتشتتت الألفة، واختلفت الكلمة والأفئدة، وتشعبوا مختلفين، وتفرقوا متحاربين، قد خلع الله عنهم لباس كرامته، وسلبهم غضارة نعمته، وبقي قصص أخبارهم فيكم عبراً للمعتبرين».

ماذا نجني من السلام و التعايش:

يقول الإمام (عليه السلام) في كتابه للأشتر النخعي «فإن في الصلح دعة لجنودك، وراحة من همومك، وأماناً لبلادك» وإذا وسّعنا مدلول «الجنود» و«الهموم» و«الأمن» ليشمل كل الطاقات التي من المفترض أن تقوم بدورها في التنمية المستدامة الشاملة في كلّ مجتمع من المجتمعات البشرية، فنستطيع أن نستوعب مدلول كلام الإمام (عليه السلام)، فنرى كيف كان الإمام يؤمن بدور السلام في تنمية الطاقات المختلفة التي يمتلكها المجتمع ليستخدمها في تطويره في مختلف الميادين، وذلك بعيداً عن الهموم والمشاكل التي يواجهها الكثير من المجتمعات المسلمة التي كانت عليها أن تقتدي بكلام الإمام (عليه السلام)، وتجتاز العقبات التي سدّت طريق التقدم والتنمية أمام هذه المجتمعات.

توفير الفرص لقيام بعملية الإصلاح في المجتمع فائدة أخرى للسلام يضع الإمام إصبعه عليها، فيقول ردّاً على الذين سألوه «لم جعلت بينك وبينهم أجلاً في التحكيم؟»، يقول: فإنما فعلت ذلك ليتبين الجاهل، ويتثبت العالم، ولعل الله أن يصلح في هذه الهدنة أمر هذه الأمة، ولا تؤخذ بأكظامها، فتعجل عن تبين الحق، وتنقاد لأول الغي.

وإذا كانت في الهدنة التي أعقبت الحرب مع العدو فرصة للإصلاح وإخماد نيران الأحقاد والعودة إلى الرشد وسواء السبيل، فمن البديهي أن يكون للسلام والتعايش مثل هذه الإنجازات في علاقاتنا المحلية والإقليمية والدولية.

إنّ التعاضد والتضامن في وجه الأخطار التي تهدد المجتمعات المتعايشة المسالمة من الثمار التي تجنيه هذه المجتمعات من السلام والتعايش، ونرى ذلك في النص العلوي حين نستنتق ضفيرة من صفائر هذا النص، فيذكر الإمام (عليه السلام) في حلف يعقده بين ربيعة واليمن أنهما تصبحان «بدأ واحدة» ومن ذوي «دعوة واحدة»، أي إنّ السلام والتعايش يبرزان القواسم المشتركة بين هاتين الطائفتين من الناس لتنتج عنها قوة واحدة تحمي الطرفين المسالمين.

وغني عن الذكر أننا حين نقوم بترهين هذا الجزء من الخطاب العلوي علينا أن ننتبه إلى أنّ المجتمعات المعاصرة ليست مثل «المجتمعين» الذين عقد الإمام بينهما، فالمجتمعات المعاصرة أكثر تعقيداً وتعددية، الأمر الذي يجعلنا نحترم الآخر بخصوصياته الثقافية وبكيانه المستقل، حتى ولو كان هذا الآخر ممن يشترك معنا في الديانة واللغة وما شابههما من القواسم المشتركة.

سؤال و إجابة:

قبل أن ننتهي من هذه العجالة التي حاولنا من خلالها تفكيك شفرة من شفرات النص العلوي، وهو نصّ متعدد الأصوات يحتمل قراءات متعددة، قبل أن ننتهي منها يواجهنا سؤال جدّ هامّ، هو: إذا كان الخطاب العلوي خطاباً مسالماً منفتحاً يدعو للتعايش واحترام الآخر، فلماذا لا يشكل كلام الإمام (عليه السلام) في نهج البلاغة فضاء نصياً يعادل تلك الأفضية النصية التي تتحدث عن الحرب والقتال والجهاد؟

من أجل الإجابة عن هذا السؤال نقول :

(أولاً) إنّ ما جاء في نهج البلاغة لا يشكل إلا جزءاً من النصّ العلوي، فإذا أردنا أن نحيط بدلالات هذا النصّ كله، علينا أن نراجع كتباً مثل «غررالحكم ودرر الكلم» للآمدي و«دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم» للقضاعي، وغيرهما من الكتب التي تشتمل على مادة غزيرة لدراسة الجانب المسالم من الخطاب العلوي، ولم تتناول هذه الورقة مثل هذه النصوص التزاماً بحدود الدراسة وانصياعاً لسلطة العنوان.

(ثانياً) إنّ الإمام (عليه السلام) خاض الكثير من حياته الشريفة في الحروب الطاحنة التي فرضها عليه أعداء الإسلام ومعارضوه، الأمر الذي أجبره ليخصّص معظم طاقاته الجسدية والفكرية للتعامل مع هذه الأحداث، ولا شك في أنّ ذلك تمّ بالفعل على حساب الفضاء النصي الذي خصّه لخطابه السلمي التعايشي في نصوصه التي نجدها بين أيدينا، ولا شك أيضاً في أنّ هذا النقل في الفضاء النصي لا يعني أبداً الضالة في القيمة الدلالية لخطابه المسالم.

بالإضافة إلى ذلك فإننا نستغرب من تعامل الإمام السلمي في أحيان كثيرة يتوقع الكثير منّا نقيضه حين نقوم بعملية إعادة خلق الواقع التاريخي.

يشير المفكر الإسلامي الشهيد مرتضى مطهري إلى مثل هذا التعامل بقوله: «نرى أنّ أمير المؤمنين يخوض غمار الحرب حيناً و يمتنع أن يخوضه حيناً آخر.

لا يخوض الإمام (عليه السلام) غمار الحرب على السلطة بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكان يعامل بمرونة من كان يعامله بعنف.

وحين ساءلته سيدة نساء العالمين (سلام الله عليها) عن سبب هذا التعامل، فأجاب إنّ الواجب هو الذي جعله يخوض حروباً زمن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ويتجنبها بعد وفاته.»

خاتمة البحث:

وحاولنا من خلال هذه الورقة تسليط الضوء على جانب مهم من الخطاب العلوي الفكري في نهج البلاغة، وهو الدعوة إلى السلم والتعايش السلمي بين أبناء الديانات والمجتمعات المختلفة، ورأينا أنّ الخطاب العلوي خطاب منفتح يناشد حياة مفعمة بالتعايش والسلام، وتراعى لنا ذلك

من خلال استنتاج بعض طبقات النص في نهج البلاغة، مع ذلك فإننا نعتقد أنّ هذا النصّ نصّ تعدّدي يحتمل قراءات متعدّدة، غير أنّ ذلك لا يمنعنا، ونحن نحاول تقديم قراءة لهذا النصّ، أن نقول بأنّ خطاب الإمام الفكري خطاب مؤسس على التعايش السلمي، رغم ضآلة الفضاء النصي الذي يحتله هذا الخطاب الفكري بالمقارنة إلى الفضاء المخصّص بما يمكن أن نسميه الخطاب القتالي في نهج البلاغة.

وينبني الخطاب العلوي المسالم هذا على الدعوة إلى السلام والحفاظ عليه، كما ينبني على الإشادة بالأنبياء السابقين عليهم السلام، وأشرنا إلى ذلك من خلال ذكر النص العلوي للسيد المسيح (عليه السلام)، مما يكشف عن علاقة حوار وتناصّ بين نصي نهج البلاغة والإنجيل، الأمر الذي يدعو المتلقي إلى حياة مؤسّسة على الحوار والتعددية واحترام الآخر بخصوصياته الثقافية والحضارية التي تتمثل في الكيان المستقل لكل مجتمع من المجتمعات، والاعتراف بهذا الكيان حجر أساس للحوار والتعددية فالتعايش.

السياسة الإدارية عند الإمام علي(ع) قراءة في(عهدالتولية) لمالك الأشر

الاستاذ الدكتور صاحب أبو جناح

ليس من التحكم أن نقول إن (عهد التولية) الذي كتبه الإمام علي (عليه السلام) إلى مالك الأشر رحمه الله - وهو أطول عهد وأجمعه للمحاسن، كما يصفه الشريف الرضي رضوان الله عليه - يعد ميثاقاً بين الإمام (عليه السلام) وعامله، ودستوراً جامعاً يرسم للناس حقوقهم ويضمن مصالحهم ويشخص واجبات الدولة تجاههم .
وفي اعتقادي أنه أهم وثيقة سياسية وإدارية في تاريخ الإسلام بعد وثيقة الخطاب النبوي الشريف في (حجة الوداع).

وهذا البحث يسعى لاستخلاص خطوط عامة يشكل ائتلافها صورة نأمل أن تكون مفصلة عن رؤية الإمام علي (عليه السلام) لمسؤولية الحكم والتزامات الحاكم في مجالات السياسة والدفاع وإدارة المجتمع وتنمية الاقتصاد مما استخلصناه من «عهد إلى مالك الأشر» حين ولاء أمر مصر، ومستأنسين بما ورد له من أنظار وأفكار تتحو هذا المنحى، في خطبه ورسائله في مناسبات عدة في أثناء حكمه الشريف.

وقبل الخوض في تفاصيل هذا (العهد) ووصايا الإمام وتعليماته وأوامره في هذه المجالات يحسن أن ندرج جملة من المبادئ العامة مهد بها الإمام لعهد ونثر جملة منها في ثناياه لتكون ضوابط يلتزم بها المسؤول عند ممارسته مسؤولياته.

ولابد لنا هنا من التنبيه والتأكيد على أن الإمام (عليه السلام) كان حريصاً على تعليل كل وصية وبيان وجه الحكمة من كل نصيحة يسوقها في (عهد)، وكأنه كان يرى أن من تمام مسؤوليته وواجبه تجاه أصحابه وأعوانه بيان الغاية والمصلحة فيما يوصي به ويأمر باتباعه، وذلك إرشاداً لهم وإعداداً إياهم عن الإهمال والتقصير فيما كلفوا به.
في مقدمة هذه المبادئ:

١- مبدأ الرقابة الذاتية:

يرى الإمام (عليه السلام) أن سلامة السيرة في تدبير شؤون الناس وإدارة مصالحهم تقتضي أن يلتزم المسؤول - بعد الركون إلى «كتاب الله» والعمل بأحكامه- مبدأ الرقابة الذاتية الصارمة ومحاسبة النفس «إملك هواك وشح بنفسك عما لا يحل لك»^١ ويرتبط بذلك الالتزام «بإنصاف الله والناس من نفسه وخاصة أهله والمقربين من أعوانه»^٢ والسبيل إلى ذلك «أن يكسر من نفسه عند الشهوات وينزعها عن الجمحات، فإن النفس إمارة بالسوء إلا ما رحم الله» منبها إياه إلى أن هناك رقابة شعبية ورأياً عاماً ينبغي له أن لا يتغافل عنهما «إن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر من أمور الولاية قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم، وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على السن عباده»^٣ فالرأي العام- عند الإمام- مؤشر ومعيار لا بد من التنبيه له في تدبير الأمور ومراجعتها، وكان يقال: السنة الرعية أقلام الحق سبحانه إلى الملوك.

وفي كل عصر يشكل الرأي العام مصدراً رئيساً للضغط السياسي على المؤسسات الحاكمة والأحزاب السياسية، وعلى السلطات التشريعية، بل على المراكز الدينية أيضاً، وهو اليوم (مادة دراسية) في كليات الإعلام والعلوم السياسية.

١. نهج البلاغة ٤٩٩، ابن أبي الحديد ٢٣/٥.

٢. نفسه ٥٠٠، الشرح ٢٦/٥.

٣. نفسه ٥٠٠، الشرح ٢٣/٥.

٢- النهي عن الاستبداد:

والحذر من الشعور «بالأبهة والمخيلة ومساماة الله في عظمته والتشبه به في جبروته» وأن لا يدفعه غرور السلطة للقول «إني مؤمّر أمر فأطاع، فان ذلك أدغال في القلب ومنهكة للدين، وتقرب من الغير» وعلاج ذلك وتداركه نفسيا وروحيا أن «ينظر إلى عظم ملك الله فوقه، وقدرته منه على ما لا يقدر عليه من نفسه»^١ فذلك رادع له عن الطغيان وضمان من التجبر، وهما أشد ما يفسد الدول ويخرّب المجتمعات وينقض العمران. وقديما قيل: من استبد برأيه هلك. وقيل: ما خاب من استشار. وقيل: مشاوراة العقلاء مشاركة لهم في عقولهم.

٣- النهي عن سفك الدم الحرام:

لعل أشد ما حذر منه (عليه السلام) مالكا حتى إنه أوّده بالاقتصاص منه عند ارتكابه آفة الابتلاء بسفك الدماء بغير حلها، وهو أخطر ما امتحن الناس به، وشهدوا ما شهدوا منه من أهوال في عهود الطغاة من الذين استحوذوا على مقاليد الأمور بعد استشهاد (عليه السلام) وانقضاء عهده الشريف.

فهذه الآفة المهلكة- كما يبصرها الإمام وكما شهدت به الوقائع التاريخية وما تزال تشهد به اليوم- تستدعي عند الله النعمة، وزوال النعمة، وتعجيل الأجل، وتعظيم التبعة، وتقدم- لشناعتها عند الله- غيرها من الخطايا في المساءلة يوم الحساب.

«فلا تقوين سلطانك بدم حرام، فان ذلك مما يضعفه ويوهنه، بل يزيله وينقله»^٢ وأندر مالكا بالاقتصاص منه إذا تورط في قتل العمد، فان وقع من ذلك خطأ منه أو إفراط في عقوبة بدنية أدى إلى وفاة المجني عليه الزمه بدفع حق ذلك إلى أولياء المقتول دون تردد أو كراهة أو أنفة بسبب ما هو عليه من سلطان وأبهة.

يعقد جورج جرداق مبحثين مهمين في كتابه «الإمام علي صوت العدالة الإنسانية» يشغل الأول منهما خمسا وأربعين صفحة وعنوانه «علي ومبادئ الثورة الفرنسية ويشغل الثاني منهما عدة صفحات وعنوانه «وثيقة حقوق الإنسان» وفيه يربط بين مبادئ هذه الوثيقة وتعليمات الإمام (عليه السلام) ووصاياه إلى ولاته وعماله ومروسيه، الأمر الذي يوحي بأن الإمام عليه السلام قد سبق في فكره ورؤياه فلاسفة الثورة الفرنسية والمشرعين العالميين في عصرنا هذا بعدة أجيال ومراحل.

٤- النهي عن الاحتجاج عن الناس:

لكي يكون الوالي متابعا لأحوال مواطنيه مطلعاً عليها، ويكون المواطنون على علم بما يجري من حولهم من شؤون الدولة، حذر الإمام (عليه السلام) مالكا من الاحتجاج عن الناس، لأن ذلك مدعاة للتكهنات وترويج الظنون، وحرمان أصحاب الحاجات والمظالم من أن يصل صوتهم إليه، فضلا عن أنه يحول دون وقوفه على شؤونهم وأحوالهم. «فلا تطولن احتجاجك عن رعيتك، فإن احتجاج الولاة عن الرعية شعبة من الضيق، وقلة علم بالأمور»^٣.

٥- مراقبة الخاصة والحاشية:

يتصل بما تقدم من إنصاف الناس والاطلاع على شؤونهم بشكل مباشر أن يحذره من خاصته وبطانته، وما يقع لهم من استغلال للنفوذ واستئثار وتطاول وقلة إنصاف للناس في المعاملة، ويأمره بردع هؤلاء والامتناع عن أن يحملهم على رقاب الناس ويمكنهم من الاستئثار بالنعمة دونهم والإذلال لهم.

١. نفسه ٥٠١، الشرح ٢٥/٥.

٢. نفسه ٥١٩، الشرح ٨٠/٥.

٣. نفسه ٥١٦، الشرح ٦٦/٥.

«ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وحامتك قطيعة، ولا يطمعن منك في اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس في شرب أو عمل مشترك يحملون مؤونته على غيرهم، فيكون مهنا ذلك لهم دونك، وعيبه عليك في الدنيا والآخرة»^١.

وهذا المبدأ يتصل بمبدأ المساواة الذي أقرته شريعة حقوق الإنسان كما رسمها الفكر السياسي الحديث بعد الثورة الفرنسية.

وفي موضع متقدم من «العهد» يقرر الإمام أن هذه الفئة الطفيلية هي أقل الفئات استعدادا للتضحية عند الأزمات وأثقلها مؤونة عند الرخاء.

«وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء، وأقل معونة له في البلاء وأكره للإنصاف وأسأل بالإلحاف، وأقل شكرا عند الإعطاء وأبطأ عذرا عند المنع وأضعف صبورا عند ملات الدهر، من أهل الخاصة»^٢.

ولأن الحق شديد على النفوس ثقيل الوطأة عليها، لاسيما إذا لحق مصالح الأهل والأقارب والخواص، أساه الإمام (عليه السلام) في ذلك قائلا «وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد، وكن في ذلك صابرا محتسبا، واقعا ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع، وابتغ عاقبته بما يتقل عليك منه، فإن مغبة ذلك محمودة»^٣.

٦- أداء الفروض:

بعد أن فرغ (عليه السلام) من التوصية بأمور الناس، وهي في صلب الطاعة لله ولأوامره ونواهيته، أوصاه بأداء فرائضه والقيام بها كاملة غير منقوصة، في ليله وفي نهاره، بالغا ذلك من بدنه ما بلغ، مع حرصه على أن تكون صلاته في الناس غير طويلة ولا ناقصة مخدجة، لأن فيهم العاجز والمريض والمسمن «صل بهم كصلاة أضعفهم، وكن بالمؤمنين رحيمًا»^٤.

لقد أراد الإمام لعامله أن يكون قدوة لمرؤوسيه وأعوانه ووكلائه في العدل والنزاهة وحصانة النفس عن استغلال النفوذ والاستئثار بما تحت يده من مال وسلطان، فمتى تحقق ذلك في نفسه وأتباعه اقتدى به مواطنوه ورعاياه فالناس على دين ملوكهم، كما قيل.

محاور السياسة العامة:

لخص الإمام (عليه السلام) المهمات السياسية والإدارية لمالك في «عهد التولية» بالعنوانات الآتية: «جباية الخراج، وجهاد العدو، واستصلاح الناس وعماراة البلاد»^٥.

وإنما بدأ بجباية الخراج لأنه مصدر التمويل الرئيس وعماد اقتصاد الدولة وإدامة أجهزتها. وثنى بالدفاع عن الأرض وجهاد العدو، ثم أتم ذلك باستصلاح الناس، وأراد بذلك إدارة شؤونهم ورعاية مصالحهم وتحقيق العدالة بينهم، وختم مهماته بعماراة البلاد وتنمية الاقتصاد وتوفير أسباب الطمأنينة للقوى المنتجة.

وقبل تفصيل الحديث عن هذه المحاور الأربعة حرر الإمام فقرة أوجز فيها الإشارة إلى فئات المجتمع الذي وجه إليه مالكا، وسماهم «طبقات»^٦ وفيها: «جنود الله» (العسكريون) ومنها كتاب العامة والخاصة (من يقوم بشبه مهام الوزراء) ومنها قضاة العدل، ومنها عمال الإنصاف والرفق (الإداريون والجباة) ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس (المزارعون ومربو الماشية والأنعام)، ومنها التجار، وأهل الصناعات (الحرفيون) ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجات والمسكنة (فقراء المدن والريف).

١. نفسه ٥١٧، الشرح ٧٠١٥، الإمام علي صوت العدالة الإنسانية ٣٥٢/١.

٢. نفسه ٥٠٢، الشرح ٢٦/٥.

٣. نفسه ٥١٧، الشرح ٧٠/٥.

٤. نفسه ٥١٦، الشرح ٦٥/٥.

٥. نفسه ٤٩٩، الشرح ٢٣/٥.

٦. نفسه ٥٠٥، الشرح ٣٦/٥.

السياسة الدفاعية:

حين شرع الإمام (عليه السلام) بتفصيل الحديث عن حقوق فئات المجتمع وواجباتها بدأ بالحديث عن الجنود الممثلين لتشكيلات الحرس النظامي والمقاتلين من المجاهدين المندوبين للدفاع أو الفتح.

فامتدحهم بأنهم «حصون الرعية وزين الولاية وعز الدين وسبل الأمن، وليس تقوم الرعية إلا بهم»^١ ولا بد من تموينهم بما لدى الدولة من موارد مالية تتمثل في عائدات الخراج والجزية وأموال الزكاة، وتوفير مستلزماتهم حتى يمكنهم الدفاع عن عهدهم، فضلا عن احتياجهم إلى طبقات المجتمع من إداريين وتجار وحرقيين يوفرون لهم مستلزماتهم وسلعهم وعددهم مما لا يقوم به غيرهم.

ورسم بان يختار لقيادتهم والإمرة عليهم أقومهم سيرة وأكثرهم تحريا للعدل والإنصاف، وحدد لذلك شرائط وضوابط لخصها بالقول: «فول من جنودك انصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك، وأظهرهم جييا وأفضلهم حلما، ممن يبطيء عن الغضب، ويستريح إلى العذر، ويراف بالضعفاء، وينبو على الأقوياء»^٢.

وفي هذا النص احترس الإمام من خطرين: خطر الفساد، الذي شهد ما شهد منه في زمانه، قبل توليه الأمر، وانتهى بثورة أدت إلى مصرع الخليفة الثالث، وخطر الاستبداد الذي يعطل أحكام الشريعة، فجعل الحلم والأناة والرافة بالضعفاء والحزم مع الأقوياء المنتفذين شرطا في من يتولى المسؤولية وميزانا لاختياره.

ولان الحكمة الماثورة تقول: «عليكم بذوي الأحساب، فإن هم لم يتكروا استحيوا» أوصى الإمام عامله بان يصطفي من جنوده قيادات من «ذوي المروءات والأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة، ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة، فإنهم جماع من الكرم وشعب من العرف»^٣ نفوسهم غنية عما في أيدي الناس، وهمتهم لا تتخلف عن نصرة صاحبهم، وهم ابعد ما يكونون عن التخاذل أو الغلول.

وعطف على هذه الوصية توصية برعاية الجنود وأسره ماديا ومعنويا، لان في ذلك ضمانا لحسن بلائهم ورفع معنوياتهم، وتشجيعا لأهل الإخلاص والمبادرة منهم، مما يصطلح عليه اليوم في إدارة الجيوش بالتعبئة المعنوية والتوجيه النفسي.

يقول (عليه السلام): «فافسح في آمالهم، وواصل من حسن الثناء عليهم، وتعدد ما ابلي ذو البلاء منهم، فإن كثرة الذكر لحسن فعالهم تهز الشجاع، وتحرص الناكل»^٤.

وفي السياسة الخارجية:

ينصح الإمام (عليه السلام) مالكا بان يختار السلم على الحرب عندما يعرض عليه عدوه صلحا يرضي الله ولا يفرط فيه بحقوق الأمة، لان في السلم راحة للمقاتلين وللوالي، وهو أمن للبلاد وسبيل إلى العمران والازدهار الاقتصادي، مع الاحتراس من مكائد العدو والتيقظ لتدبيراته، إذ لا بد من الحزم والانتباه وعدم الاسترسال في حسن الظن والاطمئنان.

وتوثيقا لذلك لا بد أن يكون هناك التزام بالوفاء بالعهد المبرم ورعاية الذمة، فتعظيم الوفاء بالعهد سنة حسنة عند جميع الناس والأمم، مسلمها ومشرکها «وقد جعل الله عهده وذمته أمنا أفضاه بين العباد برحمته، وحرما يسكنون إلى منعه، ويستفيضون إلى جواره، فلا إدغال ولا مدالسة ولا خداع فيه»^٥.

١. نفسه ٥٠٥، الشرح ٣٨/٥.

٢. نفسه ٥٠٦، الشرح ٣٨/٥.

٣. نفسه ٥٠٦، الشرح ٣٨/٥.

٤. نفسه ٥٠٧، الشرح ٣٨/٥.

٥. نفسه ٥١٩، الشرح ٧٧/٥.

وضمامنا لسلامة «المعاهدة» وتحقيقا لاستتباب السلم المنيع يحذر الإمام (عليه السلام) مالكا، عند إبرام العهود والمواثيق، من الصيغ المبهمة المحتملة للتأويلات والعلل وطلب المخارج، ويحذره أيضا من نقض العهد، وأن لا يعول في الاحتيال لبلوغ ذلك على تأويل خفي أو فحوى قول حين يجد نفسه ملزما بما لا يوافق هواه ومصالحته، وقد أساه الإمام في ذلك قائلا «فإن صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجة وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته»^١.

وفي السياسة الداخلية والإدارية:

خصص الإمام (عليه السلام) فقرة من «عهده» قدمها على ما سواها من تعليمات الإدارة واختيار الإداريين والحكام، وألزم فيها مالكا بضرورة الاستعانة بسياسة «التطهير، ومحاربة الفساد» وذلك بالاحتراس من الاستعانة بأعوان الجائرين من الحكام ممن شاركوهم في آثامهم، فنهاه عن أن يتخذ منهم بطانة، لأن في غيرهم سعة وغنية عن اللجوء إليهم، قائلا: إن شر وزرائك من كان قبلك للأشرار وزيرا.. وأنت واجد عنهم خير الخلف، ممن لهم مثل آرائهم ونفاذهم، وليس عليه مثل أضرارهم وأوزارهم وآثامهم، ممن لم يعاون ظالما على ظلمه، ولا آثما على إثمه^٢ معللا ذلك بأن هؤلاء الجدد سيكونون أخفّ عليه مؤونة وأحسن له معونة، لم يتلوثوا بالفساد ولم يأتوا باجتراح الباطل.

وحثه على أن يتخذ من هؤلاء الصفوة المختارة مستشارين ناصحين وأن يؤثر منهم من كان صريحا في قول الحق، على مرارته، ولا يعينه على ما يكون منه مما يكره الله لأوليائه «واقعا ذلك من هواك حيث وقع».

اختيار العمال والولاة:

رسم الإمام (عليه السلام) شروطا وضوابط يلتزمها مالك عند اختيار عماله وولاة النواحي وأمرء الأطراف، أولها: إن يكون اختبارهم وتجربتهم محكا لذلك، وليس الركون إلى المحاباة والأثرة، لأنهما يجمعان الجور والخيانة ووضع الأمور في غير نصابها، على نحو ما كان يقع قبل ولاية الإمام وما وقع بعدها على نحو فاحش، وعلى نحو ما يقع بيننا اليوم من بلاء وضعنا في طليعة الأنظمة المنخورة بداء الفساد وآفاته.

وثانيها: أن يتوخى منهم «أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام المتقدمة» معللا ذلك «بأنهم أكرم أخلاقا، وأصح أعراضا، وأقل في المطامع إشرافا، وأبلغ في العواقب نظرا»^٣.

ولإعانتهم على صيانة نفوسهم ورعاية ذمهم أوصاه بأن يسبغ عليهم الأرزاق، لأن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، ومانعا لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم إن تلموا الأمانة، وخالفوا الأمر.

اختيار الكتاب والمستشارين:

عند اختيار الكتاب، وهم يقومون مقام مدراء المكاتب أو الوزراء في أنظمة الإدارة اليوم، وكذلك المستشارين وأمناء السر، أوصى الإمام (عليه السلام) مالكا بان يتحرى أكيستهم وأرسلهم حكمة وحنكة، وأكتمهم للسر، ليكون أمينا على مكاتباته وأسراره وتدبيره في الإدارة والمراسلات، ممن يؤمن ولاؤه وطاعته ووفائه، وأن يكون دقيقا في تحرير المكاتبات والعقود وكتب التولية، حتى لا يلتبس منها شيء، ولا يستغل منها نص غير محكم.

وحذره من أن يكون اختياره لهم عن محض فراسة وحسن ظن بأحوالهم مما يوحي به ظاهرهم، لأن تصنع الكياسة والوقار والتقوى وحسن الحديث كثيرا ما يخفي عدم النصح وضعف الأمانة

١. نفسه ٥١٩، الشرح ٧٨/٥.

٢. نفسه ٥٠٣، الشرح ٣١/٥.

٣. نفسه ٥٠٩، الشرح ٥٠/٥.

عند المحترفين منهم^١ على ما نشهده اليوم عند كثير من المتوسلين إلى تسلم المناصب والساعين إلى بلوغ المآرب. وحثه على اختيار أهل التجربة ممن سبقت لهم خدمة صالحة عند من كان قبله من الولاة، وتحقق له حسن سمعة عند الجمهور، بما عرف به من أمانة ونصيحة.

اختيار القضاة:

ومن الشروط التي اشترطها الإمام (عليه السلام) في هذا الباب أن يكون القاضي من أنبه الناس عقلاً وأفضلهم وعياً وإدراكاً وسعة صدر، وتحريماً عن الحق، وتقبلاً للرجوع عن الخطأ، وصرامة عند اتضاح الحكم، وأبعدهم عن الطمع، ممن لا يخدع بإغراء ولا يستميله إطراء. ولضمان تحقق ذلك واحتراساً من الوقوع في مهاوي الإغراء أوصاه (عليه السلام) بإكرامهم وتوفير رزقهم ومؤونتهم، ورفع منزلتهم على سواهم، لحمايتهم من التجاوز وصيانتهم من النيل منهم؛ وفي هذا ضمان لاستقلال القضاء كما يرى بعض الباحثين. والإمام في هذا الموقف يستحضر سوء ما كان عليه الحال قبيل ولايته من تعطيل حدود الله والحكم بالهوى وإيثار القرابة والحاشية، بقول الإمام: «فانظر في ذلك نظراً بليغاً، فإن هذا الدين قد كان أسيراً في الأشرار، يُعمل فيه بالهوى، وتطلب به الدنيا»^٢.

إدارة المجتمع:

إن الاستقصاء الدقيق للشأن الاجتماعي الذي التحم به نسيج النص المتضمن (عهد الإمام لمالك) يقفنا على طائفة من الوصايا والنصائح وطائفة من التحذيرات والنواهي، وفي مقدمتها:

التربية الذاتية:

ولعل أنجع ما أوصى به الإمام (عليه السلام) مالكا في شأن التربية الذاتية ومراقبة النفس عند إدارة أمور الناس- على تقدمه في السن وتجربته في الحياة- نصيحته له «بالإكثار من مدارس العلماء ومناقشة الحكماء» في مراجعة ما كان عليه أمر الناس قبله، وما كانت شؤونهم تدار به، لترسيخ ما كان صالحاً منه وتقويم ما استقام به الناس قبله، ممهداً لذلك بقوله: ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة، واجتمعت بها الألفة، وصلحت عليها الرعية»^٣. فالاستعانة بما صحّ من تجارب سابقيه وتوخي الحذر من اتخاذ الإجراءات غير المدروسة، هما السبيل إلى توفير الجهد واجتناب الهدر في الطاقات وإقلاق السكينة الاجتماعية، وهذا يعزز ما استهل به الإمام (عده) من نصيحة «وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللفظ بهم، ولا تكوننّ عليهم سبعا ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم، ووالى الأمر عليك فوقك، والله فوق من وراك، وقد استكفأك أمرهم، وابتلاك بهم».

وفي هذا الشأن حذر الإمام (عليه السلام) مالكا من جملة من المعاييب والمآخذ منها مغبة الإعجاب بالنفس والثوق بما يعجبه منها، ومنها حبه للإطراء الذي يفرط فيه المتزلفون من الأعوان والحاشية وطلاب المنافع، لأن ذلك- عند الإمام- إفراط في الضلال وسبيل إلى محق كل ما صدر عنه من حسن تصرف.

ومما حذر منه آفة المنّ على الرعية على ما يستوجبونه من حقوق والتبجح بما صدر عنه من منفعة لهم هي في صميم واجباته نحوهم. لأن المنّ يبطل الإحسان، والتزيد يذهب بنور الحق، لأنه يخلط الكذب بالصدق.

١. نفسه ٥١٢، الشرح ٥٥/٥.

٢. نفسه ٥٠٩، الشرح ٤٣/٥، الإمام علي صوت العدالة الإنسانية ٣٦١/١.

٣. نفسه ٥٠٥، الشرح ٣٥/٥.

ومن ذلك العجلة بالأمر قبل أوانها، فهي خصلة مذمومة، أو التساقط فيها- حرصا وجشعا- عند إمكانها، أو اللجاجة في الحاجة إذا تعذرت، أو التهاون فيها والتراخي عنها وترك انتهاز الفرصة فيها «إذا اتضحت وانكشفت».

ومما نهاه عنه الاستنثار بما الناس فيه أسوة، وهو آفة الحكام ولا يكاد ينجو منه أحد. وحذره من التغابي والتغافل عما يبلغه من تمادي خاصته في منكرات الأمور والتستر عليها، فإن مسؤولية ذلك تقع عليه، وهو مأخوذ بجريرتهم.

وألزمه بتجنب عواقب الغضب والتسرع في حسم الأمر قبل أن يستعيد هدوءه ويسكن عنه الغضب «أملك حمية انفك وسورة حدك وسطوة يدك وغرب لسانك، واحترس من كل ذلك بكف البادرة وتأخير السطوة حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار»^١.

ومن بين ما حذره منه الإنصات إلى أهل الوشاية والسعي في طلب معايب الناس، وهم فئة تجمعها دواعي الحسد وحب الشغب، فينصحه باستبعادهم وازدرائهم وعدم الإنصات لهم أو التعجيل بتصديقهم، «فإن الساعي غاشٌّ وإن تشبه بالناصحين»^٢ ويحثه مقابل ذلك على ستر عورات الناس ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وعلى معالجة ما ظهر منها وبيان للجُمهور، ويذر الله تعالى الحكم على ما خفي منها.

ومثلما حذره من الوشاة حذره من اتخاذ البخلاء والجبناء والجشعين مستشارين له، لأن البخل والجبين والحرص، كما يراها الإمام، غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله.

ومغزى كلام الإمام الذي حذر به مالكا أن الإنسان لو أحسن الظن بالله وكان يقينه صادقا لعلم أن الأجل مقدر وأن الرزق مقدر وأن الغنى والفقر مقدران، ولا يكون شيء من ذلك إلا ما قضى الله تعالى كونه.

وفي مقابل ذلك ينصحه بتقريب أهل الورع والصدق، وترويضهم على تجنب الإطراء والتزلف، لأن الإفراط في ذلك، كما يقرر الإمام، يحدث الزهو ويدني من العزة، وهما مظنة الغرور والاستكبار.

وينهاه عن تجاهل التفريق بين أهل الإحسان وأهل الإساءة، فإن في ذلك تزهيدا لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريبا لأهل الإساءة على الإساءة^٣.

وينصحه بتهدئة النفوس وطمأننتها وإطلاق عقد الخوف وأسباب الوتر والتغابي عن كل ما لا يتضح له.

ولتلافي كل هذه المحذورات يقترح الإمام (عليه السلام) علاجا لذلك عماده التمسك بذكره المعاد إلى الله والالتزام بفرائضه وأوامره والاقتداء بسنة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والصالحين من أولياء الأمور المعروفين بالعدل والفضل، وفي مقدمتهم ولي أمره، وما يشهده من سيرته وعدالته وتقواه.

رعاية الطبقات الاجتماعية وفئات العامة

إن قانون الإمارة وحكمة الإدارة عند الإمام (عليه السلام) يرتكزان على إدراك مكونات المجتمع وتشخيص فئاته والتنبيه على وحدة المصير والتحام المصالح المشتركة بين فئات المجتمع وطبقاته.

وهو الأمر الذي اتفق عليه علماء الاجتماع السياسي بإقرارهم: أننا لا يمكن أن نفهم المجتمع بكليته، ولا النظم المختلفة فيه، السياسية منها والاجتماعية والاقتصادية ... ما لم نتعرف على العناصر التي يتكون منها، وطبيعة العلاقات القائمة فيما بينها، ثم المكانة التي تحتلها هذه العناصر بالنسبة إلى بنية الوحدات السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية يتجلى ذلك في قول الإمام (عليه السلام): «واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى لبعضها

١. نفسه ٥٢١، الشرح ٨٣/٥.

٢. نفسه ٥٠٣، الشرح ٢٧/٥.

٣. نفسه ٥٠٤، الشرح ٣٣/٥.

٤. علم الاجتماع السياسي - د. صادق الأسود - دار الحكمة للطباعة والنشر - بغداد - ١٩٩١ - ص ٩٩.

عن بعض ... وكل قد سمى الله له سهمه، ووضع على حده وفريضته، في كتابه أو سنة نبيه (صلى الله عليه وآله)، عهدا منه عندنا محفوظا» يؤكد هذه النظرية قول عالم الاجتماع المعاصر نيقولا حداد في كتابه (علم الاجتماع) ان غاية الاجتماع تعاون الافراد في الدفاع والاسترزاق واشترآكهم في التمتع بملذات الحياة.

وقد أوحى هذا النص المشخص لطبقات المجتمع ووظائفها في البنية لاجتماعية وحقوقها عند السلطة السياسية والادارية لبعض الباحثين الاستنتاج أن الإمام (عليه السلام) هو أول من وضع قواعد علم الاجتماع وهو المعلم الاول له «الراعي والرعية (ص ٥٠-٥٣)».

لذا فالإمام يحث مالكا على لزوم تحري أوسط الأمور في الحق وأعمها في العدل واجمعها لرضا الرعية، ولاسيما «العامّة» من جماهير الشعب وكادحيه، فالاجتهاد في رضا هؤلاء مقدمة واجبات الوالي، فهم «عمود الدين وجماع المسلمين والعدة للأعداء»^١.

بحسب وصف الإمام لهم، فهم قوام الدفاع عن أمن الأمة، وعليهم يقوم بناء الاقتصاد، وتحريك عجلة الإنتاج وتوفير أسباب العيش للمجتمع، لذا ينصح الإمام (عليه السلام) مالكا بأن يكون ميله إليهم واصطفاه معهم، لأن رضا هؤلاء أمان من الاضطراب والقلق السياسي المؤدي إلى إثارة السخط وانفجار الفتن، وليس عليه - إن حقق العدالة في هؤلاء - أن يسخط عليه «الخاصة» من حاشيته ومقربيه وذوي السلطة والشأن ممن تتناقض مصالحهم في الغالب مع مصالح العامة وجماهير الشعب، لأنها قائمة على الاستئثار والاستغلال والنهم الذي لا حدود له^٢، فضلا عن أنهم أقل الفئات تضحية وأضعفها معونة بحسب وصف الإمام لهم: «وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء وأقل معونة له في البلاء وأكره للإنصاف^٣ وأسأل بالإلحاف، وأقل شكرا عند الإعطاء، وأبطأ عذرا عند المنع وأضعف صبيرا عند ملمات الدهر من أهل الخاصة».

وقد صاغ الإمام (عليه السلام) هذه النظرية السياسية الخطيرة بقوله: «فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة، وإن سخط الخاصة يُغفّر مع رضا العامة».

وإدراكا من الإمام (عليه السلام) لدور الفئات الاجتماعية المنتجة المحركة لعجلة الاقتصاد من «التجار والحرفيين» جعلهم موضع الاهتمام وأوصى مالكا برعايتهم وتقعد أحوالهم وحمائيتهم من التجاوز عليهم، سواء كانوا قريبين منه أو في اطراف بلاده.

وعلى عادة الإمام (عليه السلام) في بيان الحكمة من كل وصية أو تحذير علل ذلك بأنهم «مواد المنافع وأسباب المرافق وجلبابها من المباعد والمطارح» في البر والبحر والسهل والجبل، فضلا عن أنهم «سلم لا تخاف بانقته، وصلح لا تخشى غائلته»^٤ فهم فئات مسالمة لا يخشى منها تمرد ولا تأمر، لانشغالهم بما هم فيه من كسب، ولأن الاضطراب الأمني يعطل أعمالهم بل يفسدها.

ولم يغب عن بال الإمام (عليه السلام) التحذير من آفة التجارة في كل زمان ومكان وهي «الاحتكار والاستغلال» الذي يرافق الأزمات الأمنية والاقتصادية عادة، وقد نهى عنه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومنع منه لأن ذلك باب مضرّة للعامة، فألزم الإمام (عليه السلام) مالكا بمراقبة التجار ومنع الاحتكار ومعاقبة من يقتترف خطيئة في هذا الشأن، بعد نهيه عنها، عقوبة صارمة من غير إسراف، يصل حد إراقة الدماء على نحو ما يقع من الحكام الطغاة تعسفا وجورا.

١. نفسه ٥٠٢، الشرح ٢٦/٥.

٢. من مظاهر ذلك ما تضمنه قول عمر بن عبد العزيز لآل مروان: «إني لأحسب شطر أموال هذه الأمة أو ثلثيها

في أيديكم» شرح ابن أبي الحديد: ٧٥/٥.

٣. ليس واقعة الجمل، في وجه من وجوها، غير مظهر من مظاهر كراهة الإنصاف الذي أرادته الإمام (ع) حين ساوى بين المسلمين في العطاء، فثارت ثائرة الخاصة من قريش وأموية والمنتفعين من السلطة السابقة بدعوى المطالبة بدم الخليفة الثالث.

٤. نفسه ٥١٣، الشرح ٦٠/٥. الإمام علي صوت العدالة الإنسانية ٣٤٣/١.

واستكمالا لذلك الأمر أوصاه بأن يكون البيع بيعا سمحا بموازن عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من الباعين والمبتاعين^١.

ولأن المساكين والمعوزين هم الشغل الشاغل لأولياء الله وأهل التقوى أُرِدْف الإمام (عليه السلام) توصيته بالتجار وأهل الصناعات توصية حثيثة بمن سماهم «الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل اليأس والزمى» وهم إلى الإنصاف والعناية من بين الرعاية أحوج من غيرهم. فالزم مالكا بأن يخصص لهم قسما من بيت المال ومن عائدات الأرض الزراعية المفتوحة صلحا (الصوافي)، وحثه على رعاية شؤونهم وتفقدوا، سواء كانوا قريبين منه أو بعيدين عنه، وان يوكل بهم جهازا خاصا لمتابعة شؤونهم وتفقد أحوالهم في مواطن اقامتهم، يديره الثقات من أهل الخشية والتواضع، وذلك أدعى لإزالة الرهبة والتهيب من نفوسهم، «فلا تشخص همك عنهم، ولا تصعّر خدك لهم، وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم، ممن تقتحمه العيون وتحقره الرجال»^٢ لهوان شأنه ورثاة هيئته، التي خشي الإمام أن تكون حاجزا يمنع وصوله إلى ديوان المسؤولين.

والزمه بتعهد الأيتام والمسنين «ممن لا حيلة له ولا ينصب نفسه للمسألة» عجزا أو تعففا. ونهيه إلى ان «ذلك على الولاة ثقيل والحق كله ثقيل» وعزائه في ذلك أن الله تعالى يخففه عن طلب الأجر والثوبة، وصدق موعود الله. ولبلوغ هدفه في إقامة العدل ألزمه بأن يعقد «مجلسا عاما للمواطنين ولاسيما ذوي الحاجات عنده، يتفرغ لهم فيه، ويرفع عنهم كلفة المراسيم، وذلك بتتحية الحرس والجنود، لإزالة الرهبة عن نفوسهم، حتى يكلموه بغير تلجج ولا ارتباك، بعد أن يتبسط معهم ويحتمل منهم السذاجة والعي ويبعد عنهم الضيق والأنف»^٣.

وفي الشأن الإداري:

أوصاه بمتابعة مراسلات عماله وإجابة ما يعجز كتابه عن إجابته أو ما ليس من شأنهم الإجابة عليها من مراسلات خاصة لا يصلح أن يطلع عليها غيره. ونصحه بان ينظم عمله ويقسم أيامه ولا يدخل عمل يوم في عمل يوم آخر فيربكه ذلك ويتعبه^٤.

وفي الشأن الاقتصادي:

نبه الإمام (عليه السلام) مالكا- إضافة إلى ما سبق من حثه على رعاية التجار وأهل الصناعات- إلى الدور العظيم للموارد الاقتصادية في إقامة شؤون الدولة وترسيخ نظامها وبناء مؤسساتها. والخراج هو رأس الاقتصاد في المجتمعات الزراعية ومنها مصر، لذا حث الإمام مالكا على تفقد أمره بما يصلح أهله ويعينهم، لان صلاحهم صلاح للمواطنين عامة، فهم عيال عليه وعلى القائمين به من شغيلة الحقل الزراعي وإدارييه.

ووضع نصب عينيه أن اهتمامه بعمارة الأرض وتدبير مستلزمات الإنتاج يجب أن يتقدم اهتمامه بجباية ضريبة الخراج، لان من «طلب الخراج بغير عمارة الأرض أضر البلاد وأهلك العباد» فإذا تعرضت الأرض إلى عطش بسبب شحة المطر أو انقطاع مياه الري أو إلى آثار الفيضان أو الآفات الزراعية لزمه التخفيف عن كاهل أهلها- عند الجباية- بما يصلح أمرهم، وليس في ذلك خسارة على بيت المال بل تشجيع لهم على معاودة الإنتاج بجد ونشاط، وإصلاح عمارة الأرض، فضلا عما فيه من إشاعة الطمأنينة في نفوس الناس تجاه أولياء الأمور، واستعدادهم للبدل والمعونة عند حدوث أزمة أو إمام ملمة.

١. نفسه ٥١٣، الشرح ٦٠/٥. الإمام علي صوت العدالة الإنسانية ٣٥٠/١

٢. نفسه ٥١٤، الشرح ٦٢/٥.

٣. نفسه ٥١٥، الشرح ٦٤/٥.

٤. نفسه ٥١٦، الشرح ٦٤/٥.

فليس من المصلحة استنزاف ما في ايدي المزارعين، لأن خراب الأرض يؤتى من إعواز أهلها الناجم عن إلاح أهل الجباية والتحصيل، وهو ما حذر منه الإمام ع، لأنه من مظاهر الفساد والجور وسوء التدبير^١.

وتأكيدا للردع والنهي عن الجور والفساد في هذا الشأن- وهو الهاجس الذي يؤرق الإمام (عليه السلام) ويشغل باله لما شهده في زمان العمال قبله- حذر الإمام عمال الخراج، في كتاب وجهه إليهم، من سوء التصرف والتعسف في معاملة الناس واضطرارهم إياهم إلى ما لا يجوز ولا يصح «ولا تبيعن الناس في الخراج- أي بسببه- كسوة شتاء ولا صيف، ولا دابة يعتملون عليها، ولا عبدا، ولا تضربن أحدا سوطا لمكان درهم»^٢.

وبلغ من احتياط الإمام (عليه السلام) لتحقيق العدل انه كان يوصي عمال صدقاته بالتأدب مع الناس والتزام اللطف بهم، وجاوز ذلك إلى إلزامهم بالرفق بحيواناتهم المستحقة لفريضة الصدقات عليها «ولا تنفرن بهيمة، ولا تفزعنها، ولا تسوعن صاحبها فيها» ونصح بالرفق بما جبي من حيوانات الصدقة والعناية بها، لأنها ملك لبيت مال المسلمين والمستحقين لها، «ولا توكل بها إلا ناصحا شفيقا وأميئا حفيظا، غير معنف ولا مجحف ولا ملغب ولا متعب»^٣.

والذي يتبين لي، بعد هذه الرحلة من التحليل والتأمل في (عهد الإمام)، أنه كان يؤمن بمقولة (الناس على دين ملوكهم) وليس بمقولة (كيفما تكونوا يولّ عليكم) فأشد ما كان يشغل فكر الإمام هو صلاح ذوي الشأن القائمين على أمور الناس في مجال الإدارة والقضاء والدفاع وغيرها من شؤون إدارة الدولة، انطلاقا من إيمانه بمقولة (صلاح الرعية بصلاح الوالي) لذلك لا نجد في (العهد) كله غير تفصيلات واجب المسؤول تجاه مسؤوليه وتذكيره بإقامة حكم الله وسلطان الحق فيهم، ثم رعايتهم بأقصى ما يستطيع من ذلك، لاسيما فئات الضعفاء والمعوزين والعجزة من طبقة العامة، وهي الطبقة التي وسمها بأنها «عمود الدين وجماع المسلمين والعدة للأعداء» وهي أكثر الطبقات تحملا للتضحية واستعدادا للبذل والعطاء.

فالإمام كان حريصا في جميع فقرات هذا (العهد) وتفاصيله على بيان مسؤولية الأمر وليس مسؤولية الأمور، وذلك لكثرة ما شهده وما سمعه عن جور الولاة وتجاوزهم على حقوق الناس وتحكمهم في مصائرهم بالباطل.

لقد كان ابن أبي الحديد في منتهى الدقة والإنصاف حين وصف هذا (العهد) بأنه: نسيج وحده، ومنه تعلم الناس الآداب والقضايا والأحكام والسياسة ... وحقيق مثله أن يُقتنى في خزائن الملوك. (الشرح: ٣١٠/٢)

مصادر البحث

إصلاح المجتمع في منظار نهج البلاغة(بحث)، أحمد محمد جواد الحكيم؛ مجلة المورد ٤٤ م ٣٦ عام ٢٠٠٩ .

الأمام علي صوت العدالة الإنسانية، جورج جرداق، دار المهدي، بيروت، ٢٠٠٤ م .

الراعي و الرعية، توفيق الفكيكي، ط٣، شركة المعرفة للنشر، بغداد، ١٩٩٠ م

شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، دار مكتبة الحياة، بيروت، د ت .

علم الاجتماع السياسي، د.صادق الأسود، دار الحكمة للطباعة و النشر، بغداد، ١٩٩١ م .

نثر الدر، منصور بن الحسين الابي، تحقيق: محمد علي قرنة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠ .

نهج البلاغة، ط ٢، مؤسسة أنصاريان للطباعة، قم، ٢٠٠٣ م .

١. نفسه ٥١١ ، الشرح ٥٢/٥ .

٢. نفسه ٤٩٨ ، الشرح ١٥/٥ .

٣. نفسه ٤٤٥ ، الشرح ٥٧٩/٤ .

الصورة الفنية في كتاب نهج البلاغة

الدكتور: أحمد بن بالقاسم جعفري

ملخص المداخلة:

يعتبر كتاب نهج البلاغة لأبي الحسن علي بن أبي طالب (عليه السلام) من أجلّ وأهم الكتب التي جمعت عجائب البلاغة، وغرائب الفصاحة، وجواهر العربية ووثائق الكلم الدينية والدنيوية لأنه وببساطة - كما وصفه جامع الشريف أبو الحسن محمد الرضي - جاء حاملاً بين طياته خطبا وكتبا ومواعظ وأدبا جما ما لم يتح في غيره ولم يوجد مجتمعا في كلام ولا مجموع الأطراف في كتاب حتى غدا في ذلك سراجا للفكر البشري في مضمونه، وسحرا للبيان والفصاحة في أسلوبه.

ومن هنا جاء تفكيرنا في مشاركة إخواننا القائمين على هذا الملتقى النير لنصب الجهد إلى الجهود في محاولة من الجميع للوقوف عند أهم نقاط الفريدة اللغوية والأسلوبية في هذا الكتاب التّهج وهذا من خلال وقوفنا على جانب الصورة الفنية المستعملة في إيصال فكرة الكتاب من أقرب الطرق المستعملة، وبأبسط الوسائل اللغوية الممكنة.

فما المقصود بالصورة الفنية أولا؟ وما هي أهميتها في إيصال المعنى وتقريبه؟ ما هي أهم موضوعات الصورة عند الإمام؟ وما هي أهم أشكالها البلاغية المستعملة؟ أسئلة قليلة من كثيرة نرغب في إثارتها على أمل الوصول إلى إجابات كافية، وتوصيات شافية لما من شأنه أن يسهم في تفعيل حركية البحث اللغوي في كتاب نهج البلاغة للإمام علي (عليه السلام) والإفادة قدر الإمكان من معينه العذب الزلال. والله من وراء القصد والهادي إلى سواء السبيل.

نص المداخلة:

١ - تعريف الصورة:

والصلاة والسلام على أشرف خلق الله أجمعين وعلى آله الأخيار الطاهرين وبعد: فإن حديثنا عن الصورة الفنية بداية نريده من تعريف الصورة عند اللغويين والبلغاء لنقف أولا على مدى ارتباط كل ذلك بمعناه الاصطلاحي الذي نتبعه في هذا المجال. وفي ذلك يقول ابن منظور في كتابه لسان العرب في باب الراء: «المصور في أسماء الله - هو الذي صور جميع الموجودات ورتبها فأعطى كل شيء منها صورة خاصة وهيئة مفردة يتميز بها على اختلافها وكثرتها. والصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته وعلى معنى صفته، يقال صفة الفعل كذا وكذا أي هيئته وصورة الأمر كذا وكذا أي صفته والتصاوير التماثيل».

هذا هو تعريف الصورة لغة أما في الاصطلاح فهي «ابنة للخيال الشعري الممتاز وهي في أكثر حالاتها مظهر خارجي محدود ومحسوس جيء به في الشعر ليعبر عن عالم من الدوافع والانفعالات لا يُحدّد ولا يحس وهي واسطة الشعر التي تحقق له لغته المتميزة فلغة الشعر مختلفة عن لغة الفلسفة والمنطق ولغة النثر أيضا».

ويعرفها الدكتور منير سلطان بأنها: «اللقطة التي تسجل وضعا معيناً لشيء سواء أكان كائناً حياً أم ظواهر طبيعية».

وإذا انتقلنا إلى القرآن الكريم للبحث عن مدلول اللفظ وجدنا النص القرآني يوظف اللفظ في صيغ اشتقاقية مختلفة، حيث نجد التعبير أحيانا بصورة الجمع الفعل الماضي «صور» المقرون بصيغة الجمع «صوركم» كما في قوله تعالى: «اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ»، كما

نجد التعبير عن المعنى أحيانا بصيغة المفرد كما في قوله عز وجل: «فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ».

وقد يخرج اللفظ من صيغة الفعل إلى صيغة اسم الفاعل كما في قوله تعالى: «هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» وفي العموم فإن جميع هذه الأشكال التعبيرية وغيرها للفظ «صور» لم تخرج عن الدلالة العامة لأصل اللفظ والتي تصب في معظمها في معنى جامع هو الخلق، والتشكيل، والتركيب وما دار في فلکهم.

٢ - موضوعات الصورة الفنية:

يقول الجاحظ «إن المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والقروي والمدني وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ...» ومن هنا ندرك طبيعة المواد وأهميتها لأن نظرة الناس إلى المادة أو اللفظة الواحدة يختلف من إنسان إلى آخر «لكنها عند الشاعر والفنان بشكل عام ذات دلالة خاصة تتعدى إشارتها المعجمية إلى كونها موضوعا له وظيفة إنسانية يشترك فيها بنو البشر في الإحساس والفعل بصفة غالبية لك لأن الشاعر ينظر إلى الكون نظرة عامة فيها الوحدة والاشتراك».

ومن هنا كانت المادة تعبيراً وترجمانا لإحساس ينتاب المبدع في لحظة معينة. ولعل المتأمل بداية لهذه المدونة العلوية الشاملة والتي جاءت حاملة بين طياتها لكثير من الخطب والكتب والمواظ والأدب والتي استطاعت أن تجمع بحق بين عجائب البلاغة، وغرائب الفصاحة، وجواهر العربية و وثواقب الكلم الدينية والدينيوية لأنه وببساطة - كما وصفها جامعها الشريف أبو الحسن محمد الرضي - يستوقفه أولا تلك الصور المتنوعة في موادها وأنواعها، فهي تعرج من حيث اللفظ بين شتى مناحي الحياة اليومية للإنسان من حيوان وجماد ونبات، كما تجمع من حيث الأشكال التعبيرية بين جميع الأنواع البلاغية المعروفة من تشبيه واستعارة وكناية.

ومعلوم إنه ليس بالإمكان الوقوف ولو تمثيلا عند كل مواد وأنواع صورته (عليه السلام) في هذه المدونة الضخمة بالنظر إلى كثرة المادة من جهة وبالنظر إلى عامل الوقت من جهة أخرى، ومن هنا أثرنا أن نقف في هذا الموضوع عند بعض العينات المختارة من كلامه (عليه السلام) لتكون نموذجا لما من شأنه أن يشكل حكما أوليا في الموضوع.

أولاً: مواد الصورة في كتاب نهج البلاغة:

١٠١ / الحيوان:

لقد وظف الإمام في مدونته أزيد من ستين مادة من مواد الحيوان وبجميع الأشكال التعبيرية جمعا وإفرادا وتثنية ومن جملة المواد الحيوانية الواردة في هذه المدونة العجبية نجد: الإبل، والأنعام، والغنم، والبعير، والجمل، والخيول، والناقة، والثور.

كما نجد أيضا: الأسد، والفيل، والحمار، والذئب، والكلب، ومن الطيور نجد: الطير مطلقا كما نجد الحمام، والنعامة، والخفاش، والديك، والحياتان والغراب، ومن الحشرات نجد البعوض، والنمل، والنحل، والجراد وسنكتفي هنا تمثيلا بمثلين تماشيا مع ما يسمح به الوقت.

(الإبل:

لقد ورد لفظ «الإبل» في مدونة الإمام علي (عليه السلام) أكثر من تسع مرات واللفظ في عمومها هو لمعنى طول الصبر وكلفة المشقة من جهة وللانقياد وحسن أو سوء الرعاية من جهة حيث يقول مثلا في خطبته (عليه السلام) في استنفار الناس إلى أهل الشام بعد فراغه من أمر الخوارج وفيها نُصِح لهم كما قال محقق الكتاب: «مَا أَنْتُمْ لِي بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّيَالِي، وَمَا أَنْتُمْ بِرُكْنٍ يُمَالُ بِكُمْ، وَلَا زَوَافِرُ عَزَّ يُفَنَّقَرُ إِلَيْكُمْ. مَا أَنْتُمْ إِلَّا كَأَيْلِ ضَلَّ رُعَاتُهَا، فَكَلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ انْتَشَرَتْ مِنْ آخَرٍ».

ونرى الإمام علي (عليه السلام) في موطن آخر يوظف اللفظ في لمعنى شدة الصبر وطول التحمل وهي مضرب المثل في ذلك حيث قال (عليه السلام): «أوصيكم بخمس لو ضربتكم إليها آباط الأبل لكانت لذلك أهلاً: لا يرجون أحد منكم إلا ربّه، ولا يخافن إلا ذنبه، ولا يستحيين أحد إذا سئل عمّا لا يعلم أن يقول: لا أعلم، ولا يستحيين أحد إذا لم يعلم الشئ أن يتعلمه.»

ومن كلام له (عليه السلام) وفيه يصف أصحابه يوم تراحموا عليه ليباعوه رغبة فيه. نجد الإمام (عليه السلام) يستحضر في هذه الصورة تحديدا وحالهم كذلك صورة الإبل العطاش يوم يفك عقالها ويرسلها راعيها يوم شربها حيث يقول: «فَدَاكُوا عَلَيَّ تَدَاكَ الْإِبِلُ الْهَيْمَ يَوْمَ وَرَدَهَا، قَدْ أُرْسَلَهَا رَاعِيهَا، وَخَلَعَتْ مَنَائِيهَا».. وتأكيدا للموقف نجد الإمام يكرر الصورة بتفاصيلها الدقيقة في مشهد آخر حيث يقول: «وَبَسَطْتُمْ يَدَيَّ فَكَفَفْتُمَهَا، وَمَدَدْتُمُوهَا فَفَبَضْتُمَهَا، ثُمَّ تَدَاكَكْتُمْ عَلَيَّ تَدَاكَ الْإِبِلُ الْهَيْمَ عَلَى حِيَاضِهَا يَوْمَ وَرَدَهَا.»

وتبقى صورة الإبل العطاش يوم وردها حاضرة مرة أخرى عند الإمام (عليه السلام) في وصفه لبعض أيام صفين لكن بتوظيف عكسي هذه المرة حيث يضعنا أمام صورة هذه الإبل هذه المرة وهي مطرودة، عن حياضها، ممنوعة عن مواردها وقد رجعت يركب بعضها بعضا حيث يقول: «تَحُوزُونَهُمْ كَمَا حَازُواكُمْ، وَتُزِيلُونَهُمْ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ كَمَا أَزَالُوكُمْ؛ حَسَاً بِالنَّصَالِ، وَشَجْرًا بِالرَّمَاحِ، تُرَكَّبُ أَوْلَاهُمْ أَخْرَاهُمْ كَالْإِبِلِ الْهَيْمِ الْمَطْرُودَةِ، تُرْمَى عَنْ حِيَاضِهَا، وَتُدَادُ عَنْ مَوَارِدِهَا.»

وليست الإبل رمزا للتدافع والتسابق بل هي أيضا علامة للسفر وشد الرحال حيث يقول (عليه السلام) في ذلك مبينا أهمية قوله ووصيته لقوم: «أوصيكم بخمس لو ضربتكم إليها آباط الأبل لكانت لذلك أهلاً.»

(ب) الجراد:

لقد جاء حديث الإمام (عليه السلام) خاصا عن هذا الحيوان في حديثه عن صفة خلق من أصناف الحيوانات حيث يقول: «وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي الْجَرَادَةِ، إِذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ، وَأَسْرَجَ لَهَا حَدَفَتَيْنِ قَمْرَاوَيْنِ وَجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الْخَفِيَّ، وَفَتَحَ لَهَا الْفَمَ السُّوْيَ، وَجَعَلَ لَهَا الْجِسَّ الْقَوِيَّ، وَنَابِئِينَ بِيهَا تَقْرُضُ، وَمُجَلِّئِينَ بِيهَا تَقْبِضُ، يَرْهَبُهَا الزَّرْعُ فِي زَرْعِهِمْ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ذَنْبَهَا، وَكَلُوا أَجْلُبُوا بِجَمْعِهِمْ، حَتَّى تَرِدَ الْحَرْتُ فِي نَزْوَاتِهَا، وَتَقْضِي مِنْهُ شَهَوَاتِهَا، وَخَلَقَهَا كُلُّهُ لَا يُكُونُ إِصْبَعًا مُسْتَدَقَّةً فَتَبَارَكَ اللَّهُ الَّذِي (يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا)» وهي صفات جميعها جعلت من هذا الحيوان الصغير حجما العظیم عبرة محل استشهاد وإعجاب من الإمام (عليه السلام) وهي في ذلك نموذج تمثيلي فقط لبقية خلقه عز وجل فهذا غرابٌ وهذا عُقَابٌ، وهذا حَمَامٌ وهذا نَعَامٌ، كل دَعَاه اللهُ كُلَّ بِاسْمِهِ، وَكَفَّلَ لَهُ بَرَزَقِهِ. كما قال (عليه السلام). وقد نجد الإمام أيضا يخصص خطبة بعينها للحديث عن بعض من عجيب خلقة الطيور عامة والطاوس خاصة.

٠٢ / النباتات:

لقد تكررت المواد النباتية في كتاب نهج البلاغة لسيدنا الإمام علي (عليه السلام) في أزيد من عشرين موضعا من الكتاب حيث نجد الإمام يوظف في صورته جملة من الألفاظ النباتية المختلفة من مثل بعض أنواع الأزهار، وكذا النخل بمشتقاته المختلفة من تمر وليف وفسيلة.

وكذا الشعير والكلأ والعشب والعقم والريحان والبزرو والحديث يطول بالتمثيل لكل هذه الصور.

٠٣ / الطبيعة:

لقد تعددت ألفاظ الطبيعة وتنوعت موضوعاتها في أسلوب الإمام علي (عليه السلام) فنحن نراه في هذه المدونة يتحدث عن أدق ما خلق الله في الطبيعة حيث نراه يوظف مصطلحات المعادن بشتى أصنافها وأنواعها من ذهب وفضة وعسجد وزبرجد ولؤلؤ وكحل ومرجان وياقوت وعقيان ودر وما إلى ذلك كما نجد عنه أيضا من ألفاظ الطبيعة الكثير والكثير فهو يوظف عديد أسماء الكواكب والأفلاك من مثل الشمس والقمر والفلك والفضاء والنجم والنجم السيار والشهب الثواقب والأطباق والليل والنهار وما إلى ذلك. فهو يوظف كل لفظ لمعناه ومبناه الخاص قد

نجد عنده جملة من هذه الألفاظ مرصوفة للتدليل على معناه كما في حديثه (عليه السلام): «وَكَذَلِكَ السَّمَاءُ وَالْهَوَاءُ، وَالرِّيَّاحُ وَالْمَاءُ. فَانظُرْ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ، وَالْمَاءِ وَالْحَجَرِ، وَاخْتِلَافِ هَذَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَفَجُّرِ هَذِهِ الْبِحَارِ، وَكَثْرَةِ هَذِهِ الْجِبَالِ...» وهي كلها في مبانيتها وفي معانيها تدل دلالة واضحة على عجيب صنعة الخالق عز وجل ومن ثم: «قَالُوهُ لِمَنْ جَدَّ الْمُقَدَّرَ، وَأَنْكَرَ الْمُدَبِّرَ!».

ثانيا: الأنواع البلاغية للصورة في كتاب نهج البلاغة:

إن الأشكال البلاغية للصورة الفنية عديدة ومتنوعة ونحن في هذا المقام لا يمكننا التعرض لها كلها ولذلك اقتصرنا على بعضها وأهمها لأن الغرض ليس هو إحصاء جميع الشواهد الموجودة في المدونة بل هو تحليل هذه الشواهد والتعرف على موضوعاتها لمحاولة فهم طبيعة تلك الصور ومن ثم تذوقها والوقوف عند جمالياتها ولعل أهم ركيزة ودعامة في مكونات الصورة هي في جانب البيان بأشكاله المعروفة من تشبيه واستعارة وكناية وفيها جميعا أهم نقاط الفريدة اللغوية والأسلوبية في هذا الكتاب النهج الذي كان ولا يزال نهجا ونبراسا للبلاغة والبلاغيين ويكفي كما قال النقاد ((أن يطلق الشريف الرضي على هذه العينة من مختارات الإمام (عليه السلام) اسم (نهج البلاغة) أي النموذج أو المعايير أو القواعد أو الطرائق التي تجسد ما هو (فني) أو (بلاغي) من التعبير. وإليك أيضا نماذج مختارة من صور الإمام في الجانب البياني)).

١٠ / التشبيه:

يعرف التشبيه على أنه «الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى». كما عرف أيضا بأنه «لاقة مقارنة تجمع بين طرفين لإتحادهما أو اشتراكهما في صفة أو حالة أو مجموعة من الصفات والأحوال» وهو أداة مهمة في إيصال المعنى وتقريب الصورة إلى الأذهان أحيانا. ولذلك فإن المتأمل لخطابه (عليه السلام) في هذه المدونة يجده قد وظف جميع أنماط التشبيه المعروفة تقريبا وبحسب ما يقتضيه كل مقال. فنحن نجده في حثه على الصبر والثبات يقرن ذلك بتبيين منزلته من الإيمان التي لا تختلف في شيء عن منزلة الرأس من الجسد فكلاهما مرتبط بالآخر ولا وجود لأحدهما إلا بوجود الآخر وفي ذلك يقول (عليه السلام): «وَبِالصَّبْرِ، فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الْإِيمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، وَلَا خَيْرَ فِي جَسَدٍ لَا رَأْسَ مَعَهُ، وَلَا فِي إِيْمَانٍ لَا صَبْرَ مَعَهُ».

وفي حديثه عن وجوب التعلق بالله رجاء ثوابه وخوفا من عقابه رؤية خاصة مع الإمام يرى بأنها لا تقدر بأي ثمن ولا بأي مطلب دعاء كان ذلك أم صدقة حيث يقول في كل ذلك مشبها ومستعيرا لكل مشهد ما يماثله: «فَوَاللَّهِ لَوْ حَنَنْتُمْ حَبِينَ الْوَلِيِّ الْعَجَالِ، وَدَعَوْتُمْ بِهَدِيلِ الْحَمَامِ، وَجَارْتُمْ جُورَ مُنْبَلِّي الرُّهْبَانِ، وَخَرَجْتُمْ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، التَّمَّاسَ الثُّرْبَةَ إِلَيْهِ فِي ارْتِفَاعِ دَرَجَةِ عِنْدَهُ، أَوْ عُفْرَانَ سَيِّئَةَ أَحْصَتْهَا كُنْبُهُ، وَحَفِظَتْهَا رُسُلُهُ، لَكَانَ قَلِيلًا فِيمَا أَرْجُو لَكُمْ مِنْ ثَوَابِهِ، وَأَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ عِقَابِهِ».

فهو هنا يصور الداعي إلى الله في صورته تلك بصورة الناقة التي فقدت ولدها فضاع عقلها من جراء ذلك، ويصور لنا أيضا صورة الداعي المبتهل إلى الله بصورة الحمام في صوته وبكائه.

وفي المقابل يصور لنا أيضا صورة الداعي المتعلق الذي بلغ درجة الرهبان المنقطع للعبادة في رفع صوته ومخاطبته لله.

وهي صور تمثيلية جاءت من الإمام (عليه السلام) لتبين أهمية المطلوب عند الله فيما يرجوه لنا من ثواب، أو يخافه علينا من عقاب.

ومن أمثلة صور التشبيه عند الإمام (عليه السلام) هذه الصورة الرائعة التي اختصرت المسافة بين الدنيا والآخرة وبينت العلاقة بينهما وكذا حدود طالب كل منهما حيث يقول: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ أُدْبِرَتْ، وَأَذْنُ بُوْدَاعِ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أُقْبِلَتْ، وَأَشْرَفَتْ بِاطِّلَاعِ، أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ

المضمار، وَغَدَا السَّبَّاقَ، وَالسَّبَقَةَ الْجَنَّةَ، وَالْغَايَةَ النَّارَ؛...أَلَا فَاعْمَلُوا فِي الرَّغْبَةِ كَمَا تَعْمَلُونَ فِي الرَّهْبَةِ، أَلَا وَإِنِّي لَمْ أَرَ كَالْجَنَّةِ نَامَ طَالِيهَا، وَلَا كَالنَّارِ نَامَ» .

وهي الصورة نفسها التي استوقفت الشريف الرضي وعلق عليها قائلا: «ومن أعجبه قوله (عليه السلام) «أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارَ، وَغَدَا السَّبَّاقَ، وَالسَّبَقَةَ الْجَنَّةَ، وَالْغَايَةَ النَّارَ؛» فإن فيه - مع فخامة اللفظ، وعظم قدر المعنى، وصادق التمثيل، وواقع التشبيه - سرّاً عجبياً، ومعنى لطيفاً، وهو قوله (عليه السلام): «وَالسَّبَقَةَ الْجَنَّةَ، وَالْغَايَةَ النَّارَ»، فخالف بين اللفظين لاختلاف المعنيين، ولم يقل: «وَالسَّبَقَةَ النَّارَ» كما قال: «وَالسَّبَقَةَ الْجَنَّةَ»، لان الاستباق إنما يكون إلى أمر محبوب، وغرض مطلوب، وهذه صفة الجنة، وليس هذا المعنى موجوداً في النار، نعوذ بالله منها! فلم يجز أن يقول: «وَالسَّبَقَةَ النَّارَ»، بل قال: «وَالْغَايَةَ النَّارَ»، لان الغاية قد ينتهي إليها من لا يسره الانتهاء إليها ومن يسره ذلك، فصلح أن يعبر بها عن الامرين معاً».

وفي معرض حديثه (عليه السلام) عن الدنيا التي ولت سريعة، ولم يبقى فيها إلا أقل القليل بعد مبعث آخر الأنبياء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام يشبه ذلك بإناء شرب شرب منه وما بقي فيه غير بقية قليلة جدا حيث يقول: «أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ حَذَاءً فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ اصْطَبَّهَا صَابَةٌ» وهو تحذير منه (عليه السلام) من اتباع الهوى وطول الأمل في الدنيا.

وفي خطبته التي يستنفر فيها الناس إلى الشام يشبه تراجع الناس وموقفهم منه في إقبالهم وإدبارهم بالإبل التي ضل رعاتها حيث أنها لا يمكن أن تجتمع من مكان واحد حيث يقول: «مَا أَنْتُمْ إِلَّا كِإِبِلٍ ضَلَّ رُعَاتُهَا، فَكُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ انْتَشَرَتْ مِنْ آخَرَ، لَيْسَ - لِعَمْرِ اللَّهِ - سَعْرُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ!».

وفي حديثه عن خطورة الحسد والغضب نجده يشبه الحسد بالنار أولاً في سرعة انتشارها في الحطب وسرعة فاعليتها في القضاء على وقودها. كما يشبه الغضب بالحالقة الماحية لكل خير وبركة حيث يقول: «لَا تَحَاسَدُوا، فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْإِيمَانَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطْبَ، وَلَا تَبَاغَضُوا فَإِنَّهَا الْحَالِقَةُ».

وإذا كان عنصر التشبيه هو «مما اتفق العقلاء على شرف قدره وفخامة أمره في فن البلاغة وأن تعقيب المعاني به لا سيما قسم التمثيل منه يضاعف قواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها».

فإن المتأمل لهذه النماذج التمثيلية المختارة يجد بأن عنصر التشبيه في عموم كلام الإمام لم يكن مقصوداً لذاته، لكنه جاء منه في مواطنه المطلوبة وبحسب ما يقتضيه كل مقام من مقامات الفصاحة والبلاغة في تقريب الفكرة وإيصالها من أقرب الطرق الممكنة.

٢٠٠/ الاستعارة:

عرف البلاغيون الاستعارة بأنها: «استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي:

وإن شئت قلت إنها ضرب من ضروب المجاز علاقته المشابهة.

ولقد شكلت الاستعارة عنصراً أساسياً لا يمكن الاستغناء عنه في كلام الإمام (عليه السلام) لأن الكلام كما قيل: «متى خلا من الاستعارة وجرى كله على الحقيقة كان بعيداً من الفصاحة برياً من البلاغة».

ومن هنا كان من غير الممكن الحديث عن مجمل أنواع هذا الشكل البلاغي في كتاب عد نهجا للبلاغة لكن ذلك لا يمنعنا من الوقوف عند بعض جماليات هذا اللون البياني في إطار استكمالنا لمعالم صورته الفنية.

ومن أمثلة ذلك ما ضمنه معناه في حديثه عن حال الناس قبل البعثة حيث حول المحسوس ملموساً حين جعل للدين حبلاً مشدوداً ومقطوعاً، ولليقين ركائز مرصوصة ولالإيمان دعائم ومعالم وسبل معلومة حيث يقول: «...وَالنَّاسُ فِي فِتْنٍ أَنْجِزِمَ فِيهَا حَبْلُ الدِّينِ، وَتَزَعَزَعَتْ

سَوَارِي الْيَقِينِ،» إلى أن يقول «عُصِيَ الرَّحْمَنُ، وَتَصِيرَ الشَّيْطَانُ، وَخَذَلَ الْإِيمَانَ، فَأَنهَارَتْ دَعَائِمُهُ، وَتَنَكَّرَتْ مَعَالِمُهُ، وَدَرَسَتْ سُبُلُهُ».

وفي صورة أخرى من أنماط الاستعارة نرى الإمام (عليه السلام) هذه المرة مثلا يصور لنا امتزاج الباطل بالحق والحق بالباطل عند المرتادين من طالبي الحقيقة وعند المعاندين على حد سواء وهي البداية كما قال (عليه السلام) لا ابتداع الأحكام ووقوع الفتن ومخالفة كتاب الله حيث يقول في كل ذلك: «فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخَفَ عَلَى الْمُرْتَادِينَ، وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لِبْسِ الْبَاطِلِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدِينَ وَلَكِنْ يُؤَخَذُ مِنْ هَذَا ضِعْثًا، وَمِنْ هَذَا ضِعْثًا، فَيُمَزَجَانِ! فَهَذَاكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، وَيَجُودُ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْحُسْنَى».

وفي هذه الصورة تشبيهه للباطل والحق بالكائن المادي الذي يخلص من غيره وأكنى المشبه به وأبقى على شيء من لوازمه وهذا على سبيل الاستعارة المكنية.

ومن النوع الثاني من الاستعارة نجد الإمام (عليه السلام) في وصفه لأهل الضلال يشبه الدنيا الفانية بالعاجلة الأجنة المتغيرة في لونها وطعمها، كما في وصف القرآن.

ويشبه الآخرة بالأجنة الصافية حيث يقول: «...أَتَرُوا عَاجِلًا، وَأَخَّرُوا أَجَلًا، وَتَرَكُوا صَافِيًا، وَشَرِبُوا أَجْنًا» وفي هذه الصورة أخفى الإمام (عليه السلام) «المشبه» الذي هو في لفظي «الدنيا والآخرة» وصرح ب«المشبه به» وهو في لفظي «أجلا وأجنا» وهذا على سبيل الاستعارة التصريحية.

وهكذا نجد أن الإمام (عليه السلام) قد اتخذ من هذا الشكل من أشكال صورته المعروضة وسيلة أساسية في تبليغ رسائله والإبانة عنها بأقل التكاليف اللغوية والأسلوبية الممكنة لأن الغرض من الاستعارة كما قيل هي: «إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيد والمبالغة فيه والإرشاد إليه بالقليل من اللفظ أو تحسين المعرض الذي تبرز فيه».

٣ / الكناية:

الكناية في تعريف البلاغيين هي: «لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه».

أو هي: «لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع قرينة لا تمنع من إرادة المعنى الأصلي».

وهذا الشكل من أشكال الصورة في نظر البعض: «غاية لا يصل إليها إلا من لطف طبعه وصفت قريحته والسر في بلاغتها أنها في صور كثيرة تعطي الحقيقة مصحوبة بدليلها والقضية وفي طيها برهانها».

وبالرجوع إلى مدونة الإمام (عليه السلام) نجد أن الكتاب يعج بكثير من المعاني المكنية التي جاءت منه تلميحا لا تصريحيا «لأن الصفة إذا لم تأتكم مصرحا بذكرها مكشوفًا عن وجهها، ولكن مدلولًا بغيرها، كان ذلك أفخم لشأنها، وألطف لمكانها».

ومن أمثلة صور الكناية عند الإمام قوله (عليه السلام) في مطلع وصية من وصاياه المتعددة: «أَوْصِيَكُمْ بِحَمْسٍ لَوْ ضَرَبْتُمْ إِلَيْهَا أَبَاطَ الْإِبِلِ لَكَانَتْ لِدَلِكِ أَهْلًا» والأباط كما هو معلوم: جمع إبْط، وقد كنى بضرب الأباط: عن شدِّ الرِّحال وحثِّ المسير مبالغة منه في تبين أهمية المطلوب. ونراه في موقف آخر يعبر عن صورة يصف فيها حالة بعض أصحابه الذين اعتنوا بجمع المال وتطويل البنيان ويكفي عن كل ذلك بعلو وشموخ رؤوس الفضة حيث يقول (عليه السلام): «أَطْلَعَتِ الْوَرَقُ رُؤُوسَهَا!».

وحين أراد الإمام (عليه السلام) تبين معنى القرابة بين الشخصين عبر عن مفهوم ذلك بلفظ الرحم الجامع للمعنى كما ورد في الأثر حيث يقول في تبين أهمية الكرم والكرماء في علاقتهم مع الآخر: «الكَرْمُ أَعْطَفُ مِنَ الرَّحْمِ».

والرَّحْم - هنا -: كناية عن القرابة، والمراد من ذلك كله أن الكريم ينعطف للاحسان بكرمه أكثر مما ينعطف القريب بقرابته.

كما نجده إلى هذا (عليه السلام) يكتفي عن موصوف بعينه كما في قوله: «رُدُّوا الْحَجَرَ مِنْ حَيْثُ جَاءَ، فَإِنَّ الشَّرَّ لَا يَدْفَعُهُ إِلَّا الشَّرُّ».

فهو يكني عن الشر بالحجر.

ويوصي بمقابلة الشر بالدفع على فاعله ليرتدع عنه.

إذا كان لا يجدي غير ذلك. كما نجده يكني عن الصفة أيضا كما في حديثه (عليه السلام) في ذم أتباع الشيطان حيث يقول: «اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ لِمَرْهَمٍ مَلَكَ، وَاتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَاكًا، فَبَاضَ وَفَرَّخَ فِي صُدُورِهِمْ، وَدَبَّ وَدَرَجَ فِي حُجُورِهِمْ، فَظَنَرَ بِأَعْيُنِهِمْ، وَنَطَقَ».

ففي قوله «باض وفرخ» وكذا قوله «دب ودرج» كناية عن صفة الطول.

ومن كناياته عن الصفات أيضا قوله في وصف الطيش وقلة العقل «وَأَنْتُمْ مَعَاشِرُ أَحْقَاءِ الْهَامِ، سَفَهَاءِ الْأَحْلَامِ» وقوله أخفاء الرأس كناية عن طيشها.

وفي وصفه (عليه السلام) لأتباع الرسول (ص) وكيف تغير وضعهم بمبعثه نراه يعبر عن سعة رزقهم كناية باستدارة الرحي.

لأن الرحي إنما تدور على ما تطحنه من الحب.

وفي وصفه (عليه السلام) للنبي (ص) نجده يوظف الكثير من الكنايات بحثا عن المعنى المطلوب كما في قوله كناية عن زهده (ص) في الدنيا: «خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا حَمِيصًا، وَوَرَدَ الْآخِرَةَ سَلِيمًا».

فالخميص لغة هو الخالي البطن.

ويقول أيضا كناية عن شدة تعلقنا به واتباعنا له: «فَمَا أَعْظَمَ مِنَّةَ اللَّهِ عِنْدَنَا حِينَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ سَلْفًا تَبَّعُهُ، وَقَائِدًا نَطَأَ عَقْبَهُ».

وليست الصورة الفنية حكرا في شكلها البلاغي على عنصر البيان أو علم البيان فحسب بل هناك عناصر أخرى تدخل في تشكيلها وتركيبها وإن كانت متفاوتة في أهميتها بمقارنتها مع الجانب البياني وهو ما يعرف عند البلاغيين بعلم المعاني وعلم البديع.

وفي النوع الأول وهو علم المعاني فإن أهم ما يلاحظ على أسلوب الإمام (عليه السلام) أنه زاوج بين الأسلوبين الخبري والإنشائي وإن كان الأسلوب الخبري هو الأسلوب الغالب وهذا بالنظر إلى طبيعة الكتاب الذي جاء في معظمه تقريرا وسردا لتجارب مختلفة عايشها الإمام فصاغها في شكل خطب وأوامر وكتب ورسائل وحكم ومواظ.

ولهذا السبب أيضا رأينا الإمام يستعين بمجموعة من الأساليب الإنشائية الداعمة لحكمه والموصلة لفكرته والمعبرة لأغراضه من مثل الاستفهام الای هو لغرض التعجب كما في قوله: «بِنَا اهْتَدَيْتُمْ فِي الظُّلْمَاءِ، وَتَسَمَّيْتُمْ الْعُلِيَاءَ.....كَيْفَ يِرَاعِي النَّبَاةَ مَنْ أَصَمَّتْهُ الصَّيْحَةُ؟».

والأمر نفسه يتكرر معه حين يتعرض لقضية اختلاف العلماء في الفتيا وفيه يذم أهل الرأي ويقف متعجبا في أسلوب استفهامي حيث يقول: «فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - بِالْاِخْتِلَافِ فَأَطَاعُوهُ! أَمْ نَهَاهُمْ عَنْهُ فَعَصَوْهُ! أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ دِينًا نَاقِصًا فَاسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى إِثْمَائِهِ! أَمْ كَانُوا شُرَكَاءَ لَهُ فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى؟ أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ دِينًا تَامًا فَفَصَّرَ الرَّسُولُ (صلى الله عليه وآله) عَنْ تَبْلِيغِهِ وَأَدَائِهِ؟».

وقد يكون منه الإستفهام لغرض النفي كما في خطبته التي عدد فيها فضل الجهاد، واستنهنض الناس، وبين لنا (عليه السلام) علمه بالحرب حين قال: «وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ وَالْخِذْلَانِ، حَتَّى قَالَتْ فُرَيْشُ: إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شَجَاعٌ، وَلَكِنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ. اللَّهُ أَبُوهُمْ! وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاسًا، وَأَقْدَمُ فِيهَا مَقَامًا مِنِّي؟!».

والحديث قد يطول بعد تلك النماذج الأسلوبية المختلفة الأشكال والمتعددة الأغراض، والتي جاءت لتؤكد وبما لا يدع مجالاً للشك قوة لغته (عليه السلام) ومقدرته على تطويع اللغة والسير بها في كل الدروب.

وما يقال عن لوني البيان والمعاني في صور الإمام (عليه السلام) يقال أيضا عن عنصر البديع الذي كان منه لتقوية المعنى، وإيضاح الفكرة أساسا، وقد استعان في ذلك بكل ألوان البديع المعروفة من طباق ومقابلة وجناس وسجع وما إلى ذلك والمقام قد يطول بتمثيل كل لون من ذلك ولذلك سنكتفي بعرض نموذجين من هذا الباب تمثيلا لا حصرا.

حيث يقول في المثال الأول: «ألا وَإِنِّي لَمْ أَرَ كَالجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا، وَلَا كَالنَّارِ نَامَ هَارِبُهَا، أَلَا وَإِنَّهُ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ، وَمَنْ لَا يَسْتَقِمُ بِهِ الْهُدَى يَجْرُ بِه الضَّلَالُ إِلَى الرَّدَى،» ففي هذا المقطع على قصره عديد الألوان البيديعية المتقاطعة فهي تجمع بين مقابلتين وطباق: (لَمْ أَرَ كَالجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا، وَلَا كَالنَّارِ نَامَ هَارِبُهَا) (مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ) مقابلة (الهُدَى وَالضَّلَالُ) طباق.

ثم تأمل معي هذا المقطع الثاني الذي كان منه (عليه السلام) في عرضه لجملة من صفات الربوبية والعلم الإلهي.

حيث يقول: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَطَنَ خَفِيَّاتِ الْأُمُورِ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلَامُ الظُّهُورِ، وَأَمْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ الْبَصِيرِ؛ فَلَا عَيْنَ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ، وَلَا قَلْبَ مَنْ أَتْبَنَتْهُ يُبْصِرُهُ، سَبَقَ فِي الْعُلُوِّ فَلَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْهُ، وَقَرَّبَ فِي الدُّنُوِّ فَلَا شَيْءَ أَقْرَبُ مِنْهُ، فَلَا اسْتِعْلَاؤُهُ بِأَعْدَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَا فُرْبُهُ سَاوَاهُمْ فِي الْمَكَانِ بِهِ، لَمْ يُطْلِعِ الْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ، وَلَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ، فَهُوَ الَّذِي تَسْتَهْدُ لَهُ أَعْلَامُ الْوُجُودِ، عَلَى إِقْرَارِ قَلْبِ ذِي الْجُحُودِ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الْمُشْبَهُونَ بِهِ وَالْجَاحِدُونَ لَهُ عُلُوًّا كَبِيرًا!».

وهو وصف منه كما نرى يعج بألوان البيديع التي جاءت في محلها وأصبغت على معناه (عليه السلام) حضورا حسيا لمجمل الصور التقابلية المطلوبة في كل معنى.

وفي الأخير وبعدهما وقفنا على هذه العينة القليلة من صور الإمام (عليه السلام) في مدونته الجامعة حق لكل من وقف عليها أن يسجل فرادة الرجل في أسلوبه، وفي فصاحته، وأن يتلمس بلاغته في حكمه و مواظمه وهي في مجملها قطاف تجارب كثيرة ومتنوعة عايشها الإمام وتربى عليها في حجر الرسالة المحمدية فجاء كتابه كما وصفه جامعه الشريف أبو الحسن محمد الرضي - حاملا بين طياته خطبا وكتبا ومواظم وأدبا جما ما لم يتح في غيره ولم يوجد مجتمعا في كلام ولا مجموع الأطراف في كتاب حتى غدا في ذلك سراجا للفكر البشري في مضمونه، وسحرا للبيان والفصاحة في أسلوبه حتى غدا في ذلك كما وُسم نهجا للبلاغة والبلاغيين.

الطب والصحة العامة في نهج البلاغة

الأستاذ الدكتور: يحيى كاظم السلطاني

الخلاصة

نال نهج البلاغة نصيبا وافرا من اهتمامات الباحثين والمفكرين حتى بلغت شروحه وتفسيراته في الوقت الحاضر حوالي ثلاثمائة وسبعون شرحا وتفسيرا، وما زال الاهتمام جاريا من قبل العلماء والباحثين في سبر أغوار هذا النهج البليغ.

يمكننا القول بان «نهج البلاغة» هو «نهج الحياة»، اذ لا يشتمل على الأمور البلاغية فحسب وانما يمتد الى مختلف شؤون الحياة، فمنه تستنبط الأحكام في إدارة القضاء وشؤون الدولة، وهو مرجع في علوم الفقه والتفسير وفي علمي النفس والاجتماع، الى جانب اعتباره مرجعا في العلوم التربوية والعسكرية.

وأكثر من ذلك فان نهج البلاغة غزير بالاشارات اللامعة والومضات الساطعة في العلوم الطبية والصحة العامة وفي العلوم التطبيقية الأخرى كالفلك والرياضيات والبيولوجيا والبيئة وغيرها. غير ان هذه الموضوعات مازالت بحاجة الى المزيد من الدراسات والبحوث لإظهار أهمية نهج البلاغة بهذه الميادين.

ومن ذلك جاءت فكرة إعداد هذه الدراسة التي ستكرس لعرض بعض الجوانب الطبية والصحية وهي مستقاة من نهج البلاغة بشكل خاص ومن أقوال الامام علي (عليه السلام) بشكل عام. ففي الطب العام، قال الامام (عليه السلام): «العلوم ثلاثة، الفقه للأديان والطب للأبدان والنحو للسان».

«العلوم أربعة، الفقه للأديان والطب للأبدان والنحو للسان والنجوم لمعرفة الأزمان». أما في مجال العلاقة بين الطبيب والمريض فقد قال (عليه السلام): «لا شفاء لمن كتم طبيبه داء» و «من كتم مكنون داءه عجز طبيبه عن شفائه»

وفي ميدان الحفاظ على صحة الجسم قال الامام (عليه السلام): «لا تنال الصحة الا بالحمية»، «من لم يحتمل مرارة الدواء دام ألمه» أما في مجال الأغذية ودورها في الحفاظ على الصحة العامة للجسم فقد قال (عليه السلام):

«من قلّ طعامه قلّت ألامه»

«لا فطنة مع بطنة»

«من غرس في نفسه محبة أنواع الطعام، اجتنى ثمار فنون الأسقام»

«المعدة بيت الأدواء والحمية رأس الدواء ولا صحة مع النهم».

... وغير ذلك كثير جدا.

هكذا هو «نهج البلاغة»، غزير بالومضات الطبية ومليء بالوصايا الصحية وغني بالمفاهيم البيولوجية (الحياتية).... انه مازال يمثل نهجا قويا للحياة.

توطئة:

مادام «نهج البلاغة» مقرونا باسم «الإمام علي (عليه السلام)» فانه ينبغي الإشارة هنا، ولو بإيجاز شديد، الى هذين الاسمين العلميين لتكون مدخلا منسجما مع هذه الدراسة.

الإمام علي (عليه السلام): ولادته ووفاته:

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي شيخ قریش ورئيس مكة، ولد بالكعبة المشرفة في مكة المكرمة في يوم الجمعة المصادف الثالث عشر من شهر

رجب بعد عام الفيل بثلاثين عاما (سنة ٦٠٠ ميلادية). أما أمه فهي فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، فهو أول هاشمي يولد من أبوين هاشميين. استشهد الإمام (عليه السلام) بليلة الجمعة وذلك في الحادي والعشرين من شهر رمضان لعام أربعين هجرية في محرابه بمسجد الكوفة عن ثلاث وستين سنة، ودفن في مرقده الشريف بالنجف الأشرف. وللإمام (عليه السلام) أحد عشر ولدا وست عشرة بنتا.

نهج البلاغة:

قام الشريف الرضي بجمع وترتيب نهج البلاغة على الصورة التي هي عليها الآن. وقد نال النهج البليغ نصيبا وافرا من اهتمامات الباحثين والمفكرين على اختلاف مذاهبهم حتى بلغت شروحه وتفسيراته في الوقت الحاضر حوالي ثلاثمائة وسبعون شرحا وتفسيرا. والجدير بالذكر، هناك اثنان وعشرون شخصا دونوا خطب الامام علي (عليه السلام) قبل زمن الشريف الرضي امثال الواقدي والمدائني والمنقري وغيرهم. ومن أبسط هذه الشروح والتفسيرات ما يعرف بـ «شرح ابن أبي الحديد». وما زال الاهتمام جاريا من قبل العلماء والباحثين في سبر أغوار نهج البلاغة. وقد قال الشريف الرضي (رحمه الله): «فاني كنت في عفوان السن، وعضاضة الغصن، ابتدأت بتأليف كتاب عن خصائص الأئمة (عليهم السلام)، يشتمل على محاسن أخبارهم، وجواهر كلامهم، حداني عليه غرضٌ ذكرته في صدر الكتاب، وجعلته أمام الكلام. وفرغت من الخصائص التي تخص أمير المؤمنين عليا، صلوات الله عليه، وعاقبت عن إتمام الكتاب محاجزات الأيام، ومماطلات الزمان. وكنت قد بويت ما خرج من ذلك أبوابا، وفصلته فصولا، فجاء في آخرها فصل يتضمن محاسن ما نقل عنه (عليه السلام)، من الكلام القصير، في المواعظ والحكم والأمثال والأدب، دون الخطب الطويلة والكتب المبسوطة. فاستحسن جماعة من الأصدقاء ما اشتمل عليه الفصل المقدم ذكره، معجبين ببدايته، ومتعجبين من نواصعه، وسألوني عند ذلك أن أبدأ بتأليف كتاب يحتوي على مختار كلام أمير المؤمنين (عليه السلام)، في جميع فنونه، ومتشعبات غصونه، من خطب وكتب، ومواعظ وأدب، علما ان ذلك يتضمن عجائب البلاغة، وغرائب الفصاحة، وجواهر العربية، وثواقب الكلم الدينية والديناوية، مالا يوجد مجتمعا في كلام، ولا جموع الأطراف في كتاب، إذ كان لأمير المؤمنين (عليه السلام) مَشْرَعُ الفصاحة وموردها، ومنشأ البلاغة ومولدها، ومنه (عليه السلام) ظهر مكنونها، وعنه أخذت قوانينها، وعلى أمثلته هذا كل قائل خطيب، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ، ومع ذلك فقد سبق وقصروا، وتقدم وتأخروا، لأن كلامه (عليه السلام) الكلام الذي عليه مسحة من العلم الإلهي، وفيه عبقة من الكلام النبوي... الى ان يقول: ورأيت من بعد تسمية هذا الكتاب بـ «نهج البلاغة».

جمع الشريف الرضي «نهج البلاغة» بثلاثة أقطاب أولها الخطب والأوامر، وثانيها الكتب والرسائل وثالثها الحكم والمواعظ. وجاءت تسمية «نهج البلاغة» من قبل الشريف الرضي من قوة البيان وفصاحة اللسان في كلام الامام علي (عليه السلام) مقارنة بما جاء من شتى فنون اللغة في عصره، بعد ان كان عصر الامام يمتاز بأوج الارتقاء اللغوي آنذاك.

«نهج الحياة»:

يمكننا القول بان نهج البلاغة ما هو الا نهج للحياة اذ لا يشتمل على الأمور البلاغية في اللغة فحسب وانما يمتد في ذلك كثيرا الى مختلف شؤون الحياة، فمنه تستنبط الأحكام في إدارة

القضاء وشؤون الدولة، وهو مرجع لا يمكن الاستغناء عنه في علوم الفقه والتفسير، وفي علمي النفس والاجتماع، الى جانب اعتباره مرجعا في العلوم التربوية والعسكرية. وأكثر من ذلك فانه غزير بالاشارات الطبية والومضات الرائدة في مختلف العلوم التطبيقية الأخرى كالفلك والرياضيات والصحة العامة وعلوم الحياة (البيولوجيا) والبيئة وغيرها. غير ان هذه الموضوعات مازالت بحاجة الى المزيد من الدراسات والبحوث لاطهار أهمية نهج البلاغة بهذه الميادين. ومن ذلك جاءت فكرة إعداد هذه الدراسة التي ستكرس لعرض بعض الجوانب الطبية والصحية وهي مستقاة من نهج البلاغة بشكل خاص، ومن أقوال الامام علي (عليه السلام) بشكل عام.

واقع الطب في عصر صدر الاسلام:

قد يرى البعض ان ما ذكر من أمور طبية في عصر صدر الاسلام ما هي الا أمور معرفية بسيطة، ولكن لو تأملنا في بساطة الحياة وبدائيتها وقلة أعداد النفوس ضمن التجمعات البشرية آنذاك وانعدام الحياة العصرية بمفهومها الشائع وانعدام توفر التكنولوجيا في مجالات البناء والمواصلات والاتصالات وغيرها، فاننا سنجد ان ما قيل في تلك الأزمان عن أمور الطب والعلوم العامة بشكل عام ليس بالأمر اليسير وانما كانت تمثل منارات شاخصة في حياة الناس. ومن ناحية أخرى فان الأمراض كانت بسيطة وربما غير مكتشفة، والملوثات البيئية قليلة وهذه تؤدي بالبداهة الى وجود أجسام قوية تقاوم معظم تلك الأمراض في حينه. وهناك موضوع آخر لا بد من الوقوف عنده، هو ان العالم بدأ يتجه الآن نحو الاهتمام بالطب البديل Alternative Medicine والمقصود به الاستغناء عن الأدوية التقليدية في العلاج، كما ان التوجه للأولياء والصالحين يعد واحدا من مكونات الطب البديل في الشفاء من الأمراض.

ومن ذلك كله يمكن القول بان المعلومات الطبية التي توفرت في عصر الامام كانت سابقة لزمانها وبذلك تتجسد القيمة الكبيرة للمفاهيم الطبية والصحية لدى الامام (عليه السلام) .

الطب ونهج البلاغة:

وضع نهج البلاغة النواة الأولى لنشأة العلوم الطبية والصحية للناس الذين جاءوا بعد الامام علي (عليه السلام) ، فقد أخذ منه أبناؤه وأحفاده من الأئمة المعصومين الكثير حتى أصبحوا روادا في الميادين الطبية الى جانب ريادتهم في الفقه والتفسير. نعم وضع نهج البلاغة الحجر الأساس في طب أهل البيت.

وعلينا ان لا ننسى ان ذلك كله كان بتأثير من النبي الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي كانت وصاياه الصحية والطبية جلية للامام علي (عليه السلام) فقد استقى الامام علمه وبلاغته من علم وبلاغة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

مفهوم العلم Science Concept:

للامام علي (عليه السلام) أقوال بليغة في تعريف العلم واعتباره قيمة عليا في حياة الناس، كما فيها دعوة دائمة الى التعلم. فقد قال (عليه السلام):

«كل وعاء يضيق بما جُعلَ فيه الا وعاء العلم، فانه يتسع».

والمقصود بوعاء العلم هنا العقل فهو يتسع الى كثرة العلم.

و «العلم علمان: مطبوع ومسموع، ولا ينفَعُ المسموع اذا لم يكن المطبوع».

والعلم المطبوع ما رسخ في النفس وظهر أثره في أعمال الفرد.

و «منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب دنيا».

وفي ذلك إشارة واضحة الى ان العلم لا يُشبع منه.

و «ما مات من أحياء علماء ولا افتقر من مملوك فها». وهذا أشار (عليه السلام) الى ان العلم يبقي ذكر صاحبه حياً حتى بعد مماته، كما ان الانسان غني عندما يمتلك المعرفة.

و «وتعلموا العلم صغاراً تسودوا به كباراً» .

و «الجاهل صغير وان كان شيخاً، والعالم كبير وان كان حدثاً».

و «الأنس بالعلم من نبل الهمة» .

و «من كساه العلم ثوبه اختفى عن الناس عيبه» .

... وأقوال كثيرة أخرى.

هكذا كانت دعوة الامام (عليه السلام) الى التعلم والاهتمام بالعلوم منذ الصغر وإعطائها القيمة العليا ليسموا بها الانسان ويعمل من خلالها على اعمام الرخاء على بني الانسان.

الطب العام General Medicine:

قال الامام (عليه السلام):

«العلم علمان، علم الأبدان، وعلم الأديان».

و «العلم ثلاثة، الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنحو للسان».

و «العلوم أربعة، الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنحو للسان، والنجوم لمعرفة الأزمان» .

و «ان في القرآن آية تجمع الطب كله [كلوا واشربوا ولا تسرفوا]».

وقد أكد (عليه السلام) بذلك على مفهوم الطب وعلاقته بطبيعة التعامل مع الجسم في حالتي الصحة والمرض.

أما في مجال العلاقة بين الطبيب والمريض فقد قال (عليه السلام): «لا شفاء لمن كتم طبيبه داءه».

و «من كتم مكنون دائه عجز طبيبه عن شفائه».

تلك هي وصايا مهمة للمريض أشار فيها الامام (عليه السلام) الى ضرورة البوح عن مكونات الداء للطبيب للوقوف على حالته الصحية وتكوين صورة كافية بغية معالجته عن دراية ووضوح.

وعن الطبيب قال (عليه السلام): «من تطبّب فليتق الله ولينصح ويجتهد».

وفي ذلك وصايا للطبيب بان يكون مخلصاً في مهنته وأميناً على أسرار مرضاه لينسجم ذلك مع أخلاقيات مهنة الطب، وان يستجوب المريض عن علامات مرضه وما يشكو منه وذلك للغرض ذاته، لأن المريض قد يخفي أسراراً على الطبيب اما خجلاً أو خشية إقضاءها من قبل الطبيب وبذلك فان في حكم الامام (عليه السلام) بهذا المجال دروس وعظة لتمتد العلاقة بين الطبيب والمريض.

وميادين الطب والصحة العامة واسعة جداً يتعذر علينا سبر أغوارها بهذه الدراسة الوجيزة بل سنعتمد على الإشارة الى بعض تلك الميادين دون التوسع في التحليلات لان الاسهاب في هذه التحليلات قد تفقد قوة النص المبارك في أقوال الامام (عليه السلام) .

الصحة العامة والأمراض:

وفي مجال الحديث عن الجسم في حالتي الصحة والمرض، قال الامام علي (عليه السلام): «ان للأبدان حالات ست: الصحة والمرض والنوم واليقظة والموت والحياة، وكذلك الأرواح فان صحتها اليقين ومرضها التردد ونومها الغفلة ويقظتها التوجه وموتها الجهل وحياتها العلم».

و «لا تنال الصحة الا بالحمية».

و «من لم يصبر على مضض الحمية طال سقمه» .

و «ألا وإنَّ من البلاء الفاقئة، وأشدُّ من الفاقئة مرض البدن، وأشدُّ من مرض البدن مرض القلب، ألا وإنَّ من النِّعم سَعَةُ المال، وأفضل من سعة المال صحة البدن، وأفضل من صحة البدن تقوى القلب».

و «امش بدائك ما مشى بك».

وذلك يعني انه مادام الداء سهل الاحتمال فانه يمكنك ان تمارس أعمالك، أما اذا أعياك ذلك الداء فاسترح.

و «من كثرت أدواءه لم يعرف شفاؤه».

و «لا عيش أهنأ من العافية».

و «دائك منك وما تشعر».

ان الانسان يتعرض الى الكثير من الأمراض ولك من حيث يدري أو لا يدري فمسيبات الأمراض متنوعة فهي اما ان تكون بيئية كالملوثات وما اليها، أو ذاتية كسوء التغذية والإخلال بالساعة البيولوجية التي تسيّر عموم وظائف الجسم، أو تكون نفسية ناجمة عن مسببات اجتماعية أو اقتصادية أو غيرها.

ولم يترك الامام (عليه السلام) أمرا يتعلق بصحة الانسان إلا وترّض له بشيء من عين الحكمة وخالص البلاغة، ومن ذلك علاقة الصحة العامة للانسان بالغذاء مثلا حيث قال (عليه السلام): «من قلّ طعامه قلت ألامه».

و «من غرس في نفسه محبة أنواع الطعام، اجتنى ثمار فنون الأسقام».

و «من اقتصر في أكله كثرت صحته وصلحت فكرته».

و «يضر الناس أنفسهم في ثلاثة أشياء: الإفراط في الأكل اتكالا على الصحة، وتكلف حمل ما لا يطاق اتكالا على القوة، والتفريط في العمل اتكالا على القدر».

و «لا فطنة مع بطنة».

و «كثرة الأكل والنوم تفسدان النفس وتجلبان المضرة».

و «كم من أكلة منعت أكالات».

و «المعدة بيت الأدواء والحمية رأس الدواء ولا صحة مع النهم».

يفهم من ذلك ان من ابتعد عن التخمّة والإسراف في تناول الطعام قلت أمراضه لان في ذلك الإسراف إجهاد كبير لأعضاء الجسم المختلفة التي ينبغي ان تؤدي أدوارها الوظيفية وفق السياقات الطبيعية. فرُبّ إنسان أفرط بالأكل فابتلي بالتخمّة وببما مرضت معدته فتعذر عليه الأكل أياما وجرت عليه أسقاما.

علم الأدوية Pharmacology:

أما عن الأدوية فقد قال الامام علي (عليه السلام):

«من لم يحتمل مرارة الدواء دام ألم» .

و «رُبّ دواء جلب داء».

و «رُبّ داء انقلب دواء» .

و «دوائك فيك وما تبصر».

و «شرب الدواء للجسد كالصابون للثوب، ينقيه ولكن يُخلقه».

وهنا يبدو الأمر جليا فان من يتعاطى الدواء عليه ان يتحمل مرارته على مضض ولا ينفّر من طعمه أو رائحته اذا لم يكن مستساغا أحيانا وان يلتزم بكيفية تعاطيه، وبمقدار جرعاته ليؤدي ذلك الدواء دوره المرجو في الجسم لتحقيق الشفاء. كما ان تعاطي الدواء يشفي الجسم من مرض معين إلا انه قد تحدث عنه تأثيرات جانبية فتؤدي الى حدوث أمراض أخرى.

الفسيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) Physiology:

ففي مجال علم الفسيولوجيا أو ما يعرف بعلم وظائف الأعضاء فإن لأمير المؤمنين (عليه السلام) دور كبير في سبر أغواره، وقد أيدت معطيات الطب الحديث ما ذهب إليه الامام (عليه السلام) في حكمه ومواعظه ووصاياه.

ففي مجال فسيولوجيا الهضم ما هو معروف عن قوله لابنه الحسن: «يا بني ألا أعلمك أربع كلمات تستغني بها عن الطب، فقال: بلى، قال: لا تجلس على الطعام إلا وأنت جائع، ولا تقع عن الطعام إلا وأنت تشتهييه، وجود المضغ، وإذا نمت فاعرض نفسك على الخلاء، وإذا استعملت هذه استغنت عن الطب».

ويخاطب بذلك الامام ابنه الحسن (عليهما السلام) بوصية وجيزة مفادها ان يبتعد الانسان عن التخمّة والاكثفاء بتناول الطعام عند الحاجة لان الإسراف في الأكل قد يؤدي الى اضطراب وظائف الجهاز الهضمي. كما ينبغي على الطعام ان يمضغ جيدا ليتفكك الى وحدات أصغر (جزئية) كي تتحول بدورها الى مركبات أخرى يحتاجها الجسم في بناء أعضائه وفي اداء وظائفه المختلفة.

وينصح الامام بتناول بعض الأغذية التي تنفع المعدة مثلا حيث قال (عليه السلام): «كلوا الرمان بشحمه فانه دباغ للمعدة».

و «كلوا التفاح فانه يدبغ المعدة» .

وعن فسيولوجيا القلب قال الامام (عليه السلام): «لا تमितوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فان القلب يموت كالزرع اذا كثر عليه الماء».

ويستنتج من كلام الامام (عليه السلام) ان على الانسان الابتعاد عن النهم في تناول الأطعمة والاشربة لان ذلك قد يؤدي الى تكوين مركبات كيميائية داخل الجسم قد تكون ضارة مثل الكوليسترول الذي قد تؤدي زيادته الى حدوث انسدادات في الأوعية الدموية والى حدوث أمراض مختلفة في القلب وجهاز الدوران.

كما نصح الامام (عليه السلام) بتعاطي بعض الأغذية لتقوية عمل القلب حيث قال (عليه السلام): «ان الزبيب يشد القلب، ويذهب بالمرض، ويطفئ الحرارة، ويطيب النفس».

و«أكل السفرجل قوة للقلب الضعيف، ويطيب المعدة، ويذكي الفؤاد، ويشجع الجبان».

المحظورات والمحسنات اللغوية التركيبية في نهج البلاغة

الأستاذ الدكتور: هادي نهر (جامعة جندارا- المملكة الأردنية الهاشمية)

وجود هذا العالم قائم منذ أن وعى الإنسان إنسانيته في اللغة، بها تمكّن أن يحدّد علاقاته بسياقات الحياة كلّها، سياقه وخالق الحياة، وسياقه والأشياء، وسياقه والزمان والمكان والأحداث، وسياق الإنسان والإنسان، فكلّ شيء صار ماهية قائمة في اللغة، ماهية الكون، والحياة، والناس، والعلاقات، والخير والشرّ، والحبّ والبغضاء، فلم يكن الواقع الإنساني ليحضر بكلّ خصائصه الفريدة: العليا والدنيا إلا «عبر شبكة لغوية»، صارت وعاء لكلّ شيء، قادرة على أن يُسمّى بها الإنسان عالمه الزاخر بالمدلولات، والماهيات، والرؤى والأفكار، والمشاعر، وأنّ يتصلّ بنفسه، وبغيره عبر الممارسة اللغوية، فكانّ الإنسان لسان وكأنّ اللغة هي الإنسان فيها من فكره، ووعيه، وحسّه، وذوقه، وثقافته وغير ذلك من الصفات الإنسانية التي تشيء اللغة بها، وتتكلّف بالإفصاح عنها، والانفتاح عليها، وما المحظورات والمحسنات اللغوية إلا مظهر من مظاهر الالتقاء بين الإنسان وممارسته اللغة ممارسة أمينة تفصح عن دواخل الإنسان مستقياً إياها بتعمّق في استطلاعاتها المتنوعة، وتجاربها لمعيشة، ودلالاتها الكامنة.

فالمحظورات مجموعات من الألفاظ الحقيقية، أو المجازية التي يحظر استعمالها في سياقات تواصلية معينة، لأسباب اجتماعية، أو أخلاقية، أو ثقافية، أو ذوقية، أو نفسية، أو لغير ذلك. ومعنى هذا أنّ هذه الألفاظ ممّا تنفر من سماعها الطباع السليمة، لكونها سوقية جارحة للذوق، تنبئ عن دلالات مكشوفة، مستهجنة ممّا يدعو إلى إيجاد معادل لفظي محسّن ومقبول بديل عما يحظر استعماله يُسمّى (المحسن اللفظي).

«فالمحظورات هي الممنوعات، والمحسنات، هي المقبولات من الكلام»، وقد تعدّدت المسميات والمصطلحات التي أطلقت على هذه المحظورات فقبل إتيانها: الكلام الحرام، واللفظ الخسيس، والكلمات المفضوحة، أو المستهجنة، وما يُستبجح ذكره، والكنائية، والتعريض، والتورية، والرمز، والإشارة، والمحسن اللفظي، والإشارة، والتلطف، والتنزه، واللائق وغير اللائق من الألفاظ، وغيرها من لمسميات التي عُرفت عند العلماء والباحثين العرب قديماً ومحدثين.

وهي (taboo) التابوهات بمعنى المحظور اللغوي أو اللامساس ومقابلته: (euphemism) بمعنى: حسن التعبير، أو تعبير رقيق، أو تورية عند غير العرب. ولا بد من النظر في هذه المحظورات اللغوية من خلال زاويتين:

الأولى: جمعية، إذ يحاكي الفرد مجتمعه في شروط التواصل المعهودة وأدبياتها. والثانية: فردية، تصدر عن المتكلم، وتعود إليه ممثلة ثقافته، ووعيه، وذوقه، ومكانته، وهذه السمات الفردية لا تتأتى لكلّ إنسان، وإمّا هي وقف على ذوي الفطنة، والذكاء، وأصحاب البيان، والبدئية ممّن يصحّ فيهم قوله تعالى: «وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا»^١، «وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ»^٢.

لقد أولى علماؤنا القدامى هذه الظاهرة عنايتهم فقد لفت إليها (المبرد) (ت ٢٨٥هـ) النظر في كتابه (الكامل) في معرض حديثه عن الكناية، إذ أرى أنّ من أحسن الكنايات «الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدلّ على معناه من غيره».

وأقام (ابن دريد) (ت ٣٢١هـ) كتابه (الملاحن) على هذه المحظورات. وقد تطرّق الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) إلى أسباب الحظر: كالفأل، والطيرة، والتأدّب، والتلطف، واستقبح اللفظ، وسلوك العرب في ألفاظ الوحش، ووضّح أثر الإسلام في بضبط الألفاظ العقديّة.

١ . سورة الفرقان: ٧٢.

٢ . سورة المؤمنون: ٣.

والكناية عند ابن فارس (ت ٣٩٢هـ) لها بابان: أحدهما: أن يكنى عن الشيء فيذكر بغير اسمه تحسناً للفظ، أو إكراماً للمذكور.

ووضح الثعالبي (ت ٤٣٠هـ) كتاباً مستقلاً في المحظورات التي يُستهجن ذكرها، ويستقبح نشرها، فتحسّن بألفاظ «مقبولة تؤدّي المعنى وتفصح عن المغزى، وتحسّن القبيح، وتلطّف الكثيف».

وقد وسّع الجرجاني، أبو العباس أحمد (ت ٤٨٢هـ) في كتابه (المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء) أبواب الكنايات والتعريضات، وادخل فيها كلّ ما تكنى عنه العرب محظوراً لفظه أو غير محظور، فالغرض من الكناية كما هو معروف ليس تحسين القبيح من الألفاظ بل تهذيب المعنى باللفظ الرشيق واللطيف).

وإذا كانت المجتمعات البدائية قد غلب عليها فكرة المقدّس والخوف من الأرواح الشريرة، والقوى الطبيعية، وعبادة الطواطم، وأحاطت لذلك الألفاظ الدالة على هذه الأشياء بشيء من التقديس والاحترام، فلم تنطقها بأسمائها وإنما بالكناية عنها، فإنّ المجتمعات المتحضّرة جعلت من المحظورات اللغوية سلوكاً أخلاقياً ينبع من العادات الاجتماعية النبيلة التي زادها الدين الإسلامي في لغتنا لعربية رقيّاً وصيانة عن كلّ لفظ خسيس أو قبيح، وكانت المحسنات اللفظية قيمة تواصلية فاعلة في إخراج الناطقين بالعربية من حرج القول والتعبير عمّا يستقذر أو يستحيا من ذكره صريحاً، إلى اللفظ الرشيق، والكناية النبيلة التي كان فشوها يصيرها إلى حدّ الحقيقة، أو الدال الأول «فينقلبون إلى كناية أخرى فإذا اتسعت أيضاً رأوا فيها من القبح مثل ما كتّوا عنه من أجله، وعلى هذا كثرت الكنايات، وليس غرضهم تكثيرها».

وهذا تجوّز عن المجاز بالمجاز، بمعنى «أنّ تجعل المجاز المأخوذ عن الحقيقة بمثابة الحقيقة بالنسبة إلى مجاز آخر، فتتجوّز بالمجاز الأول عن الثاني لعلاقة بينهما».

وفي القرآن الكريم كثير من أساليب التلطف، وكريم العبارات، ونبيل الألفاظ وحسن التعبير من نحو: الرفث، والملامسة، والتماس، والإفضاء، والحرث، كنايات عن العملية الجنسية.

والإعراض عن المحظور اللغوي ليس وقاراً متصنّعاً، وإنما هو حاجة لربط المقام بالسياق في أحوال تواصلية معلومة، ولذلك نجد أنّ بعض الألفاظ المحظورة لا يقبح ذكرها في كلّ سياق، فعلى الرغم من أنّ القرآن الكريم يلزمننا بأدب القول، والابتعاد عن سوء الكلمة، إذ يقول تعالى: «وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»^١ وأنه تعالى «لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ»^٢، «مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ»^٣ وأنه تعالى ينهى عن التنازير بالألقاب «وَلَا تَنَابَرُوا بِالْألقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ»^٤.

لأنّه الأعلم بأنّ هذا التنازير محظور على الصعيدين الديني والاجتماعي، أقول: فعلى الرغم من هذا وردت في القرآن ألفاظ تُعدّ من المحظورات صريحة بلفظها كما هو في ألفاظ من نحو: النكاح، والحيض، والجنون، والعمى، والعرج، وذلك وفقاً للسياق الذي تجري فيه اللغة، أو بياناً لحكم شرعي، أو جرياً على عادة العرب في التصريح ببعض الكلمات المحظورة في سياق لا يستدعي تلطفاً، بل يستدعي مباشرة الدال كما هو بلفظه «وهذا يعني أنّ الابتذال في الألفاظ، وما تدلّ عليه ليس وصفاً ذاتياً، ولا عرضاً لازماً، بل هو لاحق من اللواحق المتعلقة بالاستعمال في زمان دون زمان، وصقع دون صقع».

ومعنى هذا أيضاً أنّ الحظر يخضع لاعتبارات أخلاقية ذوقية نفسية «فالأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه، وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكونون عنها، ويدلّون عليها بالرموز، فيذكرون ما يقارنها وينطق بها».

١ . سورة الإسراء: ٥٣ .

٢ . سورة النساء: ١٤٨ .

٣ . سورة ق: ١٨ .

٤ . سورة الحجرات: ١١ .

«فالألفاظ لا تقبح لذاتها، بل اتفاق الجماعة اللغوية على عدّها قبيحة، أو حسنة هو ما يكسبها هذا الوصف فمدار الأمر على العرف».

فالعوامل الاجتماعية والبيئية والتربوية والأعراف والتقاليد هي التي تلزم مستخدمي اللغة بستر الألفاظ الفاحشة وإخفائها «وكلّ ما يخفى يستحيا منه فلا ينبغي أن تذكر ألفاظه الصريحة فإنّه فحش»، ولذلك سعى المجتمع العربي دائماً إلى تكنية الزوجة والأخت والبنات، وهي أمور ليست قبيحة في ذاتها، بيد أنّ العرف العام ولأسباب معينة دأبوا على تكنية أسمائهنّ، «يقول أبو عبيدة: يقال لامرأة الرجل: فراشه وإزاره، ومحلّ إزاره ... ويقال: هي أم الحيّ، وأم العيال، وهي جنة فلان، وطلته، وربضه، وعرسه، وبيته».

وإذا كانت اللغة اللاتينية – مثلاً – لا تستحي من التعبير عن العورات والأمور المستهجنة والأعمال الواجب سترها بعبارات مكشوفة لا أنّ تسميها بأسمائها الصريحة()، نجد اليوم كثيراً من اللغات التي أخذت عن هذه اللاتينية القديمة يميل أصحابها إلى حظر ذكر بعض الألفاظ واستبدالها بما هو محسّن ومقبول ولطيف، فيعدل عن ذكر لفظة (الموت) (death)، والفعل يموت (todie) إلى عبارات من نحو:

Being taken away, to pass away, to go west depart this life

أمّا الفرنسية فتستعمل بدلاً من لفظة (الموت) (le dispatu) بمعنى الفقيّد أو الراحل، وتتجنب ذكر الفعل (baiser) بمعنى: يقبل، وتستعمل الفعل المحسّن (embrasse) بمعنى: يحتضن، وغير ذلك كثير()، وهو أكثر ما يكون في اللغة العربية، إذ أننا حين ننظر هذه الظاهرة في سياق الثقافة العربية نجد حرصاً شديداً من المجتمع العربي منذ القديم على ضبط ألفاظه، وصيانتها من كلّ لفظ خسيس، وقد خصّ الله تبارك وتعالى العرب بلغة راقية في بيانها، وبحسّ مرهف وبذوق سليم، وخلق حميد دعا إليه الدين الحنيف وحاول تكريسه في حيوات العرب أفعالهم وأقوالهم، ولذلك انطوت اللغة العربية على مئات بل آلاف الألفاظ المحسّنة التي تخرج بالناطقين بالعربية عن حرج التعبير، أو الاستحياء في القول، وتنزيه ألسنتهم من أن تجري بها ألفاظ لها دلالات صريحة ومكشوفة تثير حياءً، وتخرج قائلاً ومستمعاً.

والإمام علي بن أبي طالب إمام البيان، وله صدر المقام، وهو القدوة في مقام الفصاحة والبلاغة «وعليه يعوّل تنزيه اللفظ، وتشريف المعنى»، فهو النموذج والمثل الأعلى بعد رسوله الله في التأدب وصفاء العقيدة، وأعلم الناس بأداب اللسان، وحسن التعبير، وطيب الكلام، فقد تربّى في بيت النبوة، ونهل من أخلاق الرسول الكريم ومن بيانه وعلمه وأفعاله، فكان كبيراً وعظيماً عند أعدائه قبل أصحابه «كان أديباً بليغاً له نهج من الأدب والبلاغة يقتدي به المقتدون، وقسط من الذوق مطبوع يحمده المتذوقون، وأن تطاولت بينه وبينهم السنون، فهو الحكيم الأديب، والخطيب المبين، والمنشئ الذي يتصل إنشأؤه بالعربية ما اتصلت آيات الناثرين والناظمين».

ولم يكن الإمام في بيانه ولغته متكافئاً، أو متصنعاً بل كان يصدر عن فكر عميق، وأدب جمّ، وتذوق حسن، وتعبير أصيل بليغ، وهو حتّى مع الذين عادوه وحاربوه وأشهروا سيوفهم بوجهه الكريم، واعتدوا على محارم الإسلام، وضوابطه، وقيمه كان يصدر عن مكارم الأخلاق، وعن سلوك قويم ونفس أبيّة، ولسان لا يجهر بالسوء، ولا ينطق عن الهوى، التمس دائماً العقل في القول والعمل، وكان في جداله مع الخصوم صيحة عقل ورجاحة رأي، وبيان لسان متنزّه عن كلّ ما يخذش الحياء، ويهتك الأعراض والحرّمات كما كان الأمر عند من عادوه في أفعالهم الرديئة، وأقوالهم المتهتكة، ومجالسهم الخليعة، وبين كبرائهم، وأهل محارمهم، إذ كان لا يصددهم عن أن تتلوث نفوسهم وأفعالهم وأقوالهم بكل شيء قبيح وردئ وازع من إيمان أو أخلاق أو أدب أو أعراف، فتلوث نفوسهم مثلما تلوتت أفعالهم وألفاظهم بكل مذموم ومكروه ومستقبح من غير أن يصددهم عن ذلك «وازع الحشمة لما أخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولاً وفعلًا»، ولذلك روي عن هؤلاء الأعداء من الأقوال ما يجلّ اللسان عن ذكرها. لقد كان الإمام علي كآخيه وصاحبه وحبيبه رسول الله الذي عرف عنه أنّه كان «يتخير في خطابه، ويختار لأمتة أحسن الألفاظ، وأجملها وأطفها، وأبعدها من ألفاظ الجفاء والغلظة

والفحش، فلم يكن فاحشاً، ولا متفحشاً، ولا فظاً»، «وكان يكره أن يستعمل اللفظ الشريف المصون في حق من ليس كذلك، وأن يستعمل اللفظ المهين المكروه في حق من ليس من أهله». وكان في الإمام هذا الوصف الشمولي الذي عليه رسول الله فلا انفصال بين عظمة الفعل وجلال العقل، ونقاء الضمير، وشرف الكلمة المصونة، واللسان المبين.

والمحذور اللغوي في كلام الإمام ليس مجرد ألفاظ أسماء، أو كنى، أو ألقاب يحظر استعمالها، ويكره جريانها على اللسان لما يثيره هذا الاستعمال من الحرج، أو التطير، أو الفأل، مما يمكن توزيعه على حقول فهرسية مفرداتية دلالية كما يفعل أكثر الباحثين في ميدان المحظورات اللغوية والمحسنات اللفظية ممن لا يتعدى أعمالهم حدود صنع الفهارس المعجمية القائمة على ترادف الألفاظ المحظورة، أو القائمة على تقابلات لفظية بين الكلمة المحظورة ومحسناتها، فهناك - عندهم - حقل للألفاظ الاجتماعية المحظورة، وحقل للألفاظ الجنسية، وآخر للألفاظ المصائب والشدائد والأوصاف وألفاظ الحاجات الضرورية الحيوية للأسنان كالغائط والبراز، والخلاء، والريح، والطهارة، والأذى، والخبث، والجماع، وغيرها كثير مما تكفل بإيراده وبيانه بعض الفضلاء من القدماء والمحدثين.

أقول إن المحذور اللغوي والمحسن اللفظي الذي أولاه البحث اهتمامه لا يقف عند حدود الألفاظ مفردات، أو عبارات بل تعداه إلى النظر في طيبة الجمل والتراكيب وكيفية جريانها على انساق تركيبية معينة تحدّد دلالاتها ومعانيها الدقيقة، وما ينطوي خلف نظمها، وحركة عناصرها المكونة لها من مقاصد تواصلية، تأثيرية، وأسلوبية، ودلالية فالعملية التواصلية بين الباث والمتلقي لا تقف عند حدود الكلمات المفردة، إذ لم يعد للكلمة المعينة معنى قاراً خارج حدود التركيب، وخارج حدود السياق الذي ترد فيه تلك الكلمة، لأنّ هذا التركيب الذي يجري وفقاً لسياق معين هو الذي يفجر إمكانات اللغة، ويحكم اتصالها بحقل دلالي معين دون غيره، وهذا الحقل الدلالي هو الوجود الحقيقي للكلمة - أية كلمة - فالقضية عند المبدعين وعظماء البيان اللغوي قضية لغة وعي، وليس وعي لغة، وبلغة الوعي هذه تصبح آفاق الدلالة أكثر رحابة، وتأثيراً، وفعلاً في أسماع المتلقين وضمانهم وعقولهم، وتتفجر الكلمة عن معنى ممتدٍ أجبرها على قوله - دون غيره - مبدع النص الذي تسلح بالفكر، والثقافة، وضروب البيان والفصاحة، وعرف أسرار اللغة التي يستعملها وسيلة للإبداع والتأثير في الآخرين، وإن كانت بعض مفرداتها جزلة فخمة في فصاحتها ممتدة في دلالاتها.

يقول الإمام في خطبته المعروفة بالشقشقية(): «أمّا والله لقد تقمّصها فلان، وإنه ليعلم أنّ محلي منها محلّ القطب من الرّحي، ينحدر عنّي السّيل، ولا يرقى ليّ الطير، فسدلتُ دونها ثوباً، وطويتُ عنها كشحاً، وطفقتُ أرتاءي بين أن أصول بيدٍ جداء، أو اصبر على خضية عمياء، يهرمُ فيها الكبير، ويشيبُ فيها الصغير، ويكدحُ فيها مؤمن حتّى يلقى ربّه، فرأيت أنّ الصبر على هاتا أحجى، فصبرتُ وفي العين قذى، وفي الحلق شجا، أرى تراثي نهياً حتّى مضى الأول لسبيله فأدلى بها إلى فلان بعده، ثمّ (تمثّل بقول الأعشى):

شتان ما يومي على كورها ويوم حيان أخي جابر

فيا عجباً بينا هو يستقبلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته، لشدّ ما تشطّرا ضرعيها....».

فاذا أنعمنا النظر في هذه الخطبة البليغة وقفنا على الآتي:

أولاً: أنّ هذه الخطبة تمثّل حديثاً في (الخلافة)، التي وعى الإمام ماهيتها وأمورها، وألمّ إماماً كافياً بالإشكاليات التي مرّت بها، وبالمنطق الذي هيمن على مسيرتها، والخلافة بعد هذا ليست قضية سياسية أو اجتماعية، أو عسكرية، أو اقتصادية فحسب، بل إنّها قضية الوجود الإسلامي كله، وعلى أيّ صعيد كان، ولخطورتها هذه كان حديث الإمام فيها أسرع، لأنّ «الحاجة إلى القول والعمل أكثر من الحاجة إلى ترك العمل والسكوت عن جميع القول... بل قد علمنا أنّ عامة الكلام أفضل من عامة السكوت.... وكيف يكون الصمت انفع، والإيثار له فضل ونفعه لا يكاد يجاوز رأس صاحبه، ونفع الكلام يعمّ ويخصّ...».

ولذا كان واجباً على الإمام أن يتكلم، وأن يمارس على الناس سلطة القول، وهو الخطيب البارع، والبلغ المفلق والفارس الشجاع، والقائد الملهم الذي يمتلك زمام السيادة والرئاسة والشرف الرفيع وصاحب السجايا الحميدة، والأفعال الخالدة أن يسوق إليه القلوب، والأسماع، ليبصرها ويوجهها بأمر خطير من أمورها، ومعنى هذا أن كلام الإمام بوصفه نصاً لغوياً متسقاً موضوعه مع سياقه كله: زمانه ومكانه، ومتلقيه قائماً على علاقات حميمة بين المرسل بوصفه نجماً ساطعاً من نجوم الإسلام، وبين المخاطبين بوصفهم أعرف الناس بهذا الإمام الذي يخاطبهم، ومن المعروف أن إحكام العلاقة بين المتكلم والمتلقي سيفرض بنية خاصة للخطاب لغة وأسلوباً ودلالة ومضموناً، والمخاطبين - عادة - «لا يعتمدون في فهم النص على مجرد ما يقدمه لهم من معرفة ومعلومات، بل يعتمدون - وربما بدرجة أكبر - على ما تخزنه ذاكرتهم من معلومات ومعارف وخبرات ... حيث تلنقي هذه المعرفة والمعرفة التي يقدمها النص، فيكون المحتوى المدرك ناتجاً عن هاتين المعرفتين، معرفة العالم ومعرفة النص».

ثانياً: ولو أنعمنا النظر في النص بوصفه كتلة لغوية محكمة البناء والنسج لوقفنا على تفاعل الوحدات النصية فيه من حيث صدورها وكيونيتها، بحيث يمكن لنا تحديد الجوانب المحورية التي تتفاعل في الوحدات النصية، وكيفية ترابط هذه الوحدات وتعالقها المنطقي لاسيما أن صاحب النص يكون قد وضع في ذهنه إطاراً محدداً يدير كلامه فيه «قبل أن يقوم بتعليق دلالات الألفاظ، وضم بعضها إلى بعض، وترتيبها بحسب معاني النحو».

ونحن لا نريد في هذا البحث إلا الجري وراء استكشاف المحذور والمحسن من القول على مستوى التراكيب التي جاءت على لسان الإمام، وقد ألفينا في النص جملة من الظواهر التي تؤكد كيف أن الإمام قادر على أن يقبض على أفكاره فيسوقها بلغة قادرة على تفرغ دلالاتها الممتدة بكل تلطف وأدب، وتبصر، وهي على ما فيها من التلطف وحسن التعبير فاعلة، ومؤثرة، وصالحة للكشف عن الحقائق، وإدانة الزيف والباطل، واختراقهما بكل حذق، ودراية، وتعقل، ومن ذلك نألف الآتي:

إن التراكيب اللغوية التي وردت في خطبة الإمام كما هو شأنها دائماً تراكيب محكمة لا يشوبها لبس، ولا غموض، وإن بدت بعض مفرداتها لنا جزلة فخمة فصيحة ممتدة الدلالة. إن كلمة (فلان) مثلاً خارج إطار التركيب لا تعني سوى «كناية عن العلم المذكر العاقل، مؤنثة: فلانة ممنوعاً من الصرف ... وقد تزداد (أل) في أوله، فيكنى بالفلان والفلانة من غير الأدميين» (،) ولكنها إذا تعالقت مع غيرها في تركيب جارٍ في سياق معين، دلت إما على صيانة الاسم المكنى عنه بها من الابتذال، وإما للإشارة إلى الإعراض عن ذكر اسم صاحبها صريحاً، تنزهاً، أو صيانة له.

وفلان: كناية عن أبي بكر والإمام لم يذكر الاسم بلفظه، تنزهاً عن أن يثير ذلك مشاعر السامعين، وأكثرهم أدرى بما آلت إليه أمور الخلافة، وقد يكون صيانة لاسم أبي بكر من أن يجري على لسانه وهو مكظوم النفس بسبب حق مغصوب يأبى الإمام التصريح به مروءة منه، ومودة، وسماحة، وطلباً لوحدة الصف، وإصلاح ذات البين في أمة بدأ الشرخ والتصدع بسري في بنيانها، ولما يمض على ذلك البنيان شوط طويل.

وقد كرر الإمام ذكر كلمة فلان في سياق آخر من خطبته، تأدباً أيضاً، وإعراضاً عن مباشرة الآخرين بأسمائهم، إذ يقول: «حتى مضى الأول لسبيله فأولى بها إلى فلان بعده» وفلان هنا هو (عمر بن الخطاب) ثاني الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم.

ثم لنتأمل كلمة (الأول) كم فيها من الأدب والاحترام لخطيب يفصح عن أشياء خطيرة وقد أبت سماحته إلا أن يتبسط بالقول، ويلتمس له ألفاظاً لا تثير حرجاً، ولا تباشر ولا تحفز أحداً إلى سخط أو نفور.

ومن أبرز محاور هذه الخطبة تناولها قضية (الخلافة) التي لم يأت على ذكرها بلفظها، إعراضاً عنها واحتقاراً لها، فكان أن استعمل الإحالة الضميرية عليها، وهذا الاستعمال أو

الإحالة نوع من الخطر اللغوي، وذلك بعدم ذكر الشيء بلفظه، وإنما يذكر على هيئة ضمير بعائد أو غير عائد «وربما كنى عن الشيء ولم يجر ذكره». إن الإحالة الضميرية في هذه الخطبة قد استحوذت على تراكيبها من أول جملة فيها، وتوزعت على أنواع الضمائر المعهودة في العربية كلها تقريباً، إلا أن بعضها متكاثر في النص بصورة أكثر بروزاً وتكراراً من غيرها، ومنها: الضمير الوجودي، وأعني به ضمير المتكلم العائد على الإمام، وضمير المفردة الغائبة، وضمير المفرد الغائب وقد شكّل الضمير الوجودي المتحرك داخل النص من أول سطر من سطره بؤرة مركزية، وتتابع هذا الضمير بلفظه من غير تحوّل إلى صيغ أخرى تعود على مرجعيات أخرى إحالة واضحة ومباشرة تتنامى سمواً في التعبير عن شخصه .

مضى لسبيله

يستقبلها / عقدها

بعد وفاته

في حياته

محلي

ينحدر (عني) السيل

لا يرقى (إلي) الطير

طويت عنه كشحاً

سدلت / طفقت / فرأيت / وصبرت

تراثي

إن هذا الضمير الإحالي الذي ينتظم ويبرز بصورة متعددة يظل في المعنى مسنداً إليه قادراً على تنظيم المعطى الدلالي المراد في كلّ مرة على وفق وجهة نظره الخاصة التي هي المعلم الأول والأخير في سرد الموضوع الذي يتحدث فيه كله، ويعمل هذا الضمير الوجودي بطريقة حوارية يؤدي فيها الوعي فعله تنويعاً وتقليباً عبر المشاهد، والأحداث، والشخصيات المقابلة. أقول: إذا كانت هذه الضمائر تتنامى وتنمى معبرة عنه فأنها في المقابل قد أحالت على مخاطب غائب تنزهاً من ذكر الأسماء والأشياء بألفاظها مظهرة، فكنى عنها إعرافاً وتحرجاً من أن تجري على لسانه، في سياق حديثه منقطع عن أي اسم ظاهر، على الرغم من أن السياق غلظة وغضب أفرزته في نفس الإمام حقوق مهضومة، وأفعال انتهائية ظالمة، أفصح عنها بإحالات ضميرية عملت على تماسك النص وتحكم الروابط بين شخوصه وأحداثه وإن كانت متضادة ومتناقضة، وأنّ تضيي على النص سمة الإيجاز الذي امتدت دلالاته واتسعت، وعدم ذكر الأشياء والأسماء بألفاظها الصريحة إمّا تعظيماً لشأنها، أو تحقيراً لها لكونها لا تستحق أن تذكر أو تفسر:

تقمصها

الخلافة

سدلت عنها، طويت عنها

أدلى بها

يستقبلها

عقدها، صيرها، جعلها

ضرعها

وهذه الإحالات الضميرية التي تلمح إلى غائب قريب، أو بعيد - لا فرق - لاسيما أنّه لا يستحق الذكر بلفظه، أو الإحالة إليه، لكونه مشهوداً معهوداً في الأذهان، مكتسباً وجوده عند المتلقين، وقد عملت هذه الضمائر على تنويع الحوار الداخلي للنص، وإبراز أبعاد المونولوج، وتحديد أوجه الصراع، وتضارب القوى، وتباين الرؤى والمفاهيم، وأشياء الحال، وشخصه، وشخصياته، وامتداد انساق النص وتسلسله.

إن الخلافة وقد أعرض الإمام عن ذكرها بلفظها، بل كنى عنها بضمير غائب تقيلاً من شأنها عنده، فهو صاحب آخرة لا دنيا قد صارت مستدخلة في أذهان المتلقين، فاستعمل إحالة قبلية أخرى مستبدلاً للضمير باسم الإشارة، والإشارة أبعد في الدلالة من الضمير، ولكي يحكم القول في أذهان المخاطبين جاء باسم الإشارة مسبقاً بهاء التنبيه للدلالة على القريب، ولم يلحقها بحرف الخطاب (الكاف) إمعاناً في استنباح أمرها، يقول: «فرأيتُ أنّ الصبر على (هاتا) احجى فصيرتُ».

ولكي يكشف الإمام عن مكنى الأسي، وتغلغله في نفسه الشريفة، وعن الأماكن الدقيقة التي توطن فيها عبر صنفين من الناس، الأول: يمثله، وقد سمت فيه روح المجد، والعمل، والبذل، والإيثار، واستبطنت في دواخله عوامل الرفض الواعي.

والثاني: يمثل النماذج الخائرة التي لم تتعود الفعل الكبير، فعاشت على الدعة واللذائذ، والخلود إلى كلّ دنيوي هشّ وسهل، أقول: لكي يكشف الإمام هذه المفارقة المتقابلة تقابلاً حاداً، ولكي يؤكد أنّ الصبر لا يحتاج إلى ثرثرة، اختصر المحنة بدلالاتها السياسية والشرعية بوصفها باتت معضلة وجودية تمسُّ مصير الأمة كلها، تجعله حزيناً، دائم الحزن، وثائراً لا يرفع رايات الحداد، بل رايات الفعل المتسامي، أقول اختصر الإمام المحنة بأسهل تعبير يفهمه الناس، فكان أنّ تمثل بقول الأعشى:

شتان ما يومي على كورها ويوم حيان أخي جابر

وحين تكون المفارقة بين الأحوال على هذا النحو من التناقض والتقابل يصبح حزن الإنسان حزناً كونياً، حزن معرفة، وتبصر محكوم بأدب جمّ لا يلامس النازفين بما لا يُحمد.

ولكي يؤكد الإمام علو قدره، وسمو مكانته، فهو القريب من مهبط الوحي، وما يصل إلى الآخرين غيض من فيض النبوة، ومع هذا المقام العالي، والمكانة الشريفة السامية لم يقل ما يخذش أحداً بل اكتفى بتمثيل سموه بقوله:

ينحدر عني السيل والسيل لا ينحدر إلا من علو
لا يرقى إلي الطير ومكان الطير الفضاء العالي

فكل تمثيل يخلق دلالاته، وكأنّ المعاني يتوالد بعضها من بعض بأبهي قول وأزكى لفظ. وبعد أنّ يفصح الإمام عن نفسه بلغة مترفعة، يوازن في تماهيات خفية مستورة لكنها في دلالاتها ومضامينها قد بدت أكثر انكشافاً من الكلام الصريح والمباشر في تحديدها لماهية المعركة الأزلية بين الإنسان الإنسان، والإنسان الوحش، بين الإنسان المتسامي والآخر الطافي على سطح الحياة، بين الإنسان الحق والرضا، والفعل الكريم، وبين الإنسان الباطل والمتخرص، والمتشكك، بين الهمم العليا والمكانة العليا، وصغائر النفوس ووهن الأفعال، والتهاكك على مقاصد التراب، وبهرج الحياة الفانية، يقول الإمام: «فيا عجباً بينا هو يستقيلها في حياته، إذ عقدها لآخر بعد وفاته لشدّ ما تشّطر ضرعيها، فصيرها في حوزة خشناء، يغلظ كلامها، ويخشنُ مسّها، ويكثر العثار فيها، فصاحبها كراكب الصعبة إنّ اشنق لها حرم، وإن أسلس لها تقمّ فمئي الناس لعمرُ الله بخبط وشماس وتلون واعتراض، فصبرت على طول المدة، وشدة المحنة، حتّى إذا مضى لسبيله جعلها في جماعة زعم أنّي أحدهم، فيالله وللشورى! متى اعترض الريب فيّ مع الأول منهم حتّى صرتُ أقرنُ إلى هذه النظائر، لكّي أسفنتُ إذ أسفوّ، وطرتُ إذا طاروا...».

إنّ في هذا الكلام - وهو يدور في فلك ما يُسمى بـ (المجال) (Field)، وأعني به الموضوع الأساس للخطاب، وطبيعة العلاقات القائمة بين شخصه وأطرافه - ضرب من النسيج اللغوي التركيبي الذي يمثل أعلى مراتب السمو اللغوي، والمفردات النبيلة، والمجازات التي بعدت عن كلّ تركيب أو عبارة سوقية، لم تباشر الدلالة التي يحاول النص قولها، فما أعمق وأدل في التعبير من المجاز الذي سمي به الإمام الضرع ضرعين، فالمضير في (ضرعيها) عائد على الخلافة وهذا المنصب الخطير لا يمكن أنّ يكون محلّ مساومة، فإمّا أنّ يناله صاحبه بالحق كاملاً تاماً من غير أنّ يترك لآخر سهماً منه، فالخلافة ليست غنيمة يتقاسمها المتهافتون عليها،

إنها تكليف خطير، ومهمة شاقة؛ لأنها تمسّ مصير الأمة كلها، فإن نالها صاحبها ناقصة لم يستطع أن يدير ركابها بحق وعزم، وعطاء مادامت قد خضعت للقسمة بين من لا يهمهم إلا الغنيمة منها، وحين تنقسم الخلافة على حصص يفسد كل شيء فيها وتمسي جروحها وقروحها وويلاتها على أبناء الأمة قاسية ومدمرة لأنّ عثرات من اقتسموا ضرورها ستبدو مكشوفة على كثرتها ظاهرها وباطنها، ويصير صاحبها كراكب دابة لا يحسن قيادتها ولا ترتضيه هي فوق ظهرها، فإمّا أن تطيح به أرضاً، وإمّا أن يمضي بها هو إلى الهلكة!

إن دراسة نص إبداعي كالنص الذي نحن بصدده في معزل عن سياقاته التداولية النفسية والاجتماعية جناية على النص نفسه، وعلى مبدعه «فالنص ليس بنية لغوية مجردة، بل هو بنية لغوية مقامية»، تواصلية.

إن تداعي الكلمة في النص الإبداعي لا يمكن أن يتمّ بمعزل عن السياق الذي تتخذ الكلمة من هذا السياق، بل أننا ننظر إلى الترادف (synonymy) نفسه في هذا الإطار نفسه حتى إذا كان هذا الترادف حقيقياً، وهكذا يمكن تفسير الاستعارات والمجازات حيث تتجزأ داخل التركيب، وستكون الضمائر على ما فيها من إيجاز على مستوى البنية اللغوية، وعلى ما في بعضها من خلوّ من أية مرجعية، تتحرك داخل النص مفصحة عن دلالات جدّ متسعة لا سيما إذا تهيأ لها مبدع كالإمام يجعل منها أبرز عناصر السرد القادرة على تمثّل الشخصيات التي تدلّ عليها في باطنها وظاهرها وإلا فمن هذا الذي (مضى لسبيله) في قوله «حتى إذا مضى لسبيله، جعلها في جماعة زعم أي أحدهم!» ومن هم الجماعة؟

ولماذا لم يأت الإمام على ذكرهم بأسمائهم؟ وأية دلالة متسعة، ومهذبة لكلمة (زعم) التي فيها معنى: الظنّ، وهو أكذب الحديث، زيادة على أنّها لا تستعمل إلا في ما كان فيه معنى الارتياب، والباطل، والاعتقاد الذي يخالطه الشكّ وعدم الإصابة.

وأيّ وصف متخيّر، وحسن، ولطيف أطلقه الإمام على أفراد تلك (الجماعة) إذ قال: «متى اعترض الريب فيّ مع الأول منهم حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر» أي: لهذه الزمرة المشابه بعضهم بعضاً!

ولم يقل «أقرن إلى هذه المجموعة التي أنا لست منها، فهو أسمى من أن يكون جارحاً ومعرضاً» بأحد وإن كان غير متفق معه! فهو ولحرصه على وحدة الأمة واعتصامها يصبر ويصبر وينتزل عن مكانه العالي والسامي دائماً، فيكون من الآخرين حيث يكونون، وإن كان لا يرضيه دنوهم حيث يدنون، وتطيرهم حيث يتطيرون، ولكنّ لكل حال للكبار موقفاً يتوقف عليه مستقبل أمة بأكملها، وبحاجة إلى مزيد من الصبر الكبير على من يتقاسمون ضرع الخلافة، ويفهمون من الشورى ما ليس منها، ويستندون إلى ضغائنهم التي تلبست نفوسهم عبر ماض لهم مع الإمام متقابل تقابلاً حاداً، مثلما تتقابل الحياة والموت، والحب والكراهية، وصفاء البصيرة وغشاوتها، وبذلك يقول الإمام: «فصغى رجل منهم لضغنه، ومال الآخر لصهره، مع هنّ وهنّ، إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه بين نتليه ومُعتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع».

ما أكثر جفاء القوم وغلظتهم وفضاظة بعضهم في مقابل الفعل الشريف واللفظ المصون على لسان الإمام في حقّ بعض من لا يعرف الحق.

صغى رجل منهم لضغنه: والرجل: سعد بن أبي وقاص الذي يعلم الإمام أنّ جمرة الحقد تنقد في صدره عليه، لكونه أعني: (سعداً) أمة هي: حمنة بنت سفيان بن أمية، وكان الإمام قد أخذ من رقاب صنائدهم الكافرة بسيفه ما أخذ فمكنت في قلوب الأحياء منهم أحقاد دفينه يعرف حجمها الحقيقي الإمام .

ومال الآخر لصهره: والآخر هذا (عبد الرحمن بن عوف) وكان صهراً لعثمان بن عفان . ثم يبلغ الإمام القمّة، فلم يكن من عاداته متفحشاً في القول كما هي عادة مناوئيه بل كان نزيه القول طاهر الفعل واللسان، أقول: يبلغ الإمام القمّة حين يختصر الحال، وما آلت إليه أمور

الناس على يد من لا يريد الإمام أن يبسط القول في ذكر ما فعلوه ويفعلوه، ولم يرد أن يشنع عليهم، أو يأخذ بتعداد مثالبهم، أو يمس شيئاً من أعراضهم، ولم يرد أن يؤثر في أذهان المخاطبين، فيشعل في نفوسهم غضباً، أو يثير فيهم ترهيباً، فاعرض عن الكثير الكثير من الانحدار والانحطاط، والشطط، والتلوّث الذي صار عليه بعض من رؤوس القوم، فاختصر المسافات على الناس والتاريخ ليطلق عبارة: «مع هن وهن» معبراً فيها عن تسمية الأحداث والأفعال بما يترفع اللسان عن ذكره، وما يجلّ الإمام أن يجريه على لسانه العفيف. هكذا جرت أمور الأمة التي تقاذفت مصيرها أهواء الطامعين والطامحين إلى ما لا يستحقونه، أو يقدرّون عليه، إلى أن ترسو الخلافة حيث الخليفة عثمان الذي استقبل هذه المسؤولية العظمى كما يستقبل الإنسان جائزة على غير انتظار، ويكفيه من هذه الجائزة أنها منطلق للرخاء، والتفرد، والاستئثار بكل شيء من غير نظر لحال الآخرين.

ولكي نؤكد - على عجالة - أن الألفاظ والتراكيب المحسنة، ودقة الإمام في اختيار مثل هذه الألفاظ والتراكيب إنما هي انعكاس لخلقه الكريم، وقيمه السامية، وتنزّهه عن اللفظ الفاحش، والعبارة الخشنة، والتركييب ذي الدلالة المباشرة غير المتسامية، وهي أيضاً مجموعة من النكت البلاغية الدقيقة التي لا تتضح للمتلقّي والقارئ لنهج البلاغة إلا بالتأمل والنظر، والبحث عمّا وراء الكلمات والتراكيب من دلالات متسعة وممتدة، وفي الوقت الذي لا يمنع فيه من استعمال الإنسان ألفاظاً محظورة بلفظها الصريح والمباشر كما هو الحال في الحديث عن الأحكام الشرعية أو القضائية أو الطبية، نجد أن صيانة اللسان عن اللفظ القبيح، والمعنى الخسيس سلوكاً إسلامياً راقياً، وعلامة على ارتقاء ثقافي وفكري وبياني وأخلاقي وسلوكي للمتحدث أو المبدع. وللتأكيد على أن الإمام كان كأخيه رسول الله يلتمس لكلامه الألفاظ اللطيفة، والشريفة، والمعبرة عن النفس الصافية النقية الطاهرة، والخلق الكريم، والمنبت النبوي المتسامي، بعيداً عن سقط القول، والمعنى القبيح، واللفظ الذي يחדش الحياء، نسوق أطرافاً من كلامه داعين الباحثين في النظر في هذه الظاهرة اللغوية في نهج البلاغة، متفحصين إياها بالتحليل والدرس، باحثين عمّا وراءها من متكلم امتلك زمام العربية في أعرق ضروبها البلاغية والبيانية، وهو بعد هذا يصدر في كلامه عن تربية مثلى، ونفس عليا ولسان مبين يلتمس دائماً الألفاظ المهذبة متحولاً عن كلّ لفظ محظور، يقبح ذكره إلى المجاز حيناً، وإلى الكناية حيناً آخر، وإلى الإحالة الضميرية، أو الإشارية الثالثة، وإلى إيجاد اللفظ المحسن البديل، تجنّباً من ذكر اللفظ الصريح، وإلى غير ذلك من طرق حظر الألفاظ وتحسينها، ودوننا هذه التراكيب على سبيل التمثيل والبيان إذ احتوى نهج البلاغة ضروباً وأنماطاً كثيرة للمحسنات اللفظية التركيبية لا تتسع إليها مساحة هذا البحث المتواضع:

«وانتم معاشرُ أخفاء الهام».

إشارة إلى أهل النهروان، وقد كنى بهذا التركيب عن (قلة العقل) وقد كنى عن هلة العقل بعبارة أطف وأجمل هي (سبات العقل) في قوله: «نعوذ بالله من سبات العقل»، أي ذهابه وقلته. «أيها الناس إنّ أخوف ما أخافُ عليكم اثنتان: أتباع الهوى، وطول الأمل».

وما أجمل عبارته (طول الأمل) كناية عن التسويف والتعاس وطلب الدعة والراحة.

«وصار دين أحدكم لعقة على لسانه».

تعبيراً عن ركون القلب، ورياء الإيمان والفكر، والنفاق.

«فكأنّ كلّ امرئ منكم بلغ من الأرض منزل وحدثه».

ومنزل الوحدة المقصود هو (القبر)، وهو ممّا يحظر لفظه في بعض السياقات لما يثيره من خوف وتشاؤم.

«يفضي كإفضاء الديكة».

والإفضاء المباشرة، قال تعالى: «وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ»^١.

«ولكنّ الله كريم يكتي عما شاء».

والعرب تكني عن النكاح بالإفشاء، والمباشرة، والملامسة، والإتيان والإيقاع، والوطء، والدخول وغير ذلك من الألفاظ التي لا يحظر لفظها.

«لا أبا لغيركم».

وهو ممّا يقال في التقرّيع، دعاء عليهم بفقد الآباء، أو كناية عن الجهل به، فتلطف الإمام بتوجيه الدعاء والذم لغيرهم.

«تركهم في طرق متشعبة».

تعبيراً عن الخلاف والتشتت والانقسام.

«وما كنتُ إلا كقارب ورَدّ، وطالب وجَدّ».

وطلب الورد: هو المؤمن المستقبل الموتَ رغبة في لقاء الله تعالى وليس هو كباره ما يقبل عليه منه.

«فأنت محقوق أن تخالف نفسك».

ومخالفة النفس: قهر شهواتها وما تصوب إليه من ملذّات زائله لأنّ (الهوى شريك العناء) (.) .

«لا تكن خازناً لغيرك».

والخازن لغيره: هو الشحيح البخيل، المتهافت على جمع المال، الحريص على ماديّات الحياة، وقد وصفه بالجمود في قوله: «وعند جموده على البذل».

وكنى عن الحياة الدنيا بقوله إنّها «منزل قلعة»، أيّ زائله يرحل عنها الجميع.

ويفنى فيها كلّ شيء، والموت المحيط بنا ينعي لنا الحياة إذ يقول: «نعت لك نفسها». والضمير عائد على الحياة الدنيا.

«والدنيا تخبر بحالها عن فنائها».

ويقول: «وحفظ ما في يدك أحبُّ اليّ من طلب ما في يد غيركم»، دعوة منه لترك سؤال الآخرين، لأنّ ذلك عنوان للمذلة، والضعف.

ومن «بضائع الموتى»، عنده الاتكالية والعيش على الآمال دون فعل.

«جاذب الشيطان قيادك»، دعوة للإعراض عن التحايل والشيطنة، ويقول: «نازع الشيطان قيادك»، ولم يقل لا تخون الأمانة، وإنما قال: «أخزيت أمانتك»، أيّ: خنتها.

ويكنى عن الفجور بقوله: «وهذه الأمة قد فنكت وشغرت»، والمرأة إذا فنكت صارت ماجنة، فشغرت: أيّ لم يعد هناك من يحميها، وإذا فنكت الأمة: هزلت ولم تقدر على العزم والبقاء.

ويكنى عن: الغضب، وعصمة اللسان بقوله ناصحاً: «أملك حميّة انفك... واحترس من كلّ ذلك بكفّ البادرة». وحماية الأنف: دلالة على الآباء ورفض الضيم، وما كان كذلك ملك نفسه عند الغضب، والبادرة: ما يبدر من اللسان عند الغضب من السباب والشتم وغيرهما من قبيح الأقوال.

ويقول منبهاً الناس «ألا ترون إلى أطرافكم قد انتقصت»، دلالة على الاحتلال والعدوان واستيلاء الأعداء على أجزاء من البلاد، ولذا يوصي بعدم التردد في مواجهة الباطل بقوله: «فأعقل عقلك»، أيّ: قيده بالعزيمة ولا تدع الخوف أو التردد يذهب به مذاهب الضعف.

وأخيراً فإنّ الإمام لا ينسى أنّ يُلقّي تحيته المباركة وهي تحية الإسلام، فيذكرها في ختام خطبه ورسائله فإن وجد من لا يستحق هذه التحية، فلا يعرض عن ذكرها بل يذكرها بصيغة أجمل وألطف فيقول: «والسلام لأهله»، وهذا التركيب في سياقه الزماني والمكاني مشحون بأكثر من دلالة.

بنية الخطاب النفسي في نهج البلاغة

الاستاذ الدكتور: كريم حسين ناصح الخالدي (جامعة بغداد - كلية التربية للبنات)

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي البحث:

ليس من السهل التصدي لموضوع ترتجف فرائص من يتصدى لمجرد التفكير فيه لأن دراسة هذا الخطاب يفرض التفكير في ما كان يعترني شخصية رجل عظيم مثل الإمام علي بن أبي طالب - (عليه السلام) - الذي حارت العلماء في فهم مكنون شخصيته التي لا تناظرها شخصية سوى شخصية معلمه وابن عمه وملهمه ومرتيبه نبي الهدى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ تكاد كثير من خصائص شخصية الإمام علي (عليه السلام) تقترب من شخصية النبي، كما عبّر عن ذلك القرآن الكريم في آية المباهلة «فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم»^١.

ولا يمكن لأي باحث أن يستجلي خصائص الشخصيتين أو الإمام بملامحهما لأن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد اصطفاه الله من بين البشر كافة ورعاه واصطنعه على عينه وأعدّه ليحمل رسالته إلى العالم في كل الأزمنة والعصور فكان نسيج وحده، وكان الإمام علي قد فتح عينيه ليرى النبي القدوة والمثال المحتذى في كل شيء كما قال الإمام عن نفسه «ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالإقتداء به»^٢.

فتربى الإمام (عليه السلام) في حجر صاحب الرسالة كما قال عن نفسه «وضعني في حجره وأنا ولد يضمّني إلى صدره، ويكفني إلى فراشه، ويؤمّني جسده، ويشمني عرفه»^٣.

ولم يتخلق الإمام (عليه السلام) بخلق مجتمعه ولم يتعلم عادات من يحيطون به من أفراد المجتمع الجاهلي، ولم يتتقف بثقافة الجاهلية ولم يكتسب من عاداتها ولم يعلق في تفكيره شيء من مفرداتها بل عاش الوحي وحفظ القرآن واستلهم روح الإسلام وتغلغل الإيمان في عروقه، وسرى العرفان في خلاياه فكان سماوياً في تفكيره وخلقه وعقيدته ومشاعره وأحاسيسه وكلّ مكونات شخصيته، وكان في قتاله الكافرين والناكثين والمنافقين بطلاً خارقاً لأن تفكيره في الموت والحياة كان سماوياً، وكان في حكمه عادلاً عدلاً أراد الله أن يسود البلاد الإسلامية، وكان إيمانه بالله قد بلغ اليقين فما عاد كغيره من الناس، وكان يريد للمجتمع الإسلامي أن يتخطى أدران الجاهلية ليرقى إلى درجة المجتمع الأمثل، وقد وضعه ذلك في صراع مع الذين يعيشون الدنيا بأدرانها الجاهلية وبراقعها الإسلامية ومن هذا الصراع بين الإيمان والنفاق اتضحت لي ملامح شخصية الإمام علي (عليه السلام) وأدركت ما كانت تعبّر عنه نصوصه من معان تعرب عن ملامح خطابه النفسي.

المبحث الأول: خصائص النصّ النفسي

لاشك في أن نصوص نهج البلاغة تتميز بخواص فريدة اكتسبتها من شخصية الإمام الاجتماعية والثقافية والروحية ومكونات شخصيته المبنية على ظروفه في مسيرة حياته من طفولته حتى لحظات خلق النص، وطبيعة المواقف المثيرة التي أدت إلى صياغة خاصة تتلاءم وتلك المواقف فضلاً عن عوامل أخرى يفرضها المقام والحال وما يحيط بالحدث، لذا جاءت نصوص نهج البلاغة المعيرة عن الحالات النفسية تزخر بخصائص تتماثل وخصائص أسلوب الإمام علي في

١ . آل عمران ٦١ .
٢ . نهج البلاغة ١٥٧/٢ .
٣ . المصدر نفسه ١٥٧/٢ .

سائر نصوصه الأخرى وهو الذي اشتهر بفصاحته وبلاغته وقدرته على تأليف الكلام بصور إنشائية متنوعة ومتناسقة تختزل المعاني تصريحاً وكنياً.

وأهم تلك الخصائص:

١ - قوة التأثير في المخاطب:

ترتبط قوة تأثير النص بعمق التأثير والإنفعال في نفس الباحث، واستجابته لمؤثرات عنيفة تهز مشاعره، وتحرك كوامن مشاعره فتنتقل الألفاظ بحيوية مؤثرة متجانسة مع عنف التأثير وشدته «ويحدد السياق العاطفي أيضاً درجة الإنفعال قوةً وضعفاً، إذ تُنتقى الكلمات ذات الشحنة التعبيرية القوية حين الحديث عن أمر فيه غضب وشدّة انفعال»^١.

لذا كانت الجملة المعبرة عن غضب الإمام أو حزنه أو تفرّجه وتوبيخه، أو حبه لله ورسوله والمتقين والمؤمنين، أو كرهه للباطل والإنحراف عن الإسلام، حافلة بالألفاظ المشحونة بالعاطفة، فلقد وردت جملة مؤثرة تنم على عمق الشعور بالحزن والألم كقوله (عليه السلام): «يا أشباه الرجال ولا رجال، حلوم الأطفال، وعقول ربات الحجال، لوددت أنّي لم أركم، ولم أعرفكم، معرفة والله جرّت ندماً، وأعقبت سدماً، قاتلكم الله، لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً، وجرّ عتموني نغب التهمام أنفاساً وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان»^٢.

فقوله يا أشباه الرجال ولا رجال تحمل دلالات نفسية ترتبط بانزعاجه من كثرة ما ماطلوا في الإنخراط في صفوف المجاهدين، وكثرة ما كانوا يتعللون به من حجج لتأجيل القتال من الصيف إلى الشتاء، ومن الشتاء إلى الصيف وغير ذلك مما آذى الإمام (عليه السلام) وأدمى قلبه حتى قال قاتلكم الله، لقد ملأتم قلبي قيحاً وشحنتم صدري غيظاً ولو ربطنا السبب بالمسبب، لأدركنا قصد الإمام (عليه السلام) حين يوبخ الرجال المتخاذلين بقوله (يا أشباه الرجال ولا رجال) وكلّ من يسمع هذا الكلام يُطأطي رأسه خجلاً من قوة أثر هذه العبارة العنيفة إذا ما عدنا إلى زمن الحدث، حيث كان الرجل منهم يفاخر برجولته وشجاعته وفروسيته، وعلماً أنّ قائل ذلك هو أشجع الشجعان طراً، وهو الذي كان في أول المجاهدين في سبيل الله في أشد المعارك قسوةً وعنفاً، فكانت هذه الألفاظ كالسيات تلسع أجسادهم ولاسيما قوله ولا رجال أي أنكم بتهربكم من الجهاد كأنكم نساء تحتمون ببيوتكم وتلوذون بغيركم فأين رجولتكم وأين فروسيتم التي تدعون.

وحين يتمادى معاوية بن أبي سفيان في غيّه ويبالغ في جداله وادعائه مالا حق له فيه ويهدد الأمام (عليه السلام) ينفجر غضب الإمام في عبارات مؤثرة قاسية في تأنيب معاوية إذ يقول (عليه السلام) بفروسيّة ورجولة أبي الحسن «وقد دعوت إلى الحرب فدع الناس جانباً وأخرج إليّ وأعفّ الفريقين من القتال ليُعلم أيّنا المرينُ على قلبه والمغطى على بصره فأنا أبو حسن قاتل جدك وخالك وأخيك شدخاً يوم بدر، وذلك السيف معي، وبذلك القلب القى عدويّ، وما استبدلتُ ديناً ولا استحدثتُ نبياً، وإني لعلى المنهاج الذي تركتموه طائعين ودخلتم فيه مكرهين»^٣.

فانظر إلى قوة التأثير التي تزخر بها عبارات الإمام (عليه السلام) (فاخرج إليّ) (فأنا أبو حسن قاتل جدك وخالك وأخيك شدخاً) (وذلك السيف معي) (وبذلك القلب القى عدويّ) (وإني لعلى المنهاج الذي تركتموه طائعين ودخلتم فيه كارهين) عبارات تجلد من يخاطبه بأقصى السيات، يتحداه بقوة الفرسان، ويدخل الرعب في قلبه، بما يذكره به من قتل جده وخاله وأخيه، في أول معركة خاضها المجاهدون المسلمون، وكان أبو الحسن إذ ذاك فتى في مقتبل العمر، فقتل من قتل حتى هُزم جيش المشركين، فما الذي تحدّثه مقولة مثل هذه تصدر من بطل همام عرفت صولاته في نفس معاوية وهو يسمع (فأنا أبو حسن) وهو يعرف من هو أبو حسن ويعرف

١ . مبادئ اللسانيات ٣٥٧.

٢ . نهج البلاغة ٧٠/١.

٣ . المصدر نفسه ١١/٣-١٢.

شهرة ذلك السيف الذي يلوح بريقه في مثار النقع فيسمع قوله (وذلك السيف معي) فهو لا يهدده بسيفه وحده، بل يهدده بذلك القلب الذي ما خاف ولا وجل من لقاء الليوث والفرسان فيقول له: (وبذلك القلب ألقى عدوي)، ومعاوية يعلم أي سيف بيده، وأي قلب يحمل، فكيف يستقبل هذا الخطاب المخيف المرعب الذي يهز كل جارحة من جوارحه، ويعصف بكل خلية من خلايا جسده، ولم يكتب الخطاب المرعب بإثارة الخوف في نفسه، بل انتزع كل ما بنى عليه ادعاءه بأحقية الخلافة والولاية، فخاطبه بلغة صارمة تقتلع جذور ذلك الإدعاء الكاذب قائلاً وإني لعلى المنهاج الذي تركتموه طائعين ودخلتم فيه مكرهين عبارات موجزة رشيقة، ولكنها ملأى بألوان التفرغ والتعرية وكشف الأفتعة عن الوجوه فالإمام يجزم مؤكداً أنه يحمل ذلك الإيمان المطلق بمنهاج الرسالة المحمدية الذي ملأ قلبه، وشدّ ساعده، وقتل آباء معاوية بين يدي الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو المنهاج الذي حاربه أبو سفيان ورهطه ومنهم معاوية نفسه، وهو المنهاج الذي لم يسلكه أبوه ورهطه طائعين مؤمنين بل دخلوا في الإسلام بعد أن فتح الله للمسلمين بسيف علي، وسيوف المجاهدين المؤمنين بهذا المنهاج الإلهي، وقد أكره رهط أبي سفيان على الدخول حفاظاً على أنفسهم، وليس إيماناً بذلك المنهاج القويم فكانوا من الطلقاء.

وإني لأدرك أنّ أثر كلام الإمام هذا لا يقل أثراً في نفس معاوية من كلامه الذي هدده فيه بسيفه وقلبه، لأنه يهدم كلّ ما بناه معاوية في عقول أهل الشام من كذب ودجل وادعاء.

وقال (عليه السلام) مهدياً «ولعمري لئن لم تنزع عن غيِّك وشقاقك لتعرفنهم عن قليل يطلبونك لا يكلفونك طلبهم في برّ، ولا بحر، ولا جبل، ولا سهل، إلا أنه طلب يسوؤك وجدانه، وزور لا يسرك لقيانه» وتظهر حدة التهديد وأثره في نفس المخاطب من ألفاظ القسم في قوله (لعمري) تتبعه اللام المؤنّنة للقسم التي تفيد تأكيد القسم واللام المؤكدة الداخلة في جواب القسم ونون التوكيد في (تعرفنهم) وهذا الحشد في أدوات توكيد التهديد يثير الرعب في نفس المخاطب لأنه يدل على شدة العزم والتصميم على تحقيقه، فكيف إذا صدر عن رجل عُرف بصدقه وثباته على المبادئ والقيم العليا، مثل أمير المؤمنين ذي الصولات المرعبة.

وتدرك الأثر البالغ في عبارات أمير المؤمنين التي تقطر دماً وهو يخاطب أحد عماله وقد خانته ولم يسر على منهاج القويم في قوله (عليه السلام): «فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد كلب والعدو قد حرب، وأمانة الناس قد خزيت، وهذه الأمة قد فنكت وشغرت قلبت لابن عمك ظهر المجنّ، وفارقت مع المفارقين، وخذلت مع الخاذلين، وخنته مع الخائنين، فلا ابن عمك آسيت، ولا الأمانة أدبت، وكأنك لم تكن الله تريد بجهادك، وكأنك لم تكن على بيّنة من ربك، وكأنك إنما كنت تكيد هذه الأمة عن دنياهم، وتنوي غررتهم عن فيئهم، فلما أمكنتك الشدة في خيانة الأمة أسرعت الكربة، وعاجلت الوثبة، واختطفت ما قدرت عليه من أموالهم المصونة لأراملهم وأيتامهم اختطف الذئب الأزلّ دامية المعزى الكسيرة»^١.

وترى قوة التأثير في استثارة عواطف المخاطب والعودة إلى طبيعة النفس البشرية في قوله (عليه السلام) «فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد كلب، والعدو قد حرب» فكأنه يعاتبه عناب الأخ لأخيه: أفي هذا الوقت الذي تكالب فيه الأعداء على أمير المؤمنين وشنّ المتربصون بالإسلام الدوائر هجومهم على خلافته ليضعفوه ويحرقوا الدين عن مساره، أفي هذا الوقت تقف أنت إلى جانب أعداء الله فتسرق مال الله، ومال الأيتام والأرامل، وتظهر قمة التأثير في توبيخه في قوله (عليه السلام) «كأنك - لا أبا لغيرك - حدرت إلى أهلك تراثاً من أبيك وأمك، فسبحان الله! أما تؤمن بالمعاد؟ أو ما تخاف الحساب؟ أيها المعدود كان عندنا من ذوي الألباب، كيف تسبيغ شراباً وطعاماً وانت تعلم أنك تأكل حراماً وتشرب حراماً؟» فانظر إلى قوله - (عليه السلام) «كأنك - لا أبا لغيرك - حدرت إلى أهلك تراثاً من أبيك وأمك» تجد الألفاظ تجلده بسياط التوبيخ من أين لك هذا المال؟ هل هو إرث اكتسبته من أمك وأبيك؟ لتحدّر به إلى أهلك مسروراً وكأنك كسبت مالاً حلالاً من تجارة أو بيع؟ ألا تعلم أنه سحت حرام؟ ثمّ يجلده بسياط

أضى وأقوى بقوله متعجباً مستغرباً فسبحان الله، أما تؤمن بالمعاد؟ سؤال ممضٍ يغور في أعماق المخاطب فإن لم تؤمن بالمعاد فلست بمسلم مؤمن، وهل ترتضي أن تُحسب من الكافرين؟ فإن كنت تؤمن بالمعاد فماذا ستقول لرب العالمين يوم تلقاه وظهرك ينوء بذنوب اغتصاب أموال اليتامى والأرامل؟ ويزيد في التنكيل به عبارات مؤثرة أيها المعداد كان عندنا من ذوي الألباب ولفظة (كان) في هذا القول ساحرة عجيبة السحر في أثرها في نفس المخاطب وفي استعمالها البنيوي، فما أقساها على المخاطب وهي تسقطه من عداد ذوي الألباب في حسابات ولي الله في أرضه، ومن يرتضي أن يكون فيما مضى من عمره ممن يعده أمير المؤمنين من ذوي الألباب الذين يفقهون القول ويحسنون الصنع ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ثم يصبح ذلك ماضياً في حساب الولي ولم يعد عنده الآن من ذوي الألباب، وسحر (كان) عجيب في استعمال فريد فالقول في المعهود (يا من كان عندنا معدوداً من ذوي الألباب غير أن الإمام عدل عنها لتكون في موقع يهز الوجدان ويثير الإنتباه لدلالة (كان) على أنك لم تعد كذلك بل صرت من غير ذوي الألباب، وقد يعدها من لا يعرف طعم الأساليب البليغة زائدة في موقعها من الكلام لا يغير وجودها وحذفها من معنى الكلام بل أرى أن استعمالها بهذا الوضع أعطى المعنى قوة تأثير غير اعتيادية تهز نفس من لم يعد في نظر الإمام علي (عليه السلام) من ذوي الألباب.

٢ - الإختزال في الألفاظ والإتساع في المعنى:

لعل من أبرز خصائص كلام أمير المؤمنين - علي (عليه السلام) هو اختزال الألفاظ، وقدرته على إيصال أكبر قدر من المعنى بتحميله إichاءات تجعل المخاطب يذهب في تفسيرها مذاهب كثيرة، لاحتمال تعدد المعاني في البناء الجملي وهو في ذلك يسلك مسلك القرآن الكريم مع فارق المنشئ الذي يتفرد في القرآن عن سواه من البشر، لكن الإمام - (عليه السلام) الذي يحمل القرآن في طيات ذاكرته تأثر كثيراً بصياغات القرآن الكريم فهو يكثر من استعمال المصادر التي تحتمل أكثر من وجه بحسب ما يقدر المخاطب كقوله (عليه السلام) «لقد نعمتما عليّ يسيراً، وأرجأتما كثيراً»^١ فالوصفان (يسيراً) و(كثيراً) يحتملان أكثر من معنى إذ ربما أراد زمناً يسيراً أو نعماً يسيراً، وكذلك الحال في لفظة (كثيراً) إذ تحتمل معنى زمناً كثيراً، أو معنى (إرجاء كثيراً)، ومثله قوله (عليه السلام) «أمهلوا طويلاً ومنحوا جميلاً وحذروا اليماً ووعدوا جسيماً» فكل لفظة بعد الفعل هي وصف لمقدر يناسب المعنى المقصود.

ومن جميل اختزاله قوله لأبي موسى الأشعري وهو غاضب عليه لتثبيطه الناس عن الخروج إليه لما نذبهم لحرب أصحاب الجمل «فإن حقت فانفذ، وإن تفتلت فابعُد، وأيمُ الله لتؤتَيْنَ حيث أنت، ولا تُترك حتى يُخلط زُبُكُ بخاترك»^٢.

الرسالة تزخر بالمعاني وإن قلت ألفاظها فالإمام (عليه السلام) دعاه في كلام سابق إلى الإستعداد لمحاربة أعداء الإسلام، وحشد الناس لذلك، والتأهب للقتال، ثم شرط عليه شرطاً موجزاً بالألفاظ (فإن حقت) أي حقت وأنجزت ما أمرتك بإنجازه وجواب الشرط (فانفذ) أي فاقدم أنت وجندك إلينا، فالشرط لفظة واحدة ولكن خلفها معاني كثيرة، ومتعلقات لم تذكر في الكلام وكان جواب الشرط لفظة واحدة ضمت في طياتها معاني كثيرة، ومثلها الجملة المعطوفة عليها (وإن تفتلت فابعُد، أي إن جبت وضعفت وتخاذلت ولم تحشد الناس للجهاد فابعد عن مكانك الذي أنت فيه، وولايتك للمدينة التي أنت والٍ عليها ثم سلم الولاية إلى من يخلفك فيها)، وانظر إلى تهديد الإمام (عليه السلام) (وأيمُ الله لتؤتَيْنَ حيث أنت) وهذه الجملة فيها إichاءات متشعبة فقوله (لتؤتَيْنَ) تعني في ظاهرها لياتينك من الجند والمجاهدين من يتولى أمرك ويعزلك

١ - المصدر نفسه ٢/١٨٤.

٢ - المصدر نفسه ٣/١٢١.

من الولاية، وتحمل معنى آخر هو لياتينك حتفك حيث تكمن، وتعني كذلك أنك لن ينفعك اختفاؤك فسوف تدور بك الدوائر وتخرج من جحرك الذي تكمن فيه. أمّا قوله (حيث أنت) فمن أدق الكلام وأوجزه إذ المعروف أنّ حيث تختص بالإضافة إلى الجمل لذا يكون الضمير (أنت) في تقدير جملة (حيث أنت كامن) ولكن الإمام (عليه السلام) أراد معنى أبعد من ذلك أي لياتينك من يقبض عليك في أي مكان تكون فيه، أو تهرب إليه، والدليل على ذلك قوله في مكان آخر من الرسالة فإن كرهت ففتح إلى غير رحب ولا في نجاة^١. ثم تأمل في قوله (عليه السلام) «تجهّزوا رحمكم الله فقد نُودي فيكم بالرحيل وأقلّوا العُرْجة على الدنيا»^٢.

ولو تأملنا في قوله (تجهّزوا) لوجدناها مشحونة بالمعاني التي يوحي بها استعمالها، فمن ينوي السفر إلى مكان آخر يهيئ لنفسه من الزاد والماء والملبس ما يكفيه مدة السفر لكن الإمام (عليه السلام) لا يعني زاد السفر لأن الرحيل في قوله (فقد نودي فيكم بالرحيل) لا يعني السفر في الحياة الدنيا المعروف، بل أراد الرحيل من الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى في ضوء قوله تعالى {وتزودوا فإن خير الزاد التقوى} فلفظة (تجهّزوا) تعني اعملوا الصالحات وأعمال الخير بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأداء الفرائض كلها وبر الوالدين والإحسان لذي القربى وصلة الرحم، وتحقيق كل ما أمر به الإسلام، والإبتعاد عمّا نهى عنه ولو أنعمنا النظر في قوله (عليه السلام) (فقد نودي فيكم بالرحيل) لوجدنا أنها مشبعة بالمعاني، فالرحيل كما قلتُ هو الموت ولكن لم قال الإمام نودي فيكم وهو لا يقصد واحداً بعينه لكون الأجل متفاوتة، لا تأتي في وقت واحد، والجواب أنّ العبارة مختصرة والمنادي مجهول فقد يعني الإمام أن الموت لا بدّ منه وكل ابن أنثى لا بدّ من أن يموت مهما طال به العمر.

وقد قال تعالى «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ لَمَيِّتُونَ»^٣ وقد يعني أن علامات الموت من ظهور الشيب وضعف البدن وكثرة الأمراض تنادي المؤمن ليأخذ أهيته للرحيل، وقد يعني أنّ من يموتون أمام أعينكم هم السابقون وأنتم اللاحقون وسوف ينالكم ما نالهم طال أو قصر الزمن، كل تلك المعاني وغيرها تحملها جملة الإمام الموجزة فالإمام (عليه السلام) يحذّرهم من حب الدنيا إلى حد نسيان الآخرة كما صرح في أكثر من قول، ويأمرهم بالإقلال من الإنشغال بالدنيا قائلاً «وأقلّوا العُرْجة على الدنيا» والعُرْجة تعني إطالة المقام فإذا أراد المرء الإقامة ربط مطيته بباب الدار فيقولون ما لي عليه عُرْجة إذا لم يرد الإقامة عنده، قال الخليل «والتعريج حبسك مطيتك ورفقتك مقيماً على رفقتك أو لحاجة وما لنا عُرْجة بموضع كذا أي مقام»^٤.

فكيف يقلّ المرء من الإقامة في الحياة وله أجل مسمّى لا يعلمه وهل عرجته بيده؟ الجواب يفسر ما نحن بقصد تبيانه فالإمام لا يقصد الإقلال من الإقامة في الحياة الدنيا بل يريد الإقلال من التثبث بالحياة الدنيا وتوجيه حياته كلها لجمع المال والإستحواذ على المملّات حلالها وحرامها، بل ينبغي أن يدرك المرء أنه ميّت لامحالة فينظر إلى آخرته ويجعل أعماله في الدنيا تمهّد لسعادته في الآخرة ولا ينسى نصيبه من الدنيا^٥ وقد قال (عليه السلام) في المعنى نفسه «واتقوا الله عباداً الله، وبادروا أجالكم بأعمالكم، وابتاعوا ما يبقى لكم بما يزول عنكم، وترحلوا فقد جدّ بكم واستعدوا للموت فقد أظلمكم»^٥.

وهذا القول لا يقل اختزالاً عن سابقه، فقوله (عليه السلام) «اتقوا الله» يريد بها اتقوا غضب الله فلا تقربوا أعمال السوء وقوله «بادروا أجالكم» فيه حنكة في صياغة بناء الجملة تثير الإعجاب

١ . المصدر نفسه ١٢٢/٣ .

٢ . المصدر نفسه ١٨٣/٢ .

٣ . الزمر ٣٠ .

٤ . كتاب العين ٢٢٣/١ وينظر المختار من صحاح اللغة ٣٣ .

٥ . نهج البلاغة ١٠٩/١-١١٠ .

لأنّ بادروا تعني أسرعوا قال الجوهرى «بدر إلى الشيء: أسرع وبابه دخل وبادر إليه أيضاً، وتبادر القوم: تسارعوا وابتدروا السلاح تسارعوا إلى أخذه»^١. والنكته في بناء هذا الكلام أنّ الموت هو الذي يسرع إلى المرء فيبعثه أمّا أن يبادر الإنسان الموت فالمراد بذلك التهيؤ لاستقبال الموت قبل قدومه، وذلك بتوقع حلوله في كل وقت، فيأخذ أهيبته لما بعد الموت، يعمل الخيرات، والتزود بالتقوى والإعتقاد بأنّ كل ما في الدنيا زائل، وأنه لا يعدو أن يكون زينة لأيامه، وأنّ الباقيات الصالحات خير وأبقى، وقد اختزل الإمام كل هذه المعاني بقوله بادروا أجالكم بأعمالكم على الرغم من معرفته بأنّ لكل امرئ أجلاً غير أجل غيره لذا جاء بالجمع لأنه قصد أنّ كلّ مسلم يبادر أجله على شاكلته وبطريقته التي تناسبه لأنّ قدرتنا في مبادرة أجالنا متفاوتة بقدر درجات الإيمان والتقوى.

ويعزز ما نذهب إليه قوله وابتاعوا ما يبقى لكم بما يزول عنكم وهو قول بليغ يعجز عن الإتيان به فطاحل الشعراء والخطباء، فلا يريد الإمام بيعاً أو شراء في سلع أو حاجيات بل أراد اشتراء ما ينفعه يوم القيامة لأن معنى (ابتاعوا: اشتروا والمرء لا يشتري في الحقيقة بل يعمل الأعمال الصالحة التي تبقى وتنفعه في الآخرة كإطعام اليتامى والمسكين والإنفاق في سبل الخير وإعانة المعوزين وبذلك يقول الإمام - (عليه السلام) - في وصيته لابنه الحسن - (عليه السلام) «وإذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك إلى يوم القيامة فيوافيك به غداً حيث تحتاج إليه فاغتنمه وحمله إياه • وأكثر من تزويده وأنت قادر عليه فلعلك تطلبه فلا تجده • واغتنم من استقرضك في حال غناك ليجعل قضاء لك في يوم عسرتك»^٢.

والكلام في النصين واحد وإن اختلفت أساليبه فالإمام علي - (عليه السلام) كما ذكرت يعيش في غربة بين الناس الذين يكثرزون الذهب والفضة ويسعون لدنياهم ولا يعملون لأخرتهم فيحزنه ذلك ويؤلمه لذا كانت أكثر وصاياه للناس أن ينفقوا أموالهم في سبيل الله ليجدوا ذلك عند الله محفوظاً يخفف عنهم ذنوبهم ويدخلهم جنات الخلد. فالكلام مختصر لكن دلالاته مستفيضة أوجزت بعضها بما ينفع للتمثيل فقط.

٣ - الإتساق والانسجام:

أولى النقاد العرب الإتساق والانسجام جلّ عنايتهم وعدوه من معايير الجودة في النظم، ويتم بوضع بعض الفصول والمعاني من بعض بشكل أفضل بالنظر إلى أول الكلام ومنعطفه وخاتمته^٣.

كما أولى الباحثون في نحو النص اهتماماً كبيراً باتساق النص وانسجام مكوناته، قال محمد خطابي «يحتل اتساق النص وانسجامه موقعاً مركزياً في الأبحاث والدراسات التي تتدرج في مجالات تحليل الخطاب، ولسانيات الخطاب/ النص، ونحو النص وعلم النص حتى إنّنا لا نكاد نجد مؤلفاً، ينتمي إلى هذه المجالات خالياً من هذين المفهومين أو من أحدهما أو من المفاهيم المرتبطة بهما كالترابط والتعلق وماشاكلهما»^٤.

ومن يتأمل في كلام الإمام علي (عليه السلام) يجد أنه يتصف باتساق عباراته في نظم متوافق في ألفاظه وجمله ومقاطعته فترى العبارات والجمل بأنساق متوازية ومتقاربة فهو ينحت الجمل نحواً ويصوغها ببراعة ويستطيع كل باحث أن يجد تناسب الألفاظ في الجمل بسهولة ويسر انظر إلى قوله (عليه السلام):

يحيون على فثرة — ويموتون على كفرة
فاتقوا سكرات النعمة — واحذروا بوائق الثمة
طلوع جنبينها — وظهور كمينها

١ . المختار من صحاح اللغة ٣٢ .

٢ . نهج البلاغة ٦/٣ - ٤٧ .

٣ . منهاج البلاغ ٢٠٠ .

٤ . لسانيات النص مدخل الى انسجام الخطاب ٥ .

شبابها كشباب الغلام — وأثارها كآثار السلام
فتزيغ قلوبٌ بعد استقامة — وتضلُّ رجالٌ بعد سلامة
وتختلفُ الأهواءُ عند هجومها — وتلتبسُ الآراءُ عند نجومها.^١
فلو وازنت بين كل جملتين من الجمل المتسقة لوجدت أنّ الإمام (عليه السلام) يجانس بين
اللفظة وما يقابلها (يحيون) و(يموتون) فهما متناظرتان ومتضادتان في المعنى وبعد كل فعل
حرف الجر المتعلق به (على).

وانظر إلى كلٍّ من اللفظتين (فترة) و(كفرة) تجدهما بصيغة واحدة هي (فَعْلَة) كما تجد المعنى
في الجملتين مترابطاً ومتصلاً بعضه ببعض. ثمّ انظر إلى الجملتين الأخريين تجد التجانس بين
الألفاظ واضحاً إذ جاء الفعلان بصيغة الأمر المسند إلى الواو في الجملتين (فاتقوا) و(واحدروا)،
والمفعول به بصيغة الجمع في كلا الجملتين، وإن اختلف نوع الجمع في المفعولين (سكرات)
و(بوائق) وستلمس التجانس واضحاً في المضاف إليه في الجملتين (النعمة) و(النفمة) من حيث
الصيغة والتأنيث والتعريف مع مراعاة المقابلة بالضد في معنى اللفظتين، وتلمس التناسق في
الألفاظ وكأنها وزنت بميزان في قوله (طلوع جنينها) و(وظهور كمينها)، فأورد في كلٍّ منهما
مصدراً مماثلاً للآخر في صيغته (طلوع وظهور) وراعى المساواة في نوع المضاف إليه
وزنه وما أضيف إليه من ضمير.

وليس بنا حاجة إلى مزيد فحص وموازنة في الجملتين التاليتين لمعرفة وجوه التناظر بين كل
ركن من أركانها، وكذلك الحال في الجملتين الأخريتين فهما مكونتان من فعل مضارع (فتزيغ،
وتضلُّ)، وفاعل نكرة مجموع جمع تكسير (قلوب، رجال) وظرف تكرر في الجملتين (بعد)
ومضاف إليه متجانس في صيغته (استقامة، سلامة) فالجمل التي اخترتها من خطبة واحدة تدل
على أنّ خطاب الإمام ينثال بجمل متسقة في بنية أركانها وكأنه يصوغها بترتيب ومواءمة بين
الألفاظ ليثد السامع إليه في حسن انتقائه للألفاظ المتناظرة في صيغها وأدواتها وليبان نمط
المجانسة في الصيغ تأمل في نص يظهر فيه حبه لله عزّ وجلّ ولاحظ استعماله صيغة (ما
أفعل) التعجبية فيه قال (عليه السلام) «ما أعظم ما نرى من خلقك، وما أصغر عظيمه في
جنب قدرتك، وما أهول ما نرى من ملكوتك، وما أحقر ذلك فيما غاب عنا من سلطانك، وما
أسبغ نعمك في الدنيا، وما أصغرها في نعيم الآخرة».^٢

فقد كرر الصيغة التي عدّها النحاة قياسية في التعجب، وهو يدرك (عليه السلام) أن تكرار هذه
الصيغة في هذا المقام الذي تتوالى فيه نعم الله وصفاته التي ينبغي أن تحاط بهالات الإجلال
والتعظيم تتسق مع المقام، فأكثر (عليه السلام) منها لتتحقق المجانسة بين مكونات النص
والمعنى المقصود ويتجلى ذلك في ورود (ما أفعله) في عدد من الجمل بمقابلة طريفة في المعنى
فيضع الصيغة وما يقابلها في المعنى (ما أعظم وما أصغر) (ما أهول وما أحقر) (ما أسبغ وما
أصغر) ولا نجد ملأ في تكرار الصيغة بل نجد تجانساً أسبغ على النص حلاوة وجمالاً.
ثم يتبع ذلك بتكرار صيغة أخرى مشابهة لها ومناسبة هي (أفعل) التفضيل في قوله عن الملائكة
«من ملائكة أسكنتهم سماواتك، ورفعتهم عن أرضك، هم أعلم خلقك بك، وأخوفهم لك،
وأقربهم منك».^٣

ومثله قوله (عليه السلام) في وصف من أحبهم من المؤمنين «ألم يكونوا أثقل الخلائق أعباءً،
وأجهد العباد بلاءً، وأضيق أهل الدنيا حالاً».^٤
وربما تظهر المجانسة في ترتيب الجملة كالتقديم في متعلقات الفعل من مفعولات أو حروف
جر فلو دققنا في الجمل الآتية «فلا داعي أجابوا، ولا فيما رغبت رغبوا، ولا إلى ما شوقت
اشتاقتوا».^١

١ . نهج البلاغة ٢/٣٧-٣٨.

٢ . المصدر نفسه ١/٢١٠.

٣ . المصدر نفسه ١/٢١٠-٢١١.

٤ . المصدر نفسه ٢/١٥١.

لألفينا أنّ الإمام (عليه السلام) قدّم المفعول به، وحرّفي الجر(في)(إلى) في نسق جميل، وقد تجد التناسق في ترتيب بنية الجملة في تقديم جواب الشرط على الأداة وجملة الشرط في نحو قوله (عليه السلام) في حديثه عن أحبائه الزاهدين في الحياة الدنيا «إنّ الزاهدين في الدنيا تبكي قلوبهم وإنّ ضحكوا، ويشند حزنهم وإنّ فرحوا، ويكثر مقثمهم أنفسهم وإنّ اغتبطوا بما رزقوا»^٢. وفي هذه التراكيب يرى النحويون أنّ جواب الشرط محذوف لدلالة ما تقدّم عليه^٣. ولا نميل إلى ذلك ونرى أنّ ما ذهب إليه المبرد في جواز تقدم الجواب على أداة الشرط وفعله مما يجيزه العرب.

وقد يكون التناسق في نوع الجملة فتتبع الفعلية مثلتها والاسمية نظيرتها نحو قوله (عليه السلام) للمسلمين وقد فرّق بينهم خبث السرائر وسوء الضمائر «فلا توازرون ولا تناصحون ولا تباذلون ولا تؤادون»^٤ نسق من الجمل الفعلية المنفية بـ (لا). ويقول في حبيبه المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) في نسق مماثل من الجمل الإسمية «عترته خير العتر، وأسرته خير الأسر، وشجرته خير الشجر... فهو إمام من اتقى وبصيرة من اهتدى، سراج لمع ضوؤه وشهاب سطع نوره، وزند برق لمعه، سيرته القصد، وسنته الرشد وكلامه الفصل وحكمه العدل»^٥. وأرى أنّ هذه الهندسة في نظم الكلام والقدرة الفائقة على مواءمة الألفاظ ونسق الجمل في مجاميع متناسقة متألّفة تمنح النص حيوية ونضارة وجمالاً تجعل المخاطب مشدوداً إلى سحر هذا البيان، يستقبله بتأثر وانفعال وتعاطف مع المنشئ فيما يذهب إليه .

٤- التجانس بين مكونات الجملة:

تمتاز نصوص نهج البلاغة بانسجام الألفاظ في الجملة، وفي المقطع، فلا تجد تناقضاً بين تلك المكونات، ولا تباعداً في المعاني، ولو تأملنا ملياً في وصف الإمام - (عليه السلام) - المخيف لمصير الإنسان ومآله بعد عيش رغيد لوجدنا الجمل تتناسق مكوناتها وتتألّف بعضها مع البعض الآخر وقد أثرت أن أنقل مقطعاً من النص ليكون شاهداً على ما نقول نستطيع من خلاله الغوص في أعماق بنية النص ودراسة التجانس بين مكونات بنية الجملة في ضوء سياق النص قال الإمام «فمات في فتنته غريراً، وعاش في هفوته يسيراً، لم يفد عوضاً، ولم يقض مُفْتَرَضاً، دهمته فجعّات المنية في عُبر جماعه، وسننّ مراحه، فظل سادراً، وبات ساهراً في غمرات الآلام، وطوارق الأوجاع والأسقام، بين أخ شقيق، ووالد شقيق، وداعية بالويل جزعاً، ولا دمة للصدر قلقلًا، والمرء في سكرة مُلهية، وغمرة كارثة، وأتة موجعة، وجذبة مُكربة، وسوقة متعبة، ثم أدرج في أكفانه مُبلساً، وجذب مفقداً سلساً ثم ألقى على الأعواد، رجيع وصب، ونضو سقم تحمله حفدة الولدان، وحشدة الإخوان إلى دار غربته، ومنقطع زورته حتى إذا انصرف المشيع، ورجع المتفجع أقد في حفرة نجياً لبهته السؤال وعثرة الإمتحان، وأعظم ما هنالك بلية نزول الحميم، وتصلية الجحيم، وفورات السعير وسورات الزفير، لا فترة مريحة ولا دعة مزيحة، ولا قوة حاجزة، ولا موة ناجزة، ولا سنة مسلية بين أطوار الموتات، وعذاب السعرات»^٦.

فلو دققنا في مكونات هذا النص لوجدنا المكونات متجانسة ففي قوله (فمات في فتنته غريراً) و(عاش في هفوته يسيراً) تتكون كل جملة من (فعل + جار ومجرور + اسم منصوب) وفيهما الفعلان متضادان في المعنى والاسمان المنصوبان متجانسان في اللفظ وإن اختلفت الموقع

١ . المصدر نفسه ٢١١/١ .

٢ . المصدر نفسه ٢٢٢/١ .

٣ . المقتضب ٦٩/٢ وينظر مغني اللبيب ٣٨٥/٢-٣٨٦ وشرح ابن عقيل ١٠٤/٣ .

٤ . نهج البلاغة ٢٢٢/١ .

٥ . المصدر نفسه ١٨٥/١ .

٦ . المصدر نفسه ١٤٤/١-١٤٥ .

الإعرابي لكل منهما، ذلك أنّ الأول حال، والثاني نعت لظرف مستغنى عنه، فالاسمان فضلتان والفضلة والجار والمجرور في الجملتين من متعلقات الفعل والجملتان الأخريان تجانست مكوناتهما (لم يفد عوضاً) (لم يقض مفترضاً) دخلت (لم) في الجملتين على ما تختص بالدخول عليه وهو الفعل المضارع واسند كل فعل إلى مسند إليه يدل على الغائب و الاسمان المنصوبان متجانسان في الموقع واللفظ، ولم يرد في هذه الجملة ما هو غريب أو طارئ في بنيتها. ولاحظ قوله (فظلّ سادراً، وبات ساهراً) فالإنسجام في مكونات الجملتين واضح، ففي كلّ منهما فعل ناقص واسمه ضمير يدل على الغائب استغني عن ذكره يتبعه وصف منصوب سمّاه البصريون خبراً والكوفيون حالاً^١.

وقد تعلق بالوصفين جار ومجرور (في غمرات الآلام)، وعطف عليهما ما يجانسهما من حيث الإضافة والجمع (وطوارق الأوجاع والأسقام) ولو عدنا إلى دلالة تلك المكونات وارتباط بعضها ببعض معنوياً لوجدنا أنّ الفعل مات في قصد الإمام (عليه السلام) يرتبط بما يحذر منه من سدر المرء في غيّه حتى يفجأه الموت، وقد مرّ بنا قوله «بادروا أجالكم بأعمالكم» وهو القائل أيضاً «فبادروا المعاد وسابقوا الأجال»^٢. لذا قال «مات في فتنته غريباً» أي مات وهو منغمس في فتن الشيطان غافل عما سيحدث له، وعاش في هفوته يسيراً أي عاش حياته زالماً عن الطريق الصواب، منحرفاً عن الصراط المستقيم، فلم يمض عليه وقت طويل حتى وجد الموت يطبق عليه. فاستعمال (غريباً) مع الفعل (مات) واستعمال (يسيراً) مع الفعل عاش يدل على انسجام بين الفعل والاسم المنصوب بعده.

ولاحظ الإنسجام بين (ساهرأ) وما تعلق به في قوله: (في غمرات الآلام) و (طوارق الأوجاع والأسقام) ذلك أنّ شدة الآلام، ووكثرة ما يطرقه من الأوجاع والأمراض، تحرمه من النوم فيظل ساهراً لعدم تمكنه من النوم. ويظل ساهراً (بين أخ شقيق...).

و(بين) ظرف مكان متعلق بـ (ساهرأ) فهو مسجى بين أقاربه لا يردون عنه الألم ولا يمنعون عنه السهر، كما قال تعالى «فلولا إذا بلغت الحلقوم، وأنتم حينئذ تنظرون»^٣. وانظر إلى الاسمين (جزعاً) و(قلقاً) تجد الإنسجام بينهما وبين العامل في نصبهما كما يرى النحويون.

فالداعية بالويل والثبور لا يصدر عنها ذلك إلا لجزعها ونفاد صبرها، ولا تلدّم صدرها إلا حين ترى هذا العزيز يعاني من تلك الآلام فتتقلق على مصيره، لذا قال (داعية) في الأولى و(لادمة) في الثانية.

وانظر في دلالة النعت والمنعوت فيما بعد هذه الجملة تجد الإنسجام بين الصفة والموصوف في قوله: والمرء في: (سكرة ملهية) و(غمرة كارثة) و(أنة موجعة) و(جذبة مكربة) و(سوقة متعبة) فسكرة الموت تلهي المرء عن كل ما يحيط به من أولاد وزوجة وزينة ومال، وغمرات الموت: شدائده، وفي لحظات الشدة يعيش في مصيبة وكرب يملكان عليه كلّ جوارحه ويقطعان كل أماله فوصف الغمرة بالكارثة منسجم في دلالاته، وكذلك قوله (وأنة موجعة) فالأنة والزفرة تدلان على ما يقاسيه هو من آلام، أو أنّ الأنة تثير في نفوس المحيطين به الآلام والأوجاع. ومثلها في الإنسجام (وجذبة مكربة) ويريد بالجدبة تصاعد الأنفاس في لحظات الموت وهي تثير الكرب والحزن والتشاؤم لأن تلك الجذبات توحى بانتهاء الحياة.

ومثلها سوقة الأنفاس التي تتعب الميت وتنهكه، فالأوصاف منسجمة يوضح بعضها بعضاً وكلها تصب في معنى واحد يزيد من تماسك النص لانسجام مكوناته وانظر بتأمل في الجمل التي تبدأ بالأفعال المبنية للمجهول (أدرج) و(جذب) (ألقي) وتدبّر فيما بعد كل فعل تجده منسجماً تمام

١ . التبيين عن مذاهب النحويين ٢٩٥.

٢ . نهج البلاغة ١١٢/٢.

٣ . الواقعة ٨٣ - ٨٤.

٤ . الخطاب النفسي في القرآن الكريم ٢٠٦-٢٠٨.

الإنسجام، فالميت لا حول له ولا قوة بعد موته، لن يعمل شيئاً بل يصبح مستسلماً يعمل فيه الناس ما يلزمه قبل دفنه، ومما يلزمه هو إدراجه في كفنه، وتأمل بعمق في (مبلساً) و(منقاداً) و(سلساً) و(رجيع وصب) و(نضو سقم) تجد أن الميت مطاوع ويأئس لا يعترض ولا يقاوم لأن قواه قد انهارت فهو مهزول الجسم متعب، ويدل على ذلك أن الفعل لم يبين للفاعل بل بُني للمجهول وجاءت المنصوبات دالة على الخنوع واليأس والإستسلام، ونلاحظ الإنسجام بين الفعل وفاعله ومتعلق الفعل في قوله: تحمله حفدة الولدان، وحشدة الأخوان، إذ أنث الفعل لجمع التكسير المنتهي بالتاء (حفدة وحشدة) مجانسة للفظ وأفرد الفعل للفاعل في قوله «انصرف المشيِّع ورجع المتفجع» ولم يقل (المشيِّعون) أو (المتفجعون) لأنه لا يريد كثرتهم أو قتلهم بل أراد جنس المشيِّعين وجنس المتفجعين.

ومن يتتبع مكونات الجمل الأخرى يجد التجانس بين مكونات الجمل واضحاً بين الأفعال وفاعليها ومتعلقاتها وبين الموصوفات وصفاتها والأحوال وأصحابها فلا تنبو لفظة عن اختها ولا تتنافر واحدة مع الأخرى. وهذا التجانس بين مكونات النص يشدُّ أوامر تلك المكونات ويزيد من تلاحمها وتماسكها حتى يبدو النص وحدة متكاملة.

٥- التداخل النصي:

وهي خاصية واضحة في نصوص نهج البلاغة عموماً والنصوص المعيرة عن المعاني النفسية خصوصاً، ونقصد بالتداخل امتزاج نصوص الإمام علي (عليه السلام) بنصوص أخرى وهو ما يطلق عليه أحياناً (التناص) وهنا أقرر حقيقة لفتت نظري من خلال تتبع نصوص نهج البلاغة ونصوص الصحيفة السجادية وخطبة السيدة فاطمة (عليها السلام) والخطب المأثورة عن الأئمة من آل البيت أنها متداخلة ومتناظرة وبمستوى متقارب لأنها جميعاً تغترف من منبع واحد هو القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ولا أجد غرابة في تداخل نصوص نهج البلاغة بنصوص القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف لأن من يدرس سيرة الإمام علي (عليه السلام) وملازمته للنبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وسماعه وحفظه القرآن الكريم ومعرفة كل ما يتعلق بسوره وآياته وأسباب نزوله ومحكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه وسماعه ما نطق به رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في كل مناسبة وفي كل مقام، يدرك أن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف يعيشان في عقل الإمام ووجدانه ومشاعره وأحاسيسه فامتزجت ألفاظه بألفاظ القرآن الكريم وجرت جملة على لسانه وكأنها جزء من ثروته اللغوية والأسلوبية ومن يستقص مفردات القرآن وتراكيبه في نهج البلاغة يجد معجماً كبيراً.

ومن تلك التداخلات النصية قوله (عليه السلام): «واصبروا لها أنفسكم»^١. وهو نص يتداخل مع قوله تعالى «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي»^٢ مع فارق في الاستعمال حيث ورد الفعل (اصبر) متعدياً بنفسه في القرآن الكريم على حين تعدى بحرف الجر في كلام الإمام - (عليه السلام) (إلى أنفسكم). وقوله (عليه السلام) «استمسك من العرى بأوثقها» وهو يتداخل مع قوله تعالى «فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها»^٣.

وقوله تعالى «ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى»^٤. مع اختلاف في البنية لا يغير كثيراً في المعنى إذ وردت العروة مجرورة بحرف الجر (الباء) وموصوفة بلفظة (الوثقى) على حين وردت في كلام الإمام (عليه السلام) مجرورة بحرف جر آخر هو (من) وجاءت الوثقى بصيغة (أفعل) وأضيفت إلى الضمير (ها) العائد على العروة.

١ . نهج البلاغة ١/١٥٠.

٢ . الكهف ٢٨.

٣ . البقرة ٢٥٦.

٤ . لقمان ٢٢.

ونستطيع الربط بين قوله (عليه السلام) «قد صار حرامها عند أقوام بمنزلة السدر المخضود وحلالها بعيداً غير موجود، وصادقتموها والله ظلماً ممدوداً إلى أجل معدود»^١. وقوله تعالى: «**وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود، وطلح منضود وظل ممدود**»^٢ إذ تجد الإمام (عليه السلام) اقتبس من الآية الكريمة (السدر المخضود) والفرق بين الاستعمالين أنها وردت في الآية الكريمة بنكرتين ووردت في كلام الإمام معرفتين، واقتبس (عليه السلام) من السورة نفسها (ظلاً ممدوداً) والفرق بين نص الإمام والآية الكريمة مجيء اللفظتين في كلام الإمام منصوبتين وفي الآية الكريمة مجرورتين.

وكذلك قوله (عليه السلام) «**أف لكم لقد سئمت عتابكم، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً**» يلتقي مع قوله تعالى «**يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثأقنتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل**»^٣.

فالنصان يلتقيان في الألفاظ والبناء والمناسبة وهي توبيخ المتخاذلين عن الجهاد. ويتضح هذا التداخل في النصوص في قوله (عليه السلام) «**قد وكل بذلك حفظاً كراماً لا يسقطون حقاً ولا يثبتون باطلاً واعلموا أنه من يتق الله يجعل له مخرجاً من الفتن ونوراً من الظلم**»^٤.

وفيه تداخل في موضعين الأول قوله «**قد وكل بذلك حفظاً كراماً**» وهو مستوحى من قوله تعالى «**وإن عليكم لحافظين، كراماً كاتبين**»^٥.

والموضع الآخر قوله عليه السلام «**واعلموا أنه من يتق الله يجعل له مخرجاً من الفتن**» وهو مستوحى من قوله تعالى «**ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب**»^٦.

والفرق في الموضعين بين النص القرآني ونص الإمام هو اتيانه (عليه السلام) بجمع تكسير (حفظاً) وفي الآية الكريمة (لحافظين) بصيغة جمع المذكر السالم وتكرر (كراماً) في النصين وصاغ الإمام من معنى (كاتبين) جملة (لايسقطون حقاً ولا يثبتون باطلاً وهذا لا يختلف في معناه عن لفظة (كاتبين)).

ويلتقي قوله (عليه السلام): «**وإن للذكر لأهلاً أخذوه من الدنيا بدلاً فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه مع قوله تعالى «رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله**»^٧.

ويأخذ الإمام علي (عليه السلام) كثيراً من ألفاظه ومعانيه من القرآن الكريم كقوله (عليه السلام) مخاطباً معاوية ولما أدخل الله العرب في دينه أفواجاً وأسلمت له هذه الأمة طوعاً وكرهاً كنتم ممن دخل في الدين إما رغبة وإما رهبة على حين فاز أهل السبق بسبقهم، وذهب المهاجرون الأولون بفضلهم فلا تجعلن للشيطان فيك نصيباً ولا على نفسك سبيلاً»^٨.

وفي هذا النص أكثر من تداخل نصي فقوله (عليه السلام) فلما أدخل الله العرب في دينه أفواجاً مستوحى من قوله تعالى «**إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً**» والفرق بين نص الإمام والآية الكريمة أن الإمام - (عليه السلام) - قال أدخل الله بدلاً من يدخلون في هذا المقام الذي يرد فيه على تبجح معاوية بدخول الإسلام ليشعره بأن الله تفضل على العرب بدخولهم في الإسلام وأن دخولك لم يكن إيماناً بل كان رهبة من سيوف المسلمين أو طمعاً في أموال دولة المسلمين وما أفاء الله به عليهم من خيرات.

- ١ . المصدر نفسه ٢٠٠/١-٢٠١.
- ٢ . الواقعة ٢٧ - ٣٠.
- ٣ . التوبة ٣٨.
- ٤ . المصدر نفسه ١١٢/٢.
- ٥ . الإنفاطار ١١.
- ٦ . (الطلاق ٦٥)
- ٧ . النور ٣٧.
- ٨ . المصدر نفسه ١٧/٣.

وفي ذلك تبيكيت وتوبيخ. وقوله طوعاً وكرهاً مستوحى من قوله تعالى «وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً»^١.
 وقوله (عليه السلام) على حين فاز أهل السبق بسبقهم مستوحى من قوله تعالى «والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنّات النعيم»^٢.
 أو قوله تعالى «والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعدّ لهم جنّات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم»^٣.
 وفي هذا النص اختار من الأيتين ما يناسب الموقف لمن يدعي الإسلام أنّ فضله ليس كفضل السابقين والأولين من المهاجرين والأنصار.
 وما أوردته من نصوص أمثلة قليلة، ومن يستقص وجوه التداخل النصّي في نهج البلاغة وما يستوحيه من القرآن الكريم يجد عجباً.
 ولو استعرضنا الأمثلة التي أوردتها ونظرنا فيها بعمق لوجدنا أنّ التداخل قد يكون إمّا:
 ١ - تداخلاً لفظياً إذ يجعل الإمام (عليه السلام) معجمه مستمداً من معجم ألفاظ القرآن الكريم فهو (عليه السلام) يميل إلى استعمال الألفاظ القرآنية في عباراته وجمله التي تعبر عن مشاعره وأحاسيسه وأفكاره لأنها ألفاظ تعيش في عالمه اللغوي واستعمالاته اليومية لحفظه القرآن الكريم واستيعاب معانيه ودلالات ألفاظه.
 ٢ - تداخلاً في جزء من مكونات الكلام بذكر لفظين أو أكثر من الآية الكريمة.
 ٣ - تداخلاً يقتبس فيه الإمام (عليه السلام) آية ويزيد عليها لفظاً أو لفظين من كلامه بحسب ما يتطلبه المقام.
 ٤ - تداخلاً يخلط فيه الإمام (عليه السلام) كلامه بألفاظ قرآنية ممتزجة بألفاظه المقربة لألفاظ القرآن الكريم وبروح قرآنية متكاملة.
 ٥ - تداخلاً معنوياً يعيد فيه الإمام (عليه السلام) صياغة الآيات الكريمة بألفاظه هذا فضلاً عن أنّ الإمام (عليه السلام) يقتبس من القرآن الكريم آيات كثيرة لم أنشأ الحديث عنها لأنّ البحث في ذلك يخرجنا مما نحن فيه من الحديث عن بنية النص.

المبحث الثاني: علاقات التماسك في النص النفسي:

توطئة: لم يتفق الباحثون المحدثون على اتجاه موحد في دراسة قضية التماسك بين مكونات النص وأجزاء بنيته لما يتصف البحث فيه من التجريب والتنظير الفردي فلم أجد مجموعة من العلماء المحدثين الذين كتبوا في النص يتفقون على خطوط أساسية يمكن دراستها ووضع الملاحظ عليها بل وجدت كل باحث يدرس المسألة من نظريته الخاصة بالنص، ووجدت المحدثين العرب وللأسف يلهثون خلف هذه الرؤى المتباينة لا يعرفون ماذا يأخذون منها فيقرأ الباحث كتاباً لأحد منظري الغرب ويظن أنه قد فتح فتحاً مبيناً، فيتمسك بتقسيماته، وحدوده، وأمثله، وكأنيها هي الأساس في هذا الموضوع، ويذهب باحث غربي آخر مذهباً آخر فيتبعه من العرب آخرون وهكذا تجدنا نلهث وراء آراء الغربيين من غير اتفاق على أسس متفق على صحتها، وقد أشار الدكتور صلاح فضل إلى هذه القضية قال علينا أن نؤكد أن التماسك ليس مجرد نوع من الظواهر الموضوعية للقول فحسب، بل إنّه باعتباره (كذا) مظهراً للمدلول ولتفسير الخطاب يصبح ذاتياً وشخصياً...
 ومن هنا يرى الباحثون أنّ المشكلة الأساسية التي تقوم عند مواجهة مفهوم تماسك النص تنبثق من طبيعة النص ذاته (كذا) إذ تنصبّ عليه بحوث متعددة الإختصاصات والتوجّهات ممّا يجعل تحديد مفهوم عام للتماسك أمراً عسيراً.^٤

١ . آل عمران ٨٣.

٢ . الواقعة ١٠ - ١٢.

٣ . التوبة ١٠٠.

٤ . بلاغة الخطاب وعلم النص ٣٣٩-٣٤٠.

ولبيان ذلك أشير إلى أنّ أولئك الباحثين لم يعدوا العدة لوضع تنظير جديد بل ما زالوا موزعين بين الأثر الغربي والتراث العربي، إذ يرى د عمر أبو خرمة أنّ أبرز خصائص النص أن يكون متتالية جمالية خطية متصلة ويقترح لها مجموعة قوانين تسمح بتماسكها فلا تنفكّ وحين يعرض القوانين نجد أنّ أكثرها مستنبط من أفكار عربية قديمة أبدل تسميتها، وبعضها لا علاقة له بالتماسك^١.

وأرى أنّ ما قدّمه الدرس البلاغي والنحوي عند العرب فيه كثير مما تنتظم فيه رؤية التماسك بمنظور شامل، على حين ما زال البحث الحديث يتخبط في ذلك وأفضل ما قدّمه في هذا المضمار لا يعدو ما أنتجه العقل العربي، وسوف نحاول في دراستنا اعتماد المقولات العربية ونستفيد مما قدّمه النظر الحديث ويمكن تقسيم هذه العلاقات على قسمين:

الأول: العلاقة بين الألفاظ: وهو ما يدعى قوة الوشائج بين الألفاظ ويعتمد على ترابط الألفاظ بعضها ببعض

الآخر: نعني به الترابط بين مجموعات من الجمل في ضمن قطعة معنوية متجانسة تربطها بالقطعة التي قبلها والتي بعدها وشائج لفظية ومعنوية وبنوية ولا أريد الخوض في هذه العلاقات من الناحية التنظيرية بل سأستنبط هذه العلاقات من نص نفسي من نصوص نهج البلاغة أحلل فيه بنية النص لاستجلاء العلاقات بحسب القسمين الأول والآخر، قال الإمام (عليه السلام) في ذم أصحابه:

احمد الله على ما قضى من أمر، وقدّر من فعل، وعلى ابتلائي بكم أيها الفرقة التي إذا أمرت لم تُطع، وإذا دعوت لم تجب، إن أمهلتهم خضنتهم، وإن حوربتهم خرثتهم، وإن اجتمع الناس على إمام طعنتم، وإن أجبتم إلى مشاققة نكصتم، لا أبا لغيركم، ما تنتظرون لنصركم والجهاد على حَقكم؟ الموت أو الذل لكم، فوالله لئن جاء يومي - وليأتيني - ليُفرّق بيني وبينكم وأنا لصُحبتكم قال، وبكم غير كثير. الله أنتم، أما دين يجمعكم؟ ولا حمية تشدّكم؟ أو ليس عجباً أن معاوية يدعو الجفأة الطغام فيتبعونه على غير معونة ولا عطاء، وأنا أدعوكم - وأنتم تريكة الإسلام وبقية الناس - إلى المعونة وطائفة من العطاء فتفرقون عني وتختلفون عليّ، إنه لا يخرج إليكم من أمري رضى فترضونه، ولا سُخْط فتجتمعون عليه، وإن أحبّ ما أنا لاق إليّ الموت، قد دارسنتكم الكتاب، وفاتحنكم الحجاج، وعرفنكم ما أنكرتم، وسوغنكم ما مجبتم، لو كان الأعمى يَلْحَظُ، أو الثائم يستيقظ، وأقرب بقوم من الجهل قائدهم معاوية، ومؤدبهم ابن النابغة^٢.

الخطبة مشحونة بالعواطف، إذ تعبّر عن سخط الإمام (عليه السلام) على من يخاطبهم من المتخاذلين عن الجهاد والمماطلين في المواعيد، والمبتعدين عن توجه الإمام الذي يمثل النهج المحمديّ يتبعون أهواءهم ويعبدون شياطينهم فهم والإمام على طرفي نقيض فالخطبة نسج من المعاني النفسية الطاغية وردت بعبارات زاخرة بمعاني الحزن والألم والغضب والتبكيك والتوبيخ وغيرها من المعاني، وهي وحدة نصية متكاملة سنحاول دراسة الروابط بين أجزائها. فالناظر إلى الخطبة نظرة كلية يجد أنها سلسلة من المقاطع المترابطة المتماسكة تشدها أدوات ومعان، وما يسمّيه البلاغيون من فصل ووصل، وطرائق أخرى اقتضاها المقام والحال ولا أريد الخوض في تنظيرات الربط والتماسك بل سأجعل ذلك يأتي في اثناء الحديث عن تقسيمات الخطبة وربط أجزائها ووسائل **تماسك تلك الأجزاء على النحو الآتي:**

١ - المقطع الأول: يبدأ بقوله (عليه السلام) مفتتحاً الخطبة أحمد الله على ما ثمّ يشطر ماحمد الله عليه إلى شطرين مترابطين بحرف عطف يربط جملة بأخرى:

١- (قضى من أمر) و ٢- (قدّر من فعل) وأداة الربط هنا (الواو) وهي الأداة التي ربطت الجملة المسبوقة بأداة الوصل (ما) التي سموها (المصدرية) بالمصدر (ابتلائي) ليكون الكلام على النحو الآتي:

١ . ينظر نحو النص ٢٠٩-٢٢٤.

٢ . نهج البلاغة ١٠٠/٢-١٠١.

أحمد الله على ما (قضى وقدر) وعلى (ابتلائي بكم).

٢- المقطع الثاني: يرتبط هذا المقطع بما سبقه برابط هو (أيتها الفرقة) وهو نداء متصل بالضمير الدال على جماعة المخاطبين (كم) وهو رابط قويّ يشدّ ما قبله بما بعده وهو ليس نداءً في الحقيقة بل استعملت أداة النداء (أيّ) للتعبير عن التوبيخ لأنه حين قال (ابتلائي بكم) ربط الكلام بتوضيح الضمير (كم) فقال (أيتها الفرقة) تبياناً وتوضيحاً ولكون (الفرقة) معرفة ربطها بأداة الربط والوصل (التي) فالمقطعان ارتبطا بـ (أيتها الفرقة)، أمّا (التي) فقد ربطت مجموعتين من الجمل الشرطية هي:

المجموعة الأولى: وتتكون من جملتين ارتبطت إحداهما بالأخرى بحرف العطف (الواو) هما:

١- إذا أمرت لم تُطع.

٢- وإذا دعوت لم تُجب.

المجموعة الثانية من الجمل المرتبطة بـ (التي) وإن لم تعطف على المجموعة الأولى بحرف عطف ظاهر ولكن المعنى يدل على ارتباطها وهو ما يعدّ من الربط بواو غير مذكورة ويلاحظ فيها (الإلتفات) من ضمير الغيبة للمؤنث، إلى ضمير الخطاب لجماعة المخاطبين الذكور، وتتكون هذه المجموعة من أربع جمل ترتبط فيما بينها بحرف العطف (الواو) وهي:

١- إن أمهلتم خضتم.

٢- وإن حوربتم خرتم.

٣- وإن اجتمع الناس على إمام طعنتم.

٤- وإن أجبتهم إلى مشاقّة نكصتم.

وقد يسأل سائل كيف ربطت مجموعة إحدى جملتيها صلة لموصول والأخرى معطوفة عليها، بمجموعة أخرى اختلفت فيها أداة الشرط واختلف نوع المخاطب، ونجيب عن ذلك بأن المعنى لم يتغير بتغيّر الأداة من (إذا) إلى (إن) لأنّ الكلام في المجموعتين هو في معنى الشرط، فلم يتغيّر مجرى الكلام بل ازداد الشرط أصالة باستعمال الأداة الأم (إن) بعد أن كانت الأداة متضمنة معنى الشرط لذا فالكلام مازال مستمراً في نمطه الشرطي، أما الإلتفات في الخطاب من الغيبة إلى خطاب جماعة المخاطبين فلم يغير في معنى الكلام لأنّ الإلتفات وظيفته جمالية تؤدي إلى تطرية الإستعمال عند المخاطب وزيادة الإلتباه أمّا من حيث المعنى فما زال الخطاب موجهاً إلى من ابتلي بهم الإمام (عليه السلام) الذين عبّر عنهم بـ (أيتها الفرقة) ولذا نستطيع القول إنّ الكلام مترابط بـ (واو) مستغنى عن ذكرها لأنّ معنى الكلام يوحي بذلك .

والترابط بين مكونات المجموعة الثانية يتجلى باستعمال الواو العاطفة بين جمل متجانسة في بنيتها إذ تتكون كل جملة من أداة الشرط (إن) وجملة الشرط المكونة من فعل ماض وفاعله، وكذلك جواب الشرط في قوله (عليه السلام) (إن أمهلتم خضتم) و(إن حوربتم خرتم) وهما جملتان متكافئتان في مكونات بنيتهما متجانستان في نوع أفعالهما.

والجملتان مرتبطتان بواو العطف بجملتين أخريين متقاربتان في مكونات كل منهما مع اختلاف يسير هو أنّ الجملة الأولى بني الفعل فيها للمعلوم وفاعله اسم ظاهر، على حين بني الفعل في الثانية للمجهول، ونائب الفاعل ضمير جماعة المخاطبين، وفي كل منهما جار ومجرور وجواب الشرط في كلّ منهما فعل ماض مبني للمعلوم أسند إلى ضمير جماعة المخاطبين.

والتجانس الملحوظ في كلّ جملتين من هذه المجموعة يمنحها تماسكاً وترابطاً فضلاً عن ربطهما بالواو وهي سمة واضحة في الأساليب العربية.

٣- المقطع الثالث: يرتبط هذا المقطع بما قبله بقوله (عليه السلام) داعياً عليهم دعاءً ظاهره أنه ليس عليهم، وباطنه أنه عليهم لأنّ ما بعده يدل على سخط الإمام وضجره من سوء أعمالهم وهذا الدعاء لا أبا لغيركم والمعهود في مثل هذا المقام أن يقول: (لا أبا لكم) ولكن الإمام عدل عن التصريح بذلك إلى الدعاء على غيرهم أدباً وتكرماً، وقد جعلت هذا الدعاء رابطاً لما وجدته من علقه بين المقطع السابق وبينه في المعنى لأنّ الكلام لم ينصرف إلى غرض آخر، بل امتد

التوبيخ والتبكيك إلى من يخاطبهم مع زيادة في حدة التوبيخ، وللتعبير عن هذه الحدة انتقل الإمام إلى الإستفهام الذي يراد به التوبيخ بقوله ما تنتظرون لنصركم والجهاد على حقكم . وفي كلامه هذا ربط بين لفظتين هما (نصركم) و(الجهاد) وهذا الإستفهام كما نلاحظ مرتبط في قوله (عليه السلام) بـ (وإن أجبتكم إلى مشاققة نكصتم) لأنّ المراد بالمشاققة: الحرب لذا وبّخهم على نكوصهم بقوله ما تنتظرون... وقد وردت في هذا المقطع جملة تبدو منقطعة عما قبلها لغياب الرابط بينها وبين ما قبلها وهي جملة الموت أو الذل لكم وأرى أنّ الكلام متصل تمام الإتصال وإن غابت أداة الربط لأنّ معنى الكلام (أو تنتظرون الموت أو الذل لكم) وتلك عقبى من يتخاذل عن الجهاد وطلب النصر على الأعداء لأنهم إن تخاذلوا وقشلوا في جهاد أعدائهم فسوف يغزونهم في عقر دارهم فيموت من يموت ويذل من يبقى حياً، فالإمام ربط كلامه بعبءه ببعض وإن لم يذكر أداة ربط بل كان الربط خفياً.

٤- المقطع الرابع:

وهو مقطع يتفجّر غيظاً وحرناً ربطه الإمام - (عليه السلام) برابطين أحدهما: الفاء في قوله فوالله وأرى أنّ القسّم هو الرابط الآخر، لأنه في ضوء ما وبّخهم عليه من خذلان وتمرد وعصيان للأوامر وتباطؤ في تلبية دعوة الجهاد أقسم الإمام لأنّ جاء يومي - وليأتيني - ليقرقن بيني وبينكم ولا يقتصر الأمر على الخلاص منهم بالموت بل يذهب إلى الإمعان في توبيخهم قائلاً وأنا لصحبتكم قال، وبكم غير كثير فقسّمه (عليه السلام) يربط تخاذلهم بالحال التي سيكون عليها عند موته بأنه مبغض لصحبتهم لأنها صعبة لا تزيده عدداً ولا قوة . فالعنى ما زال متماسكاً يرتبط بعبءه ببعض، هذا فضلاً عن استعمال الإمام - (عليه السلام) أداة الربط (الواو) في عطفه شبه الجملة (بيني) على نظيرتها (بينكم) وعطف الجملة الاسمية (وأنا لصحبتكم قال) على نظيرتها (وبكم غير كثير).

٥- المقطع الخامس:

وهو يرتبط بما قبله برابط معنوي هو التعجب في قوله لله أنتم وهو قول بليغ يتعجب فيه ممّا هم عليه من حال، وهذا التعجب ينتقل به إلى مجموعة من الأسئلة التي لا يريد لها جواباً بل يريد الإمعان في التوبيخ بعبارة قاسية في تأثيرها في نفوسهم بقوله أما دين يجمعكم؟ ولا حمية تشحنكم؟

وهذا المقطع كسابقه يرتبط معنوياً بما قبله من مقاطع، لأنّ الخطبة وحدة معنوية متماسكة يرتبط بعضها ببعض لذا جاء التعجب مما سبق من خذلانهم وامتناعهم من الإنخراط في صفوف المجاهدين متصلاً بما قبله، وهو حلقة اتصال بما بعده من الأسئلة التوبيخية.

والسؤالان اللذان ذكرتهما من مجموعة أسئلة هذا المقطع يتسقان في البنية ويتكافآن في مكونات بنية كلّ منهما، وهذا الإتساق يسهّل ربطهما بما قبلهما، كما أن الإنتقال من التعجب إلى الإستفهام مع امتداد خيوط المعنى منوعاً في نبرات الكلام يمنح المقطع تنوعاً متماسكاً ومؤثراً في المخاطب . ويردّ الإمام هذين السؤالين التوبيخيين بسؤال يحمل معنى التعجب أيضاً يرتبط بهما بأداة الربط (الواو) مسبوقاً بالهمزة قائلاً أوليس عجباً... وفي هذا السؤال مجموعة من الجمل المتشابهة والمتراصة بأداة ظاهرة أو بأداة مستغنى عنها، فجملة (ليس عجباً أنّ معاوية) مرتبطة بجملة (أنّ واسمها وخبرها) لكون اسم ليس (أنّ معاوية) يتضمن أداة ربط هي (أنّ) لذا يأتي خبر أنّ (يدعو الجفأة الطغام فيتبعونه) مكماً لمعنى جملة (ليس)، وفي هذا الخبر نعتان لمفعول مستغنى عن ذكره، مرتبطان بغير أداة عطف هما (الجفأة الطغام) والتقدير الجفأة و الطغام، ثمّ يرتبط جملة (يتبعونه) بالفاء، كما يرتبط الاسمين المنفيين (غير معاوية) و(لا عطاء) بالواو.

وأحدث الإمام - (عليه السلام) ربطاً وتنوعاً في الصياغة وبنية الجملتين في أنّ واحد وفيه تظهر براعة الإمام في دقة التعبير فهو يربط الجملة الاسمية التي خبرها مستغنى عن ذكره دلت

عليه الجملة الفعلية (يدعو)، بجملة اسمية خبرها مستغنى عن ذكره دلت عليه الجملة الفعلية (أدعوكم).

وترتبط بالفعل (أدعوكم) جملة تدلّ على الحال عطف على خبرها اسم مناظر للخبر وأنتم تريكة الإسلام، وبقية الناس كما ارتبط الفعل (أدعوكم) نفسه برابط آخر هو التعلق المعنوي (إلى المعونة) وهو متماسك بعاطف هو (الواو) مع (طائفة من العطاء).

وزيادة على ما ذكرنا من ارتباطات لجملة (وأنا أدعوكم) نجدتها ترتبط بجملة (فتفرقون) وجملة (تختلفون) بكل من الفاء والواو.

ويختتم هذا المقطع بتأكيدين يرتبطان معنوياً بما أورده من تعجب من أفعالهم المخزية ليظهر لهم موقفه من تلك الأفعال:

الأول: قوله (عليه السلام) إنه لا يخرج إليكم من أمري رضى؛ فترضونه ولا سخط فتجتمعون عليه والآخر: معطوف على الأول بالواو في قوله وإن أحب ما أنا لاق إليّ الموت ويلاحظ في التأكيدين عدد من الروابط الداخلية منها تعلق حروف المعاني بأفعالها ومنها الفاء والواو، ومنها الوصل في (ما أنا لاق).

وهي روابط قد وثقت عرى الإتصال بين مكونات الجمل وأشباهاها •

المقطع السادس:

وفيه سلسلة من الجمل المتناسقة والمتجانسة والمتماسكة بحرف (الواو) وقد ربط حرف التحقيق (قد) هذا المقطع بما سبقه في قوله (قد دارستكم الكتاب)، و(فاتحتكم الحجاج) و(عرفتكم ما أنكرتم) و(سوغتكم ما مجتتم) فالأفعال كلها ماضية مسندة إلى ضمير المتكلم ومتعدية إلى مفعول واحد، ويلاحظ في الجملتين الثالثة والرابعة وجود ربط بين المفعول وصلته بالوصل في (ما أنكرتم) وما (مجتتم) لما بين الموصول وصلته من ترابط وتكميل في المعنى.

وختم الإمام عيه السلام خطبته هذه بجملة عجيبة الصياغة تبدو في ظاهرها أنها منفصلة أو مستأنفة، غير أنها مرتبطة كل الارتباط بما قبلها لأن الجمل المتناسقة التي سبقتها هي تذكير بما سعى إليه الإمام (عليه السلام) لتوعيتهم وتوجيههم وتحذيرهم مما سدروا فيه من غي فجاء قوله في الخاتمة خلاصة لتجربته معهم في عبارة تعبر عن حالهم لو كان الأعمى يلحظ، أو النائم يستيقظ، وأقرب بقوم من الجهل بالله قائدهم معاوية، ومؤدبهم ابن النابغة فقوله لو كان الأعمى ... معناه أن تلك الحجج والنصائح لاتجدي معكم نفعاً لأنكم قوم عمي لا ترون، وأنتم نيام لا تستيقظون فاربط الكلام بما قبله في المعنى وذلك بالانتقال من السياق الخبري في الجمل الفعلية السابقة لهذا القول، إلى الكلام الإنشائي الذي يبدأ ب (لو).

ثم ربط الكلام بجملة عجيبة الصياغة جاءت بهيأة الصيغة الثانية للتعجب (أفعل به) ولكنها متصلة بما بعدها (أقرب بقوم من الجهل بالله قائدهم معاوية) وجملة (قائدهم معاوية) جملة اسمية ارتبطت بما قبلها بغير أداة ربط وهي امتداد لجملة التعجب.

والمعنى لم ينقطع بانتهاء جملة التعجب لأن التعجب من كون معاوية قائدهم لم يكن هو المتعجب منه وحده بل عطف على المتعجب منه جملة أخرى (مؤدبهم ابن النابغة).

ولو تأملنا بخاتمة الخطبة وربطناها بمففتح الخطبة (أحمد الله على ما قضى من أمرٍ وقدّر من فعل وعلى ابتلائي بكم ...) نجد أن الربط واضح حيث يختم بذكر موازنة بين قوم تعجب من جهلهم بالله يقودهم معاوية ويؤدبهم عمرو بن العاص، وقوم أتاح الله لهم الإمام علي ليؤدبهم ويعرض لهم الحجج ويعطيهم البراهين، لكنهم كانوا كالنيام الذين لا يستيقظون والعُمي الذين لا يبصرون.

ومما تقدّم نستخلص أنّ وسائل الربط والتماسك كثيرة منها الربط بحروف العطف المختلفة الظاهرة والمستغنى عن ذكرها، والربط بأسماء الوصل وحروفه، والربط بتغيير المعنى مع امتداده، سواء بالدعاء أو القسم أو التعجب أو الإستفهام وغيرها من المعاني، والربط بالضمائر، وأسماء الإشارة، والتكرار وغيرها من وسائل الربط التي يتحكم بها المنشئ بحسب المعاني

المقصودة لذا أقول إن وضع ضوابط لربط مكونات النص وتماسكه أمر لا يمكن حصره في قواعد أو ضوابط محدودة وسنجد في نصوص أخرى روابط غير ما ذكرنا.

وتظهر روابط التماسك في النصوص السابقة موضحة في المخطط الآتي:

ما قضى من أمر أحمد الله على وقدر من فعل وابتلائي بكم إذا امرت لم تُطع أيها الفرقة التي إذا دعوت لم تُجب إن أمهلتكم خضتم إن حوربتكم خرتم إن اجتمع الناس على إمام طعنتم وإن أُجبتكم إلى مشاققة نكصتكم لا أبا لغيركم ما تنتظرون لنصركم والجهاد على حاكم الموت أو الذل فوالله لئن جاء يومي - وليأتيني ليفرقن بيني وبينكم وأنا لصحبتيكم قال وبكم غير كثير الله انتم أمّا دينٌ يجمعكم ولا حمية تشحذكم أوليس عجباً أن معاوية يدعو الجفافة الطغام فيتبعونه وأنا ادعوكم وانتم تريكة الإسلام إلى المعونة وطائفه من العطاء فتفرقون عني وبقية الناس وتختلفون علي انه لا يخرج إليكم من أمري رضى فترضونه ولا سخط فتجتمعون عليه قد دارستكم الكتاب وإن أحب ما أنا لاقى الموت وفاتحتكم الحجاج لو كان الاعمى يلحظ وعرفتكم ما انكرتم أو النائم يستيقظ وسوغتكم ما مجتتم واقرب بقوم من الجهل بالله قائدكم معاوية ومؤدبهم ابن النابغ.

المبحث الثالث: الظواهر البنيوية في النصّ النفسيّ تتضح لمن يدرس النصّ المعبر عن أحاسيس الإمام ومشاعره، وما أراد به التأثير في نفوس سامعيه، وتوجيههم الوجهة التي أرادها الله لعباده، جملة من الظواهر الأسلوبية التي مازت خطبه ورسائله، وجعلتها نسيجاً متفرداً، يعرفه من خبر أساليب المفوهين والخطباء، وهذه الظواهر أذكرها تمثيلاً وانتقاءً لأنني أدرك أن نسج خطب الإمام، ورسائله نسج متميز في الكلام العربي أستطيع وصفها بالقمة الثالثة بعد نسج القرآن الكريم، ونسج أحاديث نبي الهدى محمد - صلى الله عليه وآله وسلم، لذا سأذكر عدداً من هذه الظواهر أهمّها:

١- التفصيل، أو الإمتداد البنيويّ للجملة في النصّ النفسيّ وسائر نصوص نهج البلاغة:

وهي ظاهرة واضحة بل طاغية في أكثر النصوص، وفيها تظهر براعة الإمام (عليه السلام) في تفرّيع الكلام وتنويع أساليب التعبير عن المعنى الواحد بجمل متقاربة في المعنى، متباينة في المبنى، ولقد وجدت في ذلك عجباً يبهر الدارسين لما يمتلكه الإمام (عليه السلام) من قدرة على تشقيق المعاني وتفريعها وإيجاد القنوات التعبيرية المتشعبة لتنتقل تلك المعاني مع خصوصية كلّ منها في مخاطبة السامع والتأثير فيه.

وتلك هبة من الله لا تتأتى لكل البشر، ذلك لأنّ التنويع في بنى الجمل يتطلب خزناً من المفردات لا ينضب، وقدرة على التنويع في بنى الأساليب بأسانيد مختلفة، وعبقورية في المقاربة بين البنى وذلك لا يقوى عليه إلا بليغ مفوه وكثيراً ما يستعين الإمام (عليه السلام) بحروف العطف في توصل هذا الإمتداد في الجمل نحو قوله (عليه السلام) في إحدى خطبه:

فاعتصموا بتقوى الله، فإنّ لها حبلاً وثيقاً عروته، ومعقلاً منيعاً ذروته، وبادروا الموت في غمراته، وامهدوا له قبل حلوله، وأعدّوا له قبل نزوله، فإنّ الغاية القيامة، وكفى بذلك واعظاً لمن عقل، ومعتبراً لمن جهل، وقبل بلوغ الغاية ما تعلمون من ضيق الأرماس، وشدة الإبلاس، وهول المطلع، وروعات الفزع، واختلاف الأضلاع، واستنكاف الأسماع، وظلمة اللحد، وخيفة الوعد، وغمّ الضريح، وردم الصفيح، فالله الله فإنّ الدنيا ماضية بكم على سنن، وأنتم والساعة في قرّن، وكأنّها قد جاءت بأشراتها، وأزفت بإفراطها ووقفت بكم على سراطها، وكأنّها قد أشرفت بزلازلها، وأناخت بكلاكها، وانصرفت الدنيا بأهلها، وأخرجتهم من حضنها، فكانت كيوم مضى، أو شهر انقضى، وصار جديدها رثاً وسمينها غثاً في موقف ضنك المقام، وأمور مشتبهة عظام ونار شديد كلبها عال لجبها، ساطع لهبها متغيظ زفيرها، متأجج سعيرها بعيد خمودها، ذاك وقودها مخيف وعيدها ...

في هذا المقطع تجد الإمام (عليه السلام) يفرّع المعاني وينوع في الجمل والألفاظ على النحو الآتي:

- ١ - أخذ من معنى التقوى ما يرتبط بها (فإن لها حبلاً وثيقاً عروته — ومعقلاً منيعاً ذروته)
- ٢ - ويخاطب أهل التقوى والمسلمين — (بادروا الموت في غمراته) — (وامهدوا له قبل حلوله) — (وأعدوا له قبل نزوله).
- ٣ - وفرّع من كون القيامة هي الغاية — (وكفى بذلك واعظاً لمن عقل) — (ومعتبراً لمن جهل).
- ٤ - وذكرهم بأن قبل بلوغ تلك الغاية (القيامة) مصاعب وأهوالاً، منها: (ضيق الأرماس) — (وشدة الإبلاس) و— (وهول المطلع) — (روعات الفزع) — (إختلاف الأضلاع) — (استكآك الأسماع) — (ظلمة اللحد) — (خيفة الوعد) — (غمّ الضريح) — (ردم الصفيح).
- ٥ - وبنى على تقوى الله : (الدنيا ماضية بكم على سنن) — (وأنتم والساعة في قرن).
- ٦ - ثم يأتي بأداة التشبيه (كأن) ليتولد من دخولها على الساعة المكنى عنها، أكثر من معنى: (جاءت بأشراتها) — (وأزفت بإفراطها)، (وقفت بكم على سراطها).
- ثم يكرر (كأن) وضمير الساعة (قد أشرفت بزلزالها) — (وأناخت بكلاكها) — (وانصرفت الدنيا بأهلها) — (وأخرجتهم من حضنها).
- ٧ - ويأتي بالفعل ناقص (كان) ويسنده إلى الدنيا ليكون خبرها (كيوم مضى) — (شهر انقضى).

ويأتي بفعل ناقص آخر (صار) ليكون اسمها وخبرها (جديدها رثاً) — (سميئها غثاً)

٨ - ثم يصف الموقف بأنه (ضنك المقام) — (والأمور) (مشتبهة عظام) ويعطف عليها لفظة (نار) يصفها بأثها: (شديداً كلبها) — (عالاً لجبها) — (ساطع لهبها) — (متغيظ زفيرها) — (متأجج سعيرها) — (بعيد خمودها) — (ذاك وقودها) — (مخيف وعيدها).

والإمام (عليه السلام) يجانس بين المتفرعات في نهاياتها، أو صياغاتها، أو نوع اللفظ فيها وذلك بتفريع الجمل الفعلية من نظيرتها ' والاسمية من مثيلتها، وما فيها متعلقات من المصادر يتفرع منها ما في نظيراتها من المصادر، وما فيها نوع من المشتقات يتفرع منها ما فيه مشتقات، حتى ترى زخارف متجانسة و متناظرة ومتداخلة، الفرع يتمم الأصل، والأصل يفتح على الفروع فيمدّها بالمعاني المتشعبة وكل خطب الإمام ورسائله تنحى هذا المنحى من غير استثناء.

وفي خطبته الفاصعة تجد أنظمة متقنة التفرّع، مثيرة للإعجاب تبهر السامع بما ينتظمها من شعب معنوية تجري في قنوات لفظية متجانسة ومنها قوله (عليه السلام): حتى إذا انقادت له الجامحة منكم، واستحكمت الطماعية منه فيكم، فنجمت الحال من السرّ الخفيّ على الأمر الجليّ

• استقلّ سلطانها عليكم، ودلف بجنوده نحوكم، فأقحموكم ولجات الذلّ، وأطوؤوكم إثنان الجراحة طعناً في عيونكم، وجزاً في حلوكم، ودقاً لمناخركم، وقصداً لمقاتلكم، وسوقاً بخزائم القهر إلى النار المعدّة • فأصبح أعظم في دينكم جرحاً، وأورى في دنياكم قدحاً من الذين أصبحت لهم مناصبين، وعليهم متألبين، فاجعلوا عليه حدّكم وله جدّكم.

فانظر إلى جملة الشرط ب (إذا) و جملة جوابه تجد كلاً منهما مكونة من فعل معطوف عليه فعل آخر، (انقادت له ...) و(استحكمت ...) وأتبعهما بما نجم عن ذلك (فنجمت الحال ...)

فالأفعال ماضية اتصلت بتاء التأنيث و جاء الجواب متفرعاً كذلك إلى فروع مترابطة بالعطف بالواو (استقلّ سلطانه عليكم) (ودلف بجنوده نحوكم) وفيه الفعلان ماضيان أيضاً (استقل) و(دلف).

ونجم عن ذلك أمران أحدهما مرتبط بالآخر (فأقحموكم ...) و (أطوؤوكم ...) وهما فعلان بصيغة الماضي المسند إلى جماعة الغائبين • وتتفرع من الجملة الثانية متعلقات متناظرة وهي مصادر منصوبة تلحقها حروف جر ومجروراتها (طعناً في عيونكم) و (جزاً في حلوكم) و(دقاً لمناخركم) و (قصداً لمقاتلكم) و(سوقاً بخزائم القهر إلى النار المعدّة).

والمصادر المتفرعة كلها منصوبة و بوزن واحد هو (فَعْل).

وانظر إلى ما استنبطه الإمام (عليه السلام) من فعل ابليس وأعوانه في المخاطبين في قوله (عليه السلام) (فأصبح) مفرعاً في خبرها الذي جاء على وزن اسم التفضيل (أفعل) (أعظم في دينكم جرحاً) - (أورى في دنياكم قدحاً) وجاء في كل من الجملتين بعد اسم التفضيل (جار ومجرور) ومصدر على وزن (فعل).

وشقق الإمام عليه السلام خبر (أصبح) وما تعلق به من جار ومجرور في صلة الموصول (لهم مناصبين)، (و عليهم متألبيين) وفي كلّ منهما جاء الخبر على صيغة اسم الفاعل. ثم يأمرهم بأن يجعلوا (عليه حدّكم) و(له جدّكم) وفي كلّ منهما جاء مفعول جعل على وزن (فعل).

وما ذكرته هنا امثلة مختصرة وأرى أنّ هذه الظاهرة في بنى نهج البلاغة لا يستقصى تفرعاتها إلا بحث مستقل لما فيه من تنظيرات ورصد لأوجه هذه الإمتدادات، لأن الإمتداد هنا ليس مترادفات بل هي امتدادات لفظية ومعنوية وأسلوبية تتناظر في شكلها وتباين في دلالاتها، ويأخذ كل فرع خصوصية معنوية ينبغي استجلاؤها.

٢ - التكرار والتتابع: يكرر الإمام (عليه السلام) الألفاظ والعبارات والجمل لتأكيد ما يدعو إليه، ويُنفذ ما في نفسه إلى نفوس المخاطبين بقوة وحماس وحين يرى الناس ينأون عن القرآن ويبتعدون عنه يقول العمل العمل، ثم النهاية النهاية، والإستقامة الإستقامة، ثم الصبر الصبر، والورع الورع إنّ لكم نهاية فانتهاوا إلى نهايتكم، وإنّ لكم علماً فاهتدوا بعلمكم (...).^١ وكثيراً ما يكرر لفظ الجلالة كقوله (عليه السلام) فأنه الله في عاجل البغي^٢ وقوله وهو ينازع سكرات الموت والله الله في الأيتام، فلا تُغبوا أفواههم، ولا يضيعوا بحضرتكم، والله الله في جيرانكم فإنهم وصية نبيكم ما زال يوصي بهم حتى ظننا أنه سيورّتهم، والله الله في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم، والله الله في الصلاة فإنها عمود دينكم، والله الله في بيت ربكم لا تخلوه ما بقيتم فإنّه إن ترك لم تُناظروا. والله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم في سبيل الله.^٣ والتكرار هنا فن قولي يراد به الإغراء والحث على ما يعزى به يعتمد تأكيد اللفظ بتكراره. وقد يكرر الإمام للتخدير سواء بذكر لفظ التخدير أو بذكر المحذّر منه نحو قوله (عليه السلام) فامهدّ لقدمك، وقدم ليومك فالحدّر الحدّر أيها المستمع، والجّد الجّد أيها الغافل «ولا ينبئك مثل خبير»^٤.

وقد يفرغ الإمام ما في صدره من ألم يحدثه سلوك الناس ويؤكد ما هو صحيح بتكراره فالمؤمنون أحبّاءه وأقرب الناس إلى نفسه يشدد على ذكرهم بتكرار اللفظ الدال عليهم نحو قوله (عليه السلام) إنّ البهائم همّها بطونها، وإنّ السباع همّها العدوان على غيرها، وإنّ النساء همهنّ زينة الحياة الدنيا والفساد فيها • إنّ المؤمنين مستكينون، إنّ المؤمنين مشفقون، إنّ المؤمنين خائفون.^٥

فالمؤمنون هم مرتكز ما أراد الإمام تغليبه على كلّ أجناس الكائنات في السلوك وحسن الفعل لأنّ المؤمنين هم الذين يخضعون لأحكام الله وإرادته لا يجدون في نفوسهم علواً ولا شموخاً، وهم الذين يشفقون على أنفسهم من أدنى خطأ أو زلة أو ذنب، وهم الذين يخافون من أنفسهم أن تؤدي بهم إلى الهلكة والعصيان، ويخشون غضب الله فيعدّون كل عمل يقومون به في سبيل الله غير كاف لوفاء آلاء الله عليه.

وقد قال الإمام عنهم في مكان آخر فهم لأنفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون.^٦

١ . المصدر نفسه ٩٢/٢ .

٢ . المصدر نفسه ١٤٨/٢ .

٣ . المصدر نفسه ٧٧/٣ .

٤ . فاطر ١٤ .

٥ . المصدر نفسه ٤٢/٢ .

٦ . المصدر نفسه ٤٣/٢ .

٧ . المصدر نفسه ١٦٢/٢ .

وقد لا يكون التكرار عند الإمام (عليه السلام) لغرض التوكيد بل لتشقيق المعاني وتوليدها فيولد من آخر الجملة جملة أخرى وفي ذلك تبرز براعة الإمام (عليه السلام) في بناء نصوصه فبعد ما يفرغ ما في نفسه من ألم من سلوك من عصوه في حرب الجمل يقول سبيل أبلج المنهاج، أنور السراج، فبالإيمان يُستدلُّ على الصالحات، وبالصالحات يُستدلُّ على الإيمان، وبالإيمان يعمرُّ العلم، وبالعلم يُرهبُ الموت، وبالموت تُختمُ الدنيا، وبالدنيا تُحرزُ الآخرة^١.

ألا ترى هذه السلسلة من تتابع الألفاظ والجمل وارتباط بعضها ببعض، فالإيمان دليل على الأعمال الصالحات لأن ديدن المؤمن هو السعي للعمل الصالح وإذا سمعت بأعمال صالحات فثمة مؤمنون عملوها وتلك حلقة في الترابط، وبالإيمان نفسه يكون العلم عامراً في صدور المؤمنين ومتدفقاً من أفواههم وبالعلم يعرف الله وخلاتقه وتعرف الأشياء كلها والعالم هو أول العارفين بالحياة الدنيا والآخرة.

ويعرف المؤمنون ما للموت من رهبة في النفوس فيبادر المؤمن أجله بعمله كما أكد الإمام ذلك أكثر من مرة وتتصل سلسلة هذه التتابعات لأن الموت خاتمة الحياة الدنيا وبدء عالم البرزخ وعالم الآخرة فمن عرف ذلك عمل لدنياه كما يعمل لآخرته، لأنه يعلم أن الموت حتم لا بد منه وأن الحياة الدنيا طريق العبور إلى الآخرة، فيحرز المؤمن العالم بمصيره جزاء أعماله الصالحات فيكون ثوابه الجنة، أرايت مثل هذا التتابع المعنوي المترابط في سلسلة من التكرار المولد بعضه بعضاً.

ويوظف الإمام الاسم المكرر للبدء بأفكار يربطها بأفكار سابقة فبعد أن يقدم لما سيؤول إليه حال من عصوه وهجروا الدين في قوله (عليه السلام) ألا فتوقعوا ما يكون من إديار أموركم، وانقطاع وصلكم، واستعمال صغاركم جعل فيما تلا ذلك من كلام، اسم الإشارة (ذاك) المكرر حلقة وصل بين تلك المقدمة وما يليها من المقاطع في قوله:

١ - ذاك حيث تكون ضربة السيف على المؤمن أهون من الدرهم من جلّه.
٢ - ذاك حيث يكون المعطى أعظم أجراً من المعطى.
٣ - ذاك حيث تسكرون من غير شراب، بل من النعمة والنعيم، وتحلفون من غير اضطرار، وتكذبون من غير إحراج.

٤ - ذلك إذا عضكم البلاء كما يعضّ القنّب غارب البعير.
فهذا التكرار في اسم الإشارة (ذاك) ثم يعقبه ما يدل على الإشارة إلى البعيد (ذلك) هو إحكام لتتابع الجمل وربطها ربطاً محكماً كما أشرنا في المبحث السابق.

٣ - التنوع في أبنية التراكيب:

من يتأمل في تراكيب النصوص في نهج البلاغة يجد قدرة عظيمة على تنوع أنماط التركيب، والتغيير في أبنيتها بحسب المعاني المتغيرة، وتغيير الحال والمقام، وتغيير متطلبات التأثير النفسي في المخاطبين إذ ينتقل الإمام (عليه السلام) من معنى إلى آخر ومن صياغة إلى أخرى، ويجد المتأمل هذا التلوين في الأبنية في أنساق منتظمة ومترابطة تكون نظاماً مؤثراً، ونسيجاً متماسكاً، ولا شك في أنّ هذا التنوع في أبنية التراكيب يمنحها جمالاً وطلاوة وحلاوة تملك الألباب، وتسحر الأسماع فلو أنعمنا النظر في كلامه (عليه السلام) يردّ فيه على من حثه على معاقبة قوم ممن أجلب على عثمان فقال: يا أخوتاه إني لست أجهل ما تعلمون، ولكن كيف لي بقوة والقوم المجلبون على حدّ شوكتهم، يملكوننا ولا نملكهم.

وهاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبائكم، والتفت إليهم أعرابكم، وهم خالكم، يسومونكم ما شاؤوا. وهل ترون موضعاً لقدرة على شيء تُريدونه، إن هذا الأمر أمرٌ جاهليّة. وإن لهؤلاء القوم مائة. إن الناس من هذا الأمر - إذا حرّك - على أمور: فرقة ترى ما ترون، وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا ذاك فاصبروا حتى يهدأ الناس، وتقع القلوب مواقعها، وتؤخذ الحقوق

١ - المصدر نفسه ٤٨/٢.

مُسَمَّحَةً فَاهْدُوا عَنِي، وَاَنْظُرُوا مَاذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِي، وَلَا تَفْعَلُوا فَعْلَةً تَضَعُضِعُ قُوَّةً، وَتُسْقِطُ مُنَّةً، وَتُورِثُ وَهْنًا وَذَلَّةً. وَسَأَمْسُكُ الْأَمْرَ مَا اسْتَمْسَكَ. وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بَدَأَ فَأَخْرَجْتُ الدَّوَاءَ الْكَيُّ^١.
الكلام فيه حسرة وألم من ارتفاع صوت الباطل على السنة المجلبين، وفيهم الرعاع والجهلة والأعراب ومن لا يعرف من الدين إلا الاسم وهو يعلم أن ذلك في غير حق ولا عدل بل هي نكرة جاهلية وعادات استهجنها الإسلام ولكنه لا يملك القوة لردعها فيكبت حسرته منتظراً تغيير الحال فالأجواء النفسية مشحونة بالغضب والغضب ولكن المقام يقتضي غير ذلك.

وقد عبّر الإمام بجمل متنوّعة تحمل هذه المشاعر والأحاسيس ويمكن ملاحظة ذلك فيما يأتي:
١ - يبدأ الإمام (عليه السلام) كلامه ببناء جاء بصيغة الندبة ليعبّر عن ذلك الألم (يا أخوتاه) وهو استعمال ينبغي أن يستفاد منه في دراسة استعمالات النداء. وذلك بإلحاق هاء السكت وقلب ياء المتكلم إلى ألف.

٢ - ينتقل إلى توكيد حقيقة علم الإمام (عليه السلام) بما يجري في دولة المسلمين، وينفي عن نفسه الجهل، فقال في جملة مركبة تجمع بين التوكيد لمجمل الحدث ونفي خبر (إن) بجملة نافية، وذلك باستخدام الفعل الناقص الجامد (ليس) وجاء خبر الفعل الناقص جملة فعلية، مع ربطها بجملة الصلة الفعلية في قوله (عليه السلام) إني لست أجهل ما تعلمون وتوصيلها على النحو الآتي:

إنّ (التوكيدية) - ليس (النافية) - خبر ليس (جملة فعلية أجهل) - صلة الموصول جملة فعلية (تعلمون).

٣ - استدرك الإمام - (عليه السلام) بـ (لكنّ المخففة) وجعل الإستدراك نقطة انتقال لمعنى آخر هو الإستفهام الذي أراد به النفي (كيف لي بقوة) وهي تعني من أين أتيت بقوة أعاقبهم بها وبين السبب بجملة تبيين حال المجلبين والقوم المجلبون على حدّ شوكتهم يملكوننا ولانملكهم وهذه جملة اسمية تفيد الحال تكونت من مبتدأ خبره جملة فعلية مثبتة يملكوننا عطفت عليها جملة فعلية منفية ولا نملكهم فالتنوع واضح في هذه الأبنية: استدراك - استفهام - جملة حال اسمية متنوعة المكونات - خبر المبتدأ جملة فعلية مثبتة - عطفت عليها جملة فعلية منفية.

٤ - وفي الجملة الإشارية التي جاءت بصيغة الجملة الاسمية وها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم ورد خبر المبتدأ جملة فعلية فعلها ماض قد ثارت ... وعطفت عليها جملة نظيرة لها في البناء، أتبعهما بجملة حالية بصيغة الجملة الاسمية وهم خالكم يسومونكم ما شاؤوا وصلة الموصول جملة فعلية فعلها ماض.

٥- يعود الإمام (عليه السلام) إلى جملة الإستفهام التي يريد بها النفي وهي جملة فعلية تتضمن جملة فعلية مناظرة تصف النكرة (شيء).

٦- يذكر الإمام (عليه السلام) حقائق تستوجب التأكيد منها:

أ - جملة التوكيد إنّ هذا الأمر أمرٌ جاهليّة.
ب - وإنّ لهؤلاء القوم مادّة.

ج - إنّ الناس من هذا الأمر - إذا حرّك - على أمور.

ثم يوزّع الناس على ثلاث فرق يعبر عن كل منها بجملة اسمية فيها مبتدأ والخبر مستغنى عن ذكر تقديره (منهم) ويكون المبتدأ في كل منها موصوفاً بجملة فعلية متعلقها اسم موصول في الجملتين الأولى والثانية، صلة كلّ منهما جملة فعلية وردت في الأولى مثبتة، وفي الثانية منفية، وخلت الثالثة من المتعلق الموصول، واستبدل باسم إشارة عطف على آخر منفي، على النحو الآتي:

أ - فرقة ترى ما ترون.

ب - وفرقة ترى ما لا ترون.

ج - وفرقة لا ترى هذا ولا ذلك.

١ - المصدر نفسه ٢/٨٠-٨١.

٧ - انتقل الكلام إلى صيغة الأمر المسند إلى جماعة المخاطبين فاصبروا ووضع غاية لصبرهم عبر عنه بصيغ الإستقبال في أفعال مضارعة:
أ - حتى تهدأ الناس.

ب - وتقع القلوب مواقعها.

ج - وتؤخذ الحقوق مسمحة.

٨- يعود الكلام إلى صيغ الإنشاء الطلبي بصيغ الأمر والنهي، حيث ورد الأمر في جملتين فاهدؤوا عني، وانظروا ماذا يأتيكم به أمري أما النهي فجاء في قوله (عليه السلام) ولا تفعلوا (فعل).

٩- وصف (عليه السلام) لفظة (فعل) بثلاث جمل خبرية فعلية أفعالها مضارعة مسندة إلى ضمير الغائبة العائد على (فعل) وهي:

أ - تضعع قوة.

ب - تسقط مئة.

ج - تورث وهناً وذلة.

١٠ - ختم الكلام بجملتين الأولى دالة على الإستقبال وسأمسك الأمر ربطها بجملته ماضية تربطها أداة الوصل الحرفي (ما) وهو ما سمّاه النحويون بالحرف المصدرى الظرفي، ما استمسك والأخرى شرطية فعل الشرط مضارع منفي بـ (لم) والجواب جملة اسمية ربطها بجملته الشرط بالفاء وإذا لم أجد بداً فأخر الدواء الكي ومن هذا التحليل البنيوي لأبنية هذا النص ندرك القدرة العظيمة على تنويع الأبنية للتعبير عن المعاني المختلفة من نداء، واستفهام، ونفي، ونهي، وأمر، وتوكيد، واستدراك، وغيرها من المعاني في مسالك تعبيرية دقيقة متماسكة ومتشابهة سواء بالوصف أو الوصل أو العطف أو الربط في الشرط، وهذه المسالك التعبيرية تتنوع من مقطع إلى آخر وكأنها شبكة اتصالات إفهامية معبرة يصعب إيجاد منافذها إلا لمن خبر أساليب الإمام وحنكته التعبيرية التي تفوق الوصف.

وتظهر براعة الإمام (عليه السلام) في التنويع في الصياغة المحكمة للجمل الاسمية أو الجمل الاسمية وكأنك تتجول في روضة غناء تحفل بصفوف من الورد المتناسق الممتع في تنويع ألوان وروده.

وفي وصفه للمتقين تجد صفوفاً من الجمل الاسمية تتبعها صفوف من الجمل الفعلية وهكذا يقول الإمام (عليه السلام) في وصف المتقين فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معدبون. قلوبهم محزونة، وشروهم مأمونة. وأجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة^١.

ثم يعقبها بجمل فعلية صبروا أياماً قصيرة، أعقبهم راحة طويلة ثم تلتها جملة اسمية واحدة تجارة مربحة، ثم تلتها جملة فعلية يسرها لهم ربهم.

أرادتهم الدنيا فلم يريدوها.

وأسرهم فقدوا أنفسهم منها ثم تلتها جملة اسمية فجمل فعلية وهكذا تتابع الجمل متنوعة ومتباينة في بنيتها فهل كان هذا التباين مغايرة صوتية وبنوية؟ أقول لا بل جاءت المغايرة للتعبير عن معان متباينة فالجمل الاسمية عبرت عن ثبات الإيمان في نفوسهم واستقراره في ضمائرهم فهم والجنة كمن قد رآها، فهم فيها منعمون تلك حقيقة ثابتة وراسخة في نفوسهم، يدرك المتقون نعيم الجنة ويعرفون أوصافها فهم كمن رأى شيئاً بأم عينه، وكذلك يعرفون النار فترعد فرائصهم من مشهدها ويتصورون جحيمها وعذابها.

الحزن مستقر في نفوسهم لأنهم في خشية من سوء أعمالهم ومن زلات ألسنتهم وهفوات عيونهم لذا يستمر حزنهم في كل وقت، و(شروهم مأمونة) لأن المتقين يتقون الله في كل صغيرة وكبيرة، ويضعون مخافة الله نصب أعينهم لذا صاروا بعيدين عما يسيء للناس في كل وقت

١ - المصدر نفسه ١٦١/٢.

فلا طمع في نفوسهم ولا رغبة في ملذات تدفعهم إلى الإتيان بالشر، (وأجسادهم نحيفة) من سهر الليل قياماً وعوداً يعبدون الله، ويصومون النهار شكراً لله لذا صارت أجسامهم نحيفة لا يطمعون إلا بما يقيم أودهم وهكذا الجمل الاسميّة الأخرى كلها تدلّ على الدوام والإستمرار والإعتياد.

وانظر إلى الجمل الفعلية تجد أنّها عبّرت عن حالات التغيّر والحدوث (صبروا أيّاماً قصيرة) ذلك لأنّ المتقين ينظرون إلى الحياة الدنيا وكأنّها رحلة فيها المتاعب والأهوال التي تتكاثر في سني عمر المرء فصبروا على تلك المصائب وانتهت حياتهم فصار ماضياً انطوى بانطواء حياته لذا أشار إليه الإمام بصيغة الجملة الفعلية، ومثلها (أرادتهم الدنيا فلم يريدوها) أي أغوتهم بمغرياتهما من مال وجاه وملذات في شبابهم لكنهم انصرفوا عنها، وعبّرت عن ذلك بالفعل المضارع المنفي ب(لم) للدلالة على الماضي.

وعطف عليها جملة مماثلة (وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها) أي أسرتهم بتلك المغريات ولكنهم دفعوا فدية الأسر بالصوم والصلاة وإتيان الأعمال الصالحة وكل ذلك في الزمن الماضي المنقضي.

فالتنوع في بنية الجملة يعبر عن تنوع في المعاني، ويلاحظ في هذا النص وغيره أنّ الجمل تتباين في طولها وقصرها فلا يذكر الإمام (عليه السلام) أحياناً إلا الركنين الأساسيين المبتدأ والخبر أو الفعل والفاعل: نحو قوله (عليه السلام) (قلوبهم محزونة، وشروهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة) وتزيد الجملة أحياناً (أمّا الليل فصاقون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلون ترتيلاً) وقوله (عليه السلام) من الجملة الفعلية (بييت حذرا) و(يصبح فرحاً) ويقول أيضاً (إنّ استصعبت عليه نفسه فيما تكره لم يعطها سؤلها فيما تحب)^١.

وقد يأتي بمتعلقات مركبة لاترقى إلى بنية الجملة التامة بحسب رأي النحويين كقوله (عليه السلام) تراه (قريباً أمه، قليلاً زنه، خاشعاً قلبه، قانعة نفسه، منزوراً أكله، سهلاً أمره، حريزاً دينه، مينة شهوته، مكظوماً غيظه)^٢.

وكان المتوقع أن يجري على هذا النمط فيقول (مأمولاً خيرُهُ، ومأموناً شرُهُ) غير أنّ الإمام (عليه السلام) عدل إلى الجملة التامة الاسميّة فقال الخير منه مأمولٌ، والشر منه مأمون (٥٠) بغية التنويع في بنى الجمل.

٤- التطابق والتقابل في أبنية النصوص النفسية:

النسيج اللغوي في الخطاب النفسي ينتقي الأبنية المؤثرة في نفوس المخاطبين، ويجانس بين مكوناته، ويقابل بينها مشابهة ومغايرة، ويقارب بين الألفاظ لتكون أكثر تأثيراً، وأقرب إلى مشاعر المخاطب، ولقد امتازت نصوص نهج البلاغة عموماً ونصوصه النفسية خصوصاً بكثرة المقابلات الدلالية اللافتة للإنتباه، ففي كل خطبة عشرات الوجوه التقابلية المعبرة عن المعاني المتناظرة أو المتباينة.

ولإيضاح الوجوه التقابلية سأبدأ بذكر نص من نصوص نهج البلاغة يتحدث فيه عن التقوى وهي أحب شيء إلى نفسه، ثم استنبط منه الوجوه التقابلية، وبيان أثرها في توجيه الخطاب النفسي قال الإمام (عليه السلام) فإنّ تقوى الله دواء داء قلوبكم، وبصر عمى أفندتكم، وشفاء مرض أجسادكم، وصلاح فساد صدوركم، وطهور دنس أنفسكم، وجلاء عشا أبصاركم، وأمن فرع جأشكم، وضياء سواد ظلمتكم.

فاجعلوا طاعة الله شعاراً دون دناركم، ودخيلاً دون شعاركم، ولطيفاً بين أضلاعكم، وأميراً فوق أموركم، ومنهلاً لحين ورويدكم، وشفيعاً لدرك طلبتكم، وجنة ليوم فرعكم، ومصايح لبطون قبوركم، وسكناً لطول وحشتكم، ونفساً لكرب مواطنكم.

١ . المصدر نفسه ١٦١/٢-١٦٣.

٢ . المصدر نفسه ١٦٣/٢.

فإن طاعة الله حرزٌ من متالفٍ مكتنفةٍ، ومخاوفٍ متوقعةٍ، وأوارٍ نيرانٍ موقدةٍ، فمن أخذَ بالتقوى عزبت عنه الشدائدُ بعدَ دُنُوها، واحلوت له الأمور بعد مرارتها، وانفرجت عنه الأمواجُ بعد تراكمها، وأسهمت له الصعابُ بعد إنصائها، وهطلت عليه الكرامةُ بعد قحوطها، وتحذبت عليه الرحمةُ بعد نُفورها، وتفجرت عليه النعمُ بعدَ نضوبها، ووبلت عليه البركةُ بعدَ إرذاذها^١.
هذا المقطع من الخطبة يتألف من عدد قليل من الجمل التامة، و كثير من الجمل الناقصة المعنى وعدد من الأخبار المعطوفة أو من جواب شرط معطوف عليه بما يتم معناه، غير أن العجيب في هذا المقطع كثرة التقابل بالمغايرة بصنعة مثيرة للعجب فكل لفظة اقترنت بما يقابلها في الضد أو المخالفة، أو المشابهة ولو استعرضنا تلك الألفاظ لوجدنا أنها تستغرق المقطع كله، وهذا جدول بتلك الألفاظ والعلاقات التي تربط الواحدة بالأخرى:

التقوى : دواء - داء - (علاقة السببية والمسببية)

بصر - عمى - (علاقة الضد)

شفاء — مرض — (علاقة المخالفة)

صلاح — فساد — (علاقة الضد)

ظهور — دنس — (علاقة الضد)

جلاء — عشا — (علاقة المخالفة)

أمن — فزع — (علاقة الضد)

ضياء — سواد — (علاقة المخالفة)

ولاحظ العلاقة بين (المنهل) و(الورود) فالمنهل (موضع الورود).

و (الشفيع) واسطة لـ (درك) الطلبة.

و(الجنة) هي (الوقاية) من الفزع.

و(المصابيح) نور، وما في (بطون القبور) ظلام.

(العلاقة علاقة مخالفة).

و(السكن) هو كل ما سكنت إليه — والوحشة هي الخلو والإفقار وذهاب الناس عن المرء.

(العلاقة علاقة مخالفة) والنفس وهو ما يفرج عن الكرب.

(العلاقة علاقة سببية) والحرز: هو الموضع الحصين وهو ما يحمي من المتالف

والمخاوف. (العلاقة علاقة سببية) عزبت عنه الشدائد: أي بعدت — دنوها (علاقة الضد).

واحلوت من الحلاوة — مرارتها (علاقة الضد).

وانفرجت الأمواج خلاف تراكمت الأمواج. (العلاقة علاقة مخالفة)

وأسهمت له الصعاب صارت سهلة والسهولة خلاف الصعوبة وأسهمت خلاف أنصبت أي

أتعبت. (العلاقة علاقة مخالفة) والهطول خلاف القحط.

(العلاقة علاقة مخالفة) والحدب: الحنو والتقرب والحدب خلاف النفور. (العلاقة علاقة

مخالفة) وتفجرت عيون النعم خلاف نضوبها. (العلاقة علاقة مخالفة) والوابل: المطر الشديد

وهو خلاف المطر إذا كان رذاذاً.

(العلاقة علاقة مخالفة).

وإنما ذكرت هذه العلاقات في هذا المقطع من النص لأبين قدرة الإمام (عليه السلام) - على ربط

الألفاظ بما يخالفها أو يكون من سببها أو يرادفها وهي في غير هذا النص كثيرة وقد وجدنا أنه

يوردها في كل جملة في تنويع في الدلالة يشير إلى قابلية هائلة على وضع الألفاظ في مواضع

تمنحها الجمال وقوة التأثير في النفس وهذا الرصد للألفاظ والعلاقات التي تربط بعضها ببعض

هو ما يسمى في الدراسات اللسانية (المجالات أو الحقول الدلالية).

وانظر إلى تجانس وضع الألفاظ في موضع ما يقاربها أو يرادفها في انسجام وتقارب وتكامل

قال الإمام - (عليه السلام) بين قتيلٍ مطلول، وخائفٍ مستجير. يُختلن بعقد الأيمان، بغرور

١ - المصدر نفسه ١٦٣/٢.

الإيمان، فلا تكونوا أنصاب الفتن، وأعلام البدع، والزموا ما عُقدَ عليه حبلُ الجماعة، وبُنيت عليه أركان الطاعة.

واقدموا على الله مظلومين ولا تقدموا عليه ظالمين. واتقوا مدارج الشيطان، ومهابط العدوان. ولا تدخلوا بطونكم لعق الحرام فإنكم بعين من حرم عليكم المعصية، وسهّل لكم سبيل الطاعة

في النص ألفاظ تقاربت في البنية واختلفت في المعنى فلفظة (الإيمان) تقارب في بنيتها لفظة (الإيمان) ولكن اللفظتين مختلفتان في المعنى فلو تأملت في جملة الإمام (عليه السلام) (يُخْتَلون بعقد الإيمان، بغيرور الإيمان) لوجدت أنّ الإمام يحذر المؤمنين من أن يخدمهم المنافقون والمخادعون بأن يقسموا لهم بإيمان يعقدونها من غير أن يلتزموا بها، وأن يُخدعوا بما يُظهر لهم المنافقون من مظاهر الإيمان بالله في الظاهر وهم يكتُمون الكفر.

فالإيمان هي الأقسام التي يقسم بها على العهود والمواثيق، فهي جمع للفظة (يمين) في حين لفظة (إيمان) هي مصدر الفعل (أمن) فهي دالة على الأفراد.

ولو تأملنا في لفظتين أخريين هما (أنصاب) و(أعلام) لوجدنا أنّهما مختلفتان في البنية متقاربتان في المعنى فالأنصاب جمع النَّصْب، وهو ما نُصب ليُفصد، فهو كالعلامة، والأعلام جمع (علم) والعلم ما يوضع ليُعلم بوجود قرى فهما في المعنى واحد ولكن لفظيهما مختلفان.

وهذا واضح في كلام الإمام (عليه السلام) فلا تكونوا أنصاب الفتن، وأعلام البدع، وتأمل في لفظتين أخريين هما (مدارج) و(مهابط) والمدرجة هي اسم مكان بمعنى المذهب والمسلك.

و(المهبط) اسم مكان بمعنى النزول، وقد قارب الإمام (عليه السلام) بين الإستعمالين (واتقوا مدارج الشيطان، ومهابط العدوان) فهو يدعوهم إلى اتقاء مسالك الشيطان التي تُصلّ البشر لأنها تنزلهم منازل الكفر والعدوان فالقصد واحد والصيغة واحدة وإن اختلف اللفظان.

أمّا لفظتا (المعصية) و(الطاعة) فهما متباينتان لفظاً ومتضادتان في المعنى وقد جاء استعمالهما مطمئناً للنفوس مهدئاً لروعة القلوب فإنكم بعين من حرم عليكم المعصية، وسهّل لكم سبيل الطاعة، الله جلّ جلاله منع المعصية وجعلها محرمة، في حين مهّد للناس وسهّل طرق الطاعة، وشتان ما بين التحريم والتسهيل.

وفي نهاية المطاف أرى أنّ بنية الخطاب النفسي في نهج البلاغة قد سبكت من لدن بليغ عارف بأسرار العربية فأحسن سبكها، وأجاد صياغتها فنحت منحى علوياً خاصاً يمتلك كل أسباب الجود والرصانة في البناء اللغوي البليغ أخذ من القرآن الكريم كثيراً من سماته، وانتهل من الحديث النبوي الشرف بعض خصائصه، فجاء بناءً نسيج وحده.

مصادر البحث ومراجعته

- القرآن الكريم
- بلاغة الخطاب وعلم النفس: د صلاح فضل، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان ١٩٦٦ الطبعة الأولى.
- التبيين عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين: أبو البقاء العكبري (ت ٦١٦ هـ) تحقيق ودراسة الدكتور عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، دار الغرب الإسلامي بيروت - لبنان ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م الطبعة الأولى.
- الخطاب النفسي في القرآن الكريم: أ د كريم حسين ناصح الخالدي، دار صفاء للطباعة والنشر، عمّان الأردن ٢٠٠٧ م.
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي الهمداني المصري (ت ٧٦٩ هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، ١٩٦٢ م، الطبعة الثالثة عشرة.

- كتاب العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) تحقيق الدكتور مهدي المخزومي، الدكتور ابراهيم السامرائي، دار الرشيد للنشر ١٩٨٠ م وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية.
- لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب: محمد خطابي المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٦ م الطبعة الثانية، الدار البيضاء المغرب.
- مبادئ اللسانيات: د أحمد محمد قدور، دار الفكر ٢٠٠٨، دمشق.
- المختار من صحاح اللغة: محمد محيي الدين عبد الحميد، و محمد عبد اللطيف السبكي، مطبعة الإستقامة / الطبعة الرابعة / القاهرة.
- مغني اللبيب عن كتب الأعراب، : أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني، القاهرة.
- المقتضب: المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ) تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب / بيروت.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء: القرطاجني، حازم بن محمد بن حسن (ت ٦٨٤هـ) تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ن تونس ١٩٦٦ م.
- نحو النص، نقد النظرية ... وبناء أخرى: د عمر محمد أبو خرمة، عالم الكتب الحديث، اربد، الأردن، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
- نهج البلاغة: مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، شرح الشيخ محمد عبده، الناشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات / بيروت ودارمكتبة كرم / دمشق.

جدلية النص والتعيين في بناء مفهوم التسامح

كمنظومة قيمية عند الإمام علي (ع) في نهج البلاغة

الاستاذ الدكتور: عباس فاضل الدليمي (جامعة ديالى - كلية التربية الأساسية)

المقدمة

اختلف المسلمون منذ وفاة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى يومنا هذا في التأصيل الأيدلوجي لسلطة الحاكم الدنيوي هل هي نصية أم اجتهادية (التعيين من قبل الأمة) حتى أضحت جدلية قائمة ومستقرة كتب الكثيرون فيها وساق كل فريق أدلة نقلية وعقلية لتأييد ما يذهب إلى القول به.

وأنتج هذا الخلاف آلية صراع دموية رهيبة حاول بعض المؤرخين إخفاءها أو تقليل خسائرها لأنها تمثل الردة الحقيقية عن الإسلام والتي تتميز بأنها ردة تتصف بالاستمرارية وكأنها مصداقا لقوله تعالى «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين».

إن محاولة النظر إلى هذا الصراع من وجهة نظر ثانية تتصف بإشاعة مفهوم التسامح كجزء أساس في بناء منظومة قيمية قادرة على توحيد المسلمين وغير المسلمين وتجنبيهم الصراع السلطوي النازف من خلال النظر في خطب الإمام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة والتي تصلح لبناء تأصيل شرعي لبناء مفهوم الدولة الإسلامية المدنية.

سأتناول في هذا البحث مفهوم التسامح كقيمة عقائدية في خطب الإمام علي في نهج البلاغة وادع التأصيل الشرعي لبناء الدولة المدنية الإسلامية لبحث آخر انشاء الله.

يتطلب البحث في التأصيل الشرعي إلى استعراض النصوص الواردة في نهج البلاغة التي تخص موضوع الإمامة والخلافة وهو ما تناولناه في المطلب الأول من البحث، لأن حصر النصوص يسمح بتكوين الصورة الدلالية في بناء أسس التأصيل الفكري لوضوح أداة البناء والتي أعلاها النص، أما دلالة النص على المعنى المراد فسوف يعتمد الباحث على شرح النهج لابن أبي الحديد لأن الشرح الوافي فيه يكفي لإيضاح الدلالات المطلوبة للتأصيل الفكري لمفهوم التسامح.

وتناول الباحث في المطلب الثاني مفهوم المنظومة القيمية بعدها النموذج الأصح للخروج من الصراع الدموي لمفهوم السلطة والذي تجلى أثره في النكسة الإسلامية (استشهاد الحسين بن علي عليهما السلام) وجاء المبحث الثالث بعنوان نظرة تحليلية للموازنة بين خطب الإمام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة وبين مفهوم بناء المنظومة القيمية، وأردفنا البحث بخاتمة أثبتنا فيها ابرز النتائج والتوصيات وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول: النصوص في نهج البلاغة

قبل استعراض النصوص الواردة في نهج البلاغة يتعين علينا تعريف التسامح لغة واصطلاحا وكذلك استعراض بعض الآيات الدالة على معنى مفهوم التسامح لتكون المدخلا لأسلم في التوافق بين النصوص والمفهوم.

التسامح لغة «جاء في اللسان في مادة (سَمَحَ) السَّمَاحُ والسَّمَاحَةُ: الجُودُ. سَمَحَ سَمَاحَةً وَسُمُوحةً وَسَمَاحاً: جاد؛ ورجلٌ سَمَحٌ وامرأةٌ سَمَّحةٌ من رجال ونساء سِماحٍ وَسَمَحاءٍ فيهما، حكي الأخيرة الفارسي عن أحمد بن يحيى. ورجلٌ سَمِيحٌ وَسَمَّحٌ وَسَمَّاحٌ: سَمَّحٌ؛ ورجالٌ مَسامِيحٌ ونساء مَسامِيحٌ؛ الإسماع: لغة في السَّمَاح؛ يقال: سَمَّحَ وَأَسَمَّحَ إذا جاد وأعطى عن كَرَمٍ وَسَخاءٍ؛ وقيل: إنما يقال في السَّخاءِ سَمَّحٌ، وأما أَسَمَّحٌ فإنما يقال في المتابعة والانقياد؛ ويقال: أَسَمَّحتُ نَفْسَهُ إذا

انقادت، والصحيح الأول؛ وَسَمَحَ لي فلان أي أعطاني؛ وَسَمَحَ لي بذلك يَسْمَحُ سَمَاحَةً. والمُسَامَحَةُ: المُسَاهَلَةُ. وتَسَامَحُوا: تَسَاهَلُوا.

ويقال: أَسْمَحْتُ قُرْبِيئَهُ إذا ذَلَّ واستقام، وَسَمَحَتِ الناقَةُ إذا انقادت فأسرعت، وَأَسْمَحَتْ قُرُونَهُ وسامحت كذلك أي ذلت نفسه وتابعت. ويقال: فلانٌ سَمِيحٌ لَمِيحٌ وَسَمَحٌ لَمَحٌ. وتقول العرب: عليك بالحق فإن فيه لَمَسَمَحا أي مُتَسَعًا، كما قالوا: إن فيه لَمَنَدُوحةً» أما اصطلاحاً فمعناه «هو كلمه دارجة تستخدم للإشارة إلى الممارسات الجماعية كانت أم الفردية تقضي بنبذ التطرف أو ملاحقة كل من يعتقد أو يتصرف بطريقة مخالفة قد لا يوافق عليها المرء» وكذلك يدل على «قبول اختلاف الآخرين – سواء في الدين أم العرق أم السياسة – أو عدم منع الآخرين من أن يكونوا آخرين أو إكراههم على التخلي عن آخر بينهم» والآيات القرآنية التي يمكن إيرادها لتأكيد المعنى السابق أو تأصل لمفهوم التسامح على وفق الآتي :

يقول سبحانه وتعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

ويقول تعالى: (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) ويقول تعالى: (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) ويقول تعالى: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) ويقول تعالى: (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ) ويقول تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ)

ويقول تعالى: (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ) أما النصوص الواردة في نهج البلاغة فيما يخص مفهوم الخلافة فهي تؤكد على مفهوم النص وليس التعيين وعلى وفق الآتي :

النص الأول:

«أما والله لقد تَمَّصَهَا فلانٌ، وإنه ليَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّيَ مِنْهَا مَحَلَّ الْفُطْبِ مِنَ الرَّحَا، يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ، وَلَا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ، فَسَدَلْتُ دُونَهَا تَوْبًا، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحًا . وَطَفِقْتُ أُرْتَبِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَدَاءً ، أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخِيَةِ عَمِيَاءَ ، يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَيَشِيْبُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَكْذُحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ! فَرَأَيْتُ أَنْ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحَجَى ، فَصَبْرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قُدَى، وَفِي الْحَلْقِ شَجَا ، أَرَى ثُرَاتِي نَهْبًا»

النص الثاني:

«لَا يُقَاسُ بِأَلِ مُحَمَّدٍ (صَلَّى عَلَيْهِ وَآلِهِ) مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَحَدٌ، وَلَا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أبدأ. هُمُ أَسَاسُ الدِّينِ، وَعِمَادُ اليَقِينِ، إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الْعَالِي ، وَبِهِمْ يَلْحَقُ النَّالِي. وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الْوِلَايَةِ، وَفِيهِمُ الْوَصِيَّةُ وَالْوَرَاثَةُ، الْآنَ إِذْ رَجَعَ الْحَقُّ إِلَى أَهْلِهِ، وَنُقِلَ إِلَى نَقْلِهِ.»

النص الثالث :

«أَيُّهَا النَّاسُ، شَفُّوا أَمْوَاجَ الْفِتَنِ بِسُفْنِ النَّجَاةِ، وَعَرَّجُوا عَنِ طَرِيقِ الْمُنَافَرَةِ، وَضَعُوا تِيْجَانَ الْمُفَاخَرَةِ. أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بَجَنَاحٍ، أَوْ اسْتَسَلَّمَ فَأَرَا حَ . هَذَا مَاءٌ أَجَنٌّ ، وَلَقَمَةٌ يَعْصُ بِهَا أَكْلُهَا، وَمُجْتَنِّي الثَّمَرَةَ لِيَغْيِرَ وَقْتِ إِنْبَاعِهَا كَالزَّرَارِعِ بِغَيْرِ أَرْضِيهِ. خَلَقَهُ وَعَلِمَهُ فَإِنْ أَقْلُ يَقُولُوا: حَرَصَ عَلَى الْمَلِكِ، وَإِنْ أَسْكُتُ يَقُولُوا: جَزَعُ مِنَ الْمَوْتِ! هَيْهَاتَ بَعْدَ اللَّيْتِيَا وَالَّتِي ! وَاللَّهِ لَأَبْنُ أَبِي طَالِبٍ آتَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ، بَلْ انْدَمَجَتْ عَلَى مَكْتُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لِأَضْطَرَبْتُمْ اضْطِرَابَ الْأَرَشِيَّةِ فِي الطَّوِيِّ الْبَعِيدَةِ!».

النص الرابع :

قالوا: لما انتهت إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) أنباء السقيفة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، قال (عليه السلام): «ما قالت الانصار؟ قالوا: قالت: منا أمير ومنكم أمير، قال (عليه السلام): «فَهَلَّا احْتَجَجْتُمْ عَلَيْهِمْ: بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَصَّى بِأَنْ يُحْسِنَ إِلَى مُحْسِنِهِمْ، وَيُتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ؟ قالوا: وما في هذا من الحجة عليهم؟ فقال (عليه السلام): لو كانت الإمامة فيهم لم تكن الوصية بهم. ثم قال: (عليه السلام): فَمَاذَا قَالَتْ فَرِيشٌ؟ قالوا: احتجت بأنها شجرة الرسول صلى الله عليه وآله. فقال (عليه السلام): احْتَجُّوا بِالشَّجَرَةِ، وَأَضَاعُوا الثَّمَرَ.»

النص الخامس:

«لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ بِهَا مِنْ غَيْرِي، وَاللَّهُ لَأَسْلِمَنَّ مَا سَلِمْتَ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً، التَّمَّاسَا لِأَجْرِ ذَلِكَ وَقَضِيهِ، وَرَهْدًا فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرَفِهِ وَزُبْرَجِهِ»

النص السادس:

دَعُونِي وَالتَّمَسُّوا غَيْرِي؛ فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْرًا لَهُ وَجُوهٌ وَأَلْوَانٌ؛ لَا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَلَا تَنْتَبِئُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ، وَإِنَّ الْأَفَاقَ قَدْ أَغَامَتِ، وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ. وَاعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أَصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَثِبِ الْعَاتِبِ، وَإِنْ تَرَكَتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ؛ وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطُوعَكُمْ لِمَنْ وَلِيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيرًا، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيرًا!«.

النص السابع:

«أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنِّي فَفَأْتُ عَيْنِ الْفِتْنَةِ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِيَءَ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي بَعْدَ أَنْ مَاجَ غَيْبُهَا، وَاسْتَدَّتْ كَلْبُهَا.

فَاسْأَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ السَّاعَةِ، وَلَا عَنْ فِئَةٍ تَهْدِي مِائَةً وَتُضِلُّ مِائَةً إِلَّا نَبَأْتُكُمْ بِنَاقِعِهَا وَقَائِدِهَا وَسَائِقِهَا، وَمَنَاخِ رِكَابِهَا، وَمَحَطِّ رِحَالِهَا، وَمَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِهَا قَتْلًا، وَمَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتًا.

وَلَوْ قَدْ فَفَقَدْتُمُونِي وَتَزَلَّتْ كِرَائِيهِ الْأُمُورُ، وَحَوَازِبُ الْخُطُوبِ، لِاطَّرَقَ كَثِيرٌ مِنَ السَّائِلِينَ، وَفَشِلَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَسْئُولِينَ، وَذَلِكَ إِذَا قَلَصَتْ حَرْبُكُمْ، وَشَمَرَتْ عَنْ سَاقٍ، وَضَاقَتِ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ ضَيْقًا، تَسْتَطِيلُونَ أَيَّامَ الْبَلَاءِ عَلَيْكُمْ، حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ لِيَقِيَّةِ الْأَبْرَارِ مِنْكُمْ.

إِنَّ الْوَيْتَنَ إِذَا أَقْبَلَتْ شَبَّهَتْ، وَإِذَا أُدْبِرَتْ نَبَّهَتْ، يُكْرَنُ مَقْبَلَاتِ، وَيُعْرَفُنْ مُدْبِرَاتِ، يَحْمَنُ حَوْمَ الرِّيَاحِ، يُصَيِّنُ بِلْدًا وَيُخْطِنُ بِلْدًا.

أَلَا وَإِنَّ أَخُوفَ الْفِتَنِ عِنْدِي عَلَيْكُمْ فِتْنَةُ بَنِي أُمِّيَّةَ، فَإِنَّهَا فِتْنَةُ عَمِيَاءٍ مُظْلِمَةٍ: عَمَّتْ خُطْبُهَا، وَخَصَّتْ بَلِيَّتُهَا، وَأَصَابَ الْبَلَاءُ مَنْ أَبْصَرَ فِيهَا، وَأَخْطَأَ الْبَلَاءُ مَنْ عَمِيَ عَنْهَا.

وَإِيمُ اللَّهِ لَتَجِدَنَّ بَنِي أُمِّيَّةَ لَكُمْ أَرْبَابَ سُوءِ بَعْدِي، كَالنَّابِ الضَّرُّوسِ: تَعْدُمُ بِفِيهَا، وَتَخْبِطُ بِيَدِهَا، وَتَزْبُرُ بِنُورِ جِلْهَا، وَتَمْنَعُ دَرَّهَا، لَا يَزَالُونَ بِكُمْ حَتَّى لَا يَبْرُكُوا مِنْكُمْ إِلَّا نَافِعًا لَهُمْ، أَوْ غَيْرَ ضَائِرٍ بِهِمْ، وَلَا يَزَالُ بِلَاؤُهُمْ حَتَّى لَا يَكُونَ انْتِصَارُ أَحَدِكُمْ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلَ انْتِصَارِ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ، وَالصَّاحِبِ مِنْ مُسْتَصْحَبِهِ، تَرُدُّ عَلَيْكُمْ فِتْنَتُهُمْ شَوْهَاءَ مَخْشِيَّةَ، وَقِطْعًا جَاهِلِيَّةَ، لَيْسَ فِيهَا مَنَارٌ هُدَى، وَلَا عِلْمٌ يَرَى.

نَحْنُ أَهْلُ الْبَيْتِ مِنْهَا بِنَجَاةٍ، وَلَسْنَا فِيهَا بِدُعَاةٍ، ثُمَّ يُفَرِّجُهَا اللَّهُ عَنْكُمْ كَتَفْرِيجِ الْأَدِيمِ: بِمَنْ يَسُومُهُمْ خَسْفًا، وَيَسُومُهُمْ عُنْفًا، وَيَسْقِيهِمْ بِكَاسِ مُصْبَرَةٍ، لَا يُعْطِيهِمْ إِلَّا السِّيفَ، وَلَا يُحْلِسُهُمْ إِلَّا الْخَوْفَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَوَدُّ فَرِيشٌ - بِالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا - لَوْ يَرَوْنِي مَقَامًا وَاحِدًا، وَلَوْ قَدَّرَ جَزْرُ جَزُورٍ، لِأَقْبَلَ مِنْهُمْ مَا أَطْلَبُ الْيَوْمَ بَعْضُهُ فَلَا يُعْطُونِيهِ!»

النص الثامن:

وقد شاوره عمر بن الخطاب في الخروج إلى غزوة الروم «وَقَدْ تَوَكَّلَ اللَّهُ لِأَهْلِ هَذَا الدِّينِ بِإِعْزَازِ الْحَوَازَةِ، وَسِتْرِ الْعَوْرَةِ. وَالَّذِي نَصَرَهُمْ وَهُمْ قَلِيلٌ لَا يَنْتَصِرُونَ، وَمَنْعَهُمْ وَهُمْ قَلِيلٌ لَا يَمْتَنِعُونَ،

حَيِّ لَا يَمُوتُ. إِنَّكَ مَتَى تَسِرْ إِلَى هَذَا الْعَدُوِّ بِنَفْسِكَ، فَتَلْقَهُمْ بِشَخْصِكَ فَتُنْكَبَ، لَا تَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ كَانْفَهُ دُونَ أَقْصَى بِلَادِهِمْ. وَلَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، فَابْعَثْ إِلَيْهِمْ رَجُلًا مُحْرَبًا، وَاحْفَظْ مَعَهُ أَهْلَ الْبِلَاءِ وَالنَّصِيحَةِ، فَإِنَّ أَظْهَرَ اللَّهِ فِدَاكَ مَا نُحِبُّ، وَإِنْ تَكُنَ الْآخِرَى، كُنْتَ رَدًّا لِلنَّاسِ وَمَتَابَةً لِلْمُسْلِمِينَ».

النص التاسع:

«لَمْ تَكُنْ بِنِعْمَتِكَ إِيَّايَ فَلْتَهُ، وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِدًا. إِنِّي أُرِيدُكُمْ لِلَّهِ وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لِأَنْفُسِكُمْ. أَيُّهَا النَّاسُ، أَعْيُونِي عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَإِيْمُ اللَّهِ لِلنَّصِيفِ الْمَظْلُومِ، مِنْ ظَالِمِهِ، وَالْقَوْدِنِ الظَّالِمِ بِخِزَامَتِهِ حَتَّى أُرَدَّهُ مِنْهُلِ الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ كَارِهًا».

النص العاشر:

«لَنْ يُسْرَعَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلَى دَعْوَةِ حَقٍّ، وَصِلَةِ رَحِمٍ، وَعَائِدَةِ كَرَمٍ. فَاسْمَعُوا قَوْلِي، وَعَوَا مَنَاطِقِي، عَسَى أَنْ تَرَوْا هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هَذَا الْيَوْمِ تُنْتَضَى فِيهِ السُّيُوفُ، وَتُخَانَ فِيهِ الْعُهُودُ، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُكُمْ أَيْمَةً لِأَهْلِ الضَّلَالَةِ، وَسَبِيعةً لِأَهْلِ الْجَهَالَةِ».

النص الحادي عشر:

«وَنَاطِرُ قَلْبِ اللَّيْبِ بِهِ يُبْصِرُ أَمَدَهُ، وَيَعْرِفُ غَوْرَةَ وَنَجْدَهُ دَاعٍ دَعَا، وَرَاعٍ رَعَى، فَاسْتَجِيبُوا لِلدَّاعِي، وَاتَّبِعُوا الرَّاعِي».

قَدْ خَاصُوا بِحَارِ الْفِتَنِ، وَأَخَذُوا بِالْيَدِ دُونَ السُّنَنِ، وَأَرَزَّ الْمُؤْمِنُونَ، وَنَطَقَ الضَّالُّونَ الْمُكْذِبُونَ. نَحْنُ الشُّعَارُ وَالْأَصْحَابُ، وَالْخَزَنَةُ وَالْأَبْوَابُ، وَلَا تُؤْتَى النُّيُوتُ إِلَّا مِنْ أَبْوَابِهَا، فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقًا. مِنْهَا: فِيهِمْ كَرَائِمُ الْقُرْآنِ، وَهُمْ كُنُوزُ الرَّحْمَنِ، إِنْ نَطَفُوا صَدَقُوا، وَإِنْ صَمَتُوا لَمْ يُسَبِّقُوا.

فَلْيَصُدِّقْ رَأْيَ أَهْلِهِ، وَلْيُحْضِرْ عَقْلَهُ، وَلْيَكُنْ مِنْ أَتْنَاءِ الْآخِرَةِ، فَإِنَّهُ مِنْهَا قَدِمَ، وَإِلَيْهَا يَنْقَلِبُ. وَالنَّاطِرُ بِالْقَلْبِ، الْعَامِلُ بِالْبَصَرِ، يَكُونُ مُبْتَدَأَ عَمَلِهِ أَنْ يَعْلَمَ: أَعْمَلُهُ عَلَيْهِ أَمْ لَهُ! فَإِنْ كَانَ لَهُ مَضَى فِيهِ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ وَقَفَ عِنْدَهُ.

فَإِنَّ الْعَامِلَ بَغَيْرِ عِلْمٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ، فَلَا يَزِيدُهُ بَعْدَهُ عَنِ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ إِلَّا بُعْدًا مِنْ حَاجَتِهِ، وَالْعَامِلُ بِالْعِلْمِ كَالسَّائِرِ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ، فَلْيَنْظُرْ نَاطِرًا: أَسَائِرٌ هُوَ أَمْ رَاجِعٌ! وَاعْلَمْ أَنْ لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِنًا عَلَى مِثَالِهِ، فَمَا طَابَ ظَاهِرُهُ طَابَ بَاطِنُهُ.

وَمَا خَبِثَ ظَاهِرُهُ خَبِثَ بَاطِنُهُ، وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ الصَّادِقُ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ): «إِنَّ اللَّهَ يُجِيبُ الْعَبْدَ وَيُبْعِضُ عَمَلَهُ، وَيُجِيبُ الْعَمَلَ وَيُبْعِضُ بَدَنَهُ».

وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ عَمَلٍ نَبَاتٍ، وَكُلُّ نَبَاتٍ لَا غَنَى بِهِ عَنِ الْمَاءِ، وَالْمِيَاهُ مُخْتَلِفَةٌ، فَمَا طَابَ سَفِيهُهُ، طَابَ غَرَسُهُ وَحَلَّتْ ثَمَرَتُهُ، وَمَا خَبِثَ سَفِيهُهُ خَبِثَ غَرَسُهُ وَأَمَرَتْ ثَمَرَتُهُ».

النص الثاني عشر:

«يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ. إِنَّكَ لَقَلْبُ الْوَضِيِّينَ، تُرْسِلُ فِي غَيْرِ سَدَدٍ، وَلَكَ بَعْدُ ذِمَامَةُ الصُّهْرِ وَحَقُّ الْمَسْأَلَةِ، وَقَدْ اسْتَعْلَمْتَ فَاعْلَمْ: أَمَا الْإِسْتِبْدَادُ عَلَيْنَا بِهَذَا الْمَقَامِ وَنَحْنُ الْأَعْلُونَ نَسَبًا، وَالْأَشْدُونَ بِالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- نَوْطًا، فَإِنَّهَا كَانَتْ أَثْرَةً شَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَّتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ، وَالْحَكْمُ اللَّهُ، وَالْمَعْوَدُ إِلَيْهِ الْقِيَامَةُ».

وَدَغَ عَنكَ نَهْبًا صِيحٌ فِي حَجَرَاتِهِ وَلَكِنْ حَدِيثًا مَا حَدِيثُ الرَّوَاجِلِ وَهَلُمَّ الْخَطْبَ فِي ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَقَدْ أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بَعْدَ إِبْكَائِهِ، وَلَا غَرَوَ وَاللَّهِ، فَيَا لَهُ خَطْبًا يَسْتَفْرِعُ الْعَجَبَ، وَيُكْثِرُ الْأَوْدَ! حَاوِلِ الْقَوْمِ إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ مِنْ مِصْبَاحِهِ، وَسَدِّ فَوَارِهِ مِنْ يَبُوعِهِ، وَجَدَحُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ شِرْبًا وَبَيْنًا، فَإِنْ تَرْتَفَعْنَا وَعَنْهُمْ مَحَنُ الْبَلْوَى، أَحْمِلُهُمْ مِنَ الْحَقِّ عَلَى مَحْضِهِ، وَإِنْ تَكُنَ الْآخِرَى، (فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ»).

النص الثالث عشر:

«إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ كِتَابًا هَادِيًا بَيِّنَ فِيهِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ؛ فَخُذُوا نَهْجَ الْخَيْرِ تَهْتَدُوا، وَاصْدَفُوا عَنِ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدُوا. الْفَرَائِضَ الْفَرَائِضَ! أَدُوهَا إِلَى اللَّهِ تُؤَدِّكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ. إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَمَ حَرَامًا غَيْرَ مَجْهُولٍ، وَأَحَلَّ حَلَالًا غَيْرَ مَدْخُولٍ، وَفَضَّلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْحَرَمِ كُلِّهَا، وَشَدَّ بِالْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَاقِدِهَا، فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يَجِلُّ أَدَى الْمُسْلِمِ إِلَّا بِمَا يَجِبُ. بَادِرُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ وَخَاصَّةِ أَحَدِكُمْ وَهُوَ الْمَوْتُ، فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ، وَإِنَّ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ مِنْ خَلْفِكُمْ، تَخَفُّوا تَلْحَفُوا، فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوْلَائِكُمْ آخِرُكُمْ. اتَّقُوا اللَّهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ، فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ حَتَّى عَنِ الْبِقَاعِ وَالْبَهَائِمِ، أَطِيعُوا اللَّهَ وَلَا تَعْصُوهُ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ الْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ الشَّرَّ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ».

النص الرابع عشر:

«منها : وَقَالَ قَائِلٌ: إِنَّكَ يَا بَنَ أَبِي طَالِبٍ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ لِحَرِيصٌ. فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَاللَّهِ لِأَحْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا أَحْصُ وَأَقْرَبُ، وَإِنَّمَا طَلَبْتُ حَقًّا لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ، فَلَمَّا قَرَعْتُهُ بِالْحَجَّةِ فِي الْمَاءِ الْحَاضِرِينَ هَبَّ كَأَنَّهُ بُهْتُ لَا يَذْرِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ!».

النص الخامس عشر:

الاستنصار على قريش «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ! فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَصَعَرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتِي، وَأَجْمَعُوا عَلَى مَنَازِعَتِي أَمْرًا هُوَ لِي ثُمَّ قَالُوا: أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تَتْرُكَهُ».

النص السادس عشر:

«وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - أَنِّي لَمْ أُرِدَّ عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ. وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا الْأَبْطَالُ وَتَتَأَخَّرُ الْأَقْدَامُ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِهَا. وَلَقَدْ فُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي. وَلَقَدْ سَأَلْتُ نَفْسَهُ فِي كَفِّي، فَأَمَرَتْهَا عَلَى وَجْهِي. وَلَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - وَالْمَلَائِكَةُ أَعْوَانِي، فَضَجَّتِ الدَّارُ وَالْأَفْنِيَّةُ : مَلَأَ يَهْطُ، وَمَلَأَ يَعْرُجُ، وَمَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْئَةً مِنْهُمْ، يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرْبِهِ. فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيًّا وَمَيِّتًا؟ فَانْفُدُوا عَلَى بَصَائِرِكُمْ، وَالتَّصَدَّقُوا نِيَّاتِكُمْ فِي جِهَادِ عَدُوِّكُمْ فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي لَعَلَى جَادَةِ الْحَقِّ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى مَزَلَّةِ الْبَاطِلِ أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ!».

النص السابع عشر:

«هُم عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ، يُخْبِرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنِ عِلْمِهِمْ، ظَاهِرُهُمْ عَنِ بَاطِنِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنِ حِكْمِ مَنْطِقِهِمْ. لَا يُخَالِفُونَ الْحَقَّ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ هُمْ دَعَائِمُ الْإِسْلَامِ، وَوَلَايُحُ الْإِعْتِصَامِ، بِهِمْ عَادَ الْحَقُّ فِي نِصَابِهِ، وَأَنْزَاحَ الْبَاطِلِ عَنِ مَقَامِهِ، وَأَنْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنِ مَنِيَّتِهِ عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلًا وَعَايَةً وَرَعَايَةً، لَا عَقْلَ سَمَاعٍ وَرَوَايَةً. فَإِنَّ رِوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرِعَايَتُهُ قَلِيلٌ».

النص الثامن عشر:

«أَيْنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ دُونَنا كَذِبًا وَبَعِيًّا عَلَيْنَا أَنْ رَفَعْنَا اللَّهَ وَوَضَعَهُمْ وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ وَادْخَلْنَا وَأَخْرَجَهُمْ بِنَا يُسْتَعْتَبَى الْهُدَى وَيُسْتَجْلَى الْعَمَى إِنَّ الْأَيْمَةَ مِنْ قُرَيْشٍ غُرِسُوا فِي هَذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ لَا تَصْلُحُ عَلَى سِوَاهُمْ وَلَا تَصْلُحُ الْوَلَاةُ مِنْ غَيْرِهِمْ مِنْهَا أَنْرُوا عَاجِلًا وَأَخْرُوا آجِلًا وَتَرَكُوا صَافِيًا وَشَرَبُوا آجِنًا كَأَنِّي أَنْظِرُ إِلَى فَاسِقِهِمْ وَقَدْ صَحِبَ الْمُنْكَرَ فَأَلْفَهُ وَبَسَى بِهِ وَوَأَفَقَهُ حَتَّى شَابَتْ عَلَيْهِ مَقَارِفُهُ وَصَبَغَتْ بِهِ خَلَائِقُهُ ثُمَّ أَقْبَلَ مُزِيدًا كَالْتِّيَّارِ لَا يُبَالِي مَا غَرِقَ أَوْ كَوَقَعَ النَّارَ فِي الْهَشِيمِ لَا يَحْفَلُ مَا حَرِقَ أَيْنَ الْعُقُولِ الْمُسْتَضْبِحَةِ بِمِصَابِيحِ الْهُدَى وَالْأَبْصَارِ اللَّامِحَةِ إِلَى مَنَارِ النَّقْوَى أَيْنَ الْقُلُوبِ الَّتِي وَهَبَتْ لِلَّهِ وَعَوَقَدَتْ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ إِنْ دَحَمُوا

عَلَى الْحُطَامِ وَتَشَاخَوْا عَلَى الْحَرَامِ وَرَفِعَ لَهُمْ عِلْمُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَصَرَفُوا عَنِ الْجَنَّةِ وَجُوهَهُمْ
وَأَقْبَلُوا إِلَى النَّارِ بِأَعْمَالِهِمْ دَعَاهُمْ رَبُّهُمْ فَفَقَرُوا وَوَلَّوْا وَدَعَاَهُمُ الشَّيْطَانُ فَاسْتَجَابُوا وَأَقْبَلُوا».

المبحث الثاني : المنظومة القيمية

إن النظرية القيمية بالأساس تستند إلى المفهوم الأخلاقي ولدى التتبع لما كتبه المفكرون ومن
مختلف الاتجاهات نجد أن اتفاقاً قد حصل ومنذ الحرب العالمية الأولى إلى يومنا هذا مؤداه أن
بالإمكان «تأسيس نظام عالمي جديد لن يكون إلا استناداً إلى مبادئ أخلاقية عالمية وشاملة،
فالأزمة العالمية الراهنة لا ينبغي أن تدفعنا لمعاداة الحداثة، كما يفصل الأصوليون من سائر
الديانات، كما لا ينبغي أن تدفعنا لمحاولة التفوق على الحداثة وتجاوزها بل لابد من احتواء
عصر الحداثة استناداً إلى نظام أخلاقي يتسم بالموضوعية والشمولية في قيمه ومقاصده».

إن هذا النظام الأخلاقي سوف لن يكون إلا لتحقيق إنسانية الإنسان وإنسانية الإنسان لن تتحقق
إلا بوجود مفاهيم محددة يجب الاتفاق عليها.

إن النظر إلى كل المنظومات القيمية العالمية يؤشر اعتمادها بالأساس على المنظومة القيمية
الدينية ، إذ جاءت الأديان بمجموعة من القيم الأخلاقية منسجماً مع المرحلة الزمنية التي ظهر
فيها كل نبي أو رسول، ولكن مع ذلك كان هناك وحدة في المنظومة القيمية لكل الأديان، فكل
الديانات أكدت على مفاهيم ممدوحة كالصدق والأمانة والشجاعة والرجولة والفروسية والتسامح
ومساعدة الآخرين والإيثار والمحبة والحوار والدعوة إلى الله باللين والابتعاد عن العنف
..... الخ وكذلك ذمت مفاهيم مثل الكذب والفجور والنميمة والخيانة والجبن (الفرار من
الزحف) والتعصب والاعتداء على الآخرين.... الخ.

تشير هذه الوحدة القيمية للأديان إلى وحدة المصدر (الخالق سبحانه وتعالى) وفي الوقت نفسه
تشير إلى ابرز قيمة أخلاقية وهي إن الأنبياء جميعاً هم مبلغين عن الله والآيات القرآنية التي
وردت في القرآن الكريم تؤكد ذلك وهو المفهوم الأكثر حاجة في التأصيل له في وقتنا الحاضر
لأنه سيحل كثير من الإشكاليات في الثقافة الإسلامية المعاصرة واقصد فيها إشكالية العنف
واللاعنف في التعامل مع الآخرين.

إن المنظومة القيمية الدينية أسهمت في تكوين وعي اجتماعي أسهم بشكل كبير في تكوين
سلطات حكومية تمتلك الحق الشرعي في الحكم أو على العكس تتعرض للكوارث عند تغير
الوعي الاجتماعي الذي أنتجها، وهو شكل صراع قيمي عبر المراحل التاريخية المختلفة بين
المجتمعات العالمية، وقد امتد هذا الصراع القيمي إلى يومنا الحالى والذي اخذ محاور ثلاثة:

الأصولية التي تؤمن بوحادية الحقيقة وتعتقد بأنها تملكها.
والنسبية التي تتلبس جملة متنوعة من الصيغ؛ وتتكفر فكرة الحقيقة الواحدة، لكنها رغم ذلك
تحاول التعامل مع كل رؤية خاصة وكأنها صادقة.

الإيمان بوحادية الحقيقة من الأصولية؛ غير أنه يختلف عنها في أنه لا يعتقد بأننا استطعنا
امتلاكها -أي الحقيقة- بشكل نهائي وكامل في أي وقتٍ من الأوقات، وهذا الموقف لا يستخدم أي
إيمان اعتقادي جوهري ليؤسس سلوكه العملي والبحثي، بل مجرد نوع من الولاء لبعض
القواعد الإجرائية المعيّنة على حد تعبيره

الجديد في هذا التقسيم هو الاعتراف الضمني بوجود رؤيةٍ أخرى مختلفة عن السياق الغربي
وهي رؤية العالم الإسلامي الذي ما زال المسلمون يخضعون لقيمتها ويؤمنون بها.

إن اغلب الأصوليات الدينية والعرقية ذات نظرة أحادية في تعاملها مع الآخرين وما حصل من
جرائم الإبادة الجماعية في أوروبا وأمريكا أو الصين أو روسيا أو غيرها من البلدان في
الصراعات الكنسية أو العرقية وصولاً إلى منظوماتها القيمية المعاصرة إلا دليل على ما نقول
فمثلاً «الأوروبيين والأمريكيين، فهم الأكثر استغلالاً للطبيعة ومواردها ومخلوقاتهما. ألم يقل
الأديب الروسي الكبير ليو تولستوي إن الذين يعتبرون أنفسهم أكثر سكان الأرض تحضراً ورقياً

هم في واقع الأمر أبشع السفاحين والقتلة على مدى التاريخ. ويقصد بذلك طبعاً حكام الغرب بالدرجة الأولى وطبقاته المسيطرة...

أليست أيادي الرجل الأبيض الاستعماري ملطخة بدماء الملايين من الأبرياء والمساكين في هذا العالم على مدى القرون؟ لقد كانوا دائماً يصورون لنا الشر على أنه أسود اللون بينما هو في الحقيقة أبيض لا تخطئه عين. ألم يتوطد الاستيطان الأمريكي الأبيض فيما بات يُعرف لاحقاً بأمريكا الشمالية على جثث ملايين الهنود الحمر؟ ألم يقتل المهاجرون البيض أكثر من ستين مليوناً من سكان البلاد الأصليين كي يقيموا فيما بعد ما أصبح يُعرف بالولايات المتحدة الأمريكية...

لماذا لا يتعاطف العم سام معنا ضد المستوطنين الصهاينة في فلسطين؟ كيف له أن يساندنا وهو الذي أقام دولته الكبرى عن طريق الاستيطان والاحتلال والتهجير والإبادة وإزالة كل معالم أصحاب الأرض الأصليين واقتلاعهم من جذورهم.

هل يفعل الصهاينة في فلسطين شيئاً جديداً، أم أنهم يطبقون سياسة أسيادهم وعربائهم القديمة في أمريكا لقد كانت الحربان الأولى والثانية حربين غريبتين بامتياز.

كم من الملايين قتلوا في تلك الحربين؟ لقد خسر الروس لوحدهم أكثر من عشرين مليون روح، وحدث ولا حرج عن خسائر أنظمة ألمانيا وفرنسا وبريطانيا وبولندا والنمسا وغيرها.

ولا داعي للتذكير بمجازر الاستعمار البريطاني والفرنسي والهولندي والبرتغالي وغيره في آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية، فهي أكثر من الهم على القلب لم يدخل الرجل الاستعماري الأبيض منطقة إلا وعات فيها خراباً ودماراً وفساداً وليس حضارة كما يزعمون.

ولكن المشكلة التي لم يتخلص منها بعض من الدول المشار إليها سابقاً هو شكل التناقض في التعامل مع الآخر ففي الوقت الذي شيّدوا منظومتهم القيمية على أنقاض الإبادة الجماعية وتعاملوا تعاملًا بين شعبهم وأوطانهم على أساس المنظومة القيمية نجدهم يتعاملون مع الآخرين بنفس المنظومة الأصولية التي لا تقبل الحقيقة إلا بشكل أحادي.

هذه المتناقضة نلاحظها أيضاً في الأصولية الإسلامية بشكل واضح من خلال الصراع السياسي حول السلطة السياسية بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بدءاً من معركة الجمل وصفين وانتهاء إلى وقتنا الحالي وكان هذا الصراع يستند على الموقف من مفهوم النص والتعيين ولذلك وجدنا أغلب الكتاب الأوربيين لا يحسن الكتابة في هذا الموضوع لأنهم ينظرون إلى الإسلام من خلال نظرة أحادية فمثلاً الانثروبولوجي الشهير ارنست غلينر عندما يتحدث عن الأصولية ويوازنها بالإسلام يقول: «أن هناك ممانعة بين الإسلام والعلمنة، والاعتقاد أن العلمنة يمكن أن تنتشر في الإسلام هو اعتقاد زائف في أصله، وينبع سبب ذلك في رأيه من طبيعته الاعتيادية أولاً؛ ومن الغياب النظري لطبقة رجال الدين ثانياً، فليس هناك مكانة مقدسة متميزة في الإسلام تفضل المرشد الديني للطقوس الشعائرية عن جمهرة المؤمنين من عامة الناس، وهذا ما حجب الإسلام عن الإصلاح السياسي الذي حدث في المسيحية، ذلك أن لغة الصراع السياسي في المسيحية كانت قائمة على إلغاء أفضلية هذه الطبقة في حين أنها لم تؤد في الإسلام إلا إلى تكرار وتعاقب الأشخاص في نظام اجتماعي ثابت لا يتغير، وبذلك ثبت الإسلام في صيغته الحالية على نموذج الإصلاح النهائي الذي يمكن أن يصل إليه، فليس من الضروري إذاً مناقشة أسسه الفكرية والعقائدية بقدر ما يفرض علينا أخذه بعين الاعتبار سياسياً، وعدم إلغاءه، والاعتراف بحجمه التأثير الهائل الذي تحقق من خلال الوجه الطهراني والمساواتي الذي يطرحه الإسلام عن نفسه، ممّا جعله ديناً لكثير من المستبعبدين والمهمشين في العالم».

هذا الاستنتاج القيمي الخاطئ يقود إلى نتائج ضبابية لا تصلح لبناء منظومة قيمية تستوعب الجميع «فانتشار الوفرة الاقتصادية على عكس ما يرى علماء الاجتماع لن يؤدي إلى تآكل وإضعاف الالتزام الديني.

فحتى الثروة النفطية الهابطة من السماء، والتي لم تُكتسب بالجهد والعرق، لم تملك مثل هذا التأثير، يضاف إلى ذلك أن الإسلام قد أثبت قدرته على اختراق المبادئ التكنولوجية والتعليمية

والتنظيمية الغربية وضمتها وتوحيدها مع الإيمان الراسخ والتماهي في الإسلام، بكل ما يمتلكه من قوة وانتشار، ولا يبدو أن الدين العالمي الإسلامي مقرر عليه بالضرورة أن يتأكل أو يضعف بتأثير الأوضاع والظروف الحديثة، بل على العكس قد تقدم له هذه الظروف الدعم والمساندة» .

إن عالم مثل غيلنر عاش سنياً في المغرب ومصر سطر نظرتهم من خلال النظام المعرفي الإسلامي من وجهة نظره التي مؤداها «فالإسلام بالنسبة إليه يمتلك نظاماً معرفياً خاصاً به، وبنيتهم التكوينية قارة أو ثابتة لا تتغير مع تغير الأزمنة والدهور، على الأقل بالنسبة لمعتنقيها والمؤمنين بها، وأصواته الأصولية التي تخرج من هنا وهناك وتتكاثر يمنة ويسرة لا تمثل خروجاً عن نسقه المعرفي أو النظام النظري الخاص به، لا، بل إنها تمثل تعبيراً صريحاً عن مكنونه الفكري ومعتقده الإيماني، ولذا، يبدو مكتوباً على جميع المحاولات النظرية والعملية التي تسعى إلى موائمة الإسلام مع العصر، أو تلك التي تحاول أن تفترض انسجاماً بين الإسلام والقيم الكونية، يبدو مكتوباً على جميع هذه المحاولات الإخفاق والفشل الذريع، وعلى الغرب، بوصفه يمتلك نظاماً معرفياً مغايراً ومختلفاً، أن لا يضيع وقته في محاولات يائسة وبائسة لإدخال الإسلام في الحداثة، بل عليه أن يحاذر الأصولية سياسياً التي ستشهد صعوداً يخشى فيه» .

إن غيلنر كتب ذلك قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر بحدود العشر سنوات وقد حدد التباين القيمي إلى تباين النظام المعرفي بينما أثبتت الأحداث بعد الحادي عشر من سبتمبر على أهمية الابتعاد عن الأصولية وبناء معرفي قيمي مشترك أساسه الحوار والقبول بالآخر وان ما طرحه الرئيس الأمريكي بوش من برنامج مكافحة الإرهاب الذي أثبت فشله في أفغانستان والعراق وكذلك ما طرحته الجماعات الأصولية من تقسيم العالم إلى فسطاطين نتيجتهما توزيع الموت المجاني على كل البشر يرشدنا إلى ضرورة البناء القيمي الذي نادى به ليشكل العمود الفقري للمجتمع المدني دون الدخول في صراع شعاره الغلبة لي وإنما صراع الكل فيه منتصر .

إن نظرية الفعل ورد الفعل لا يمكن أن يشكل جواً سليماً لحوار من أجل بناء قيمي أخلاقي قادر على التعايش مع النظام العالمي الجديد وإنما استخراج المشتركات الإنسانية على وفق قول الإمام علي (عليه السلام) «وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبْعاً ضَارِباً تَعْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صَيْفَانِ: إِمَّا أَوْحُ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ» .

وهنا علينا التأسيس لثقافة قيمية مجتمعية وطنية وأخرى إقليمية وثالثة عالمية، أساس الأولى هو الموروث الوطني بكل أطيافه وأعرافه وانتماءاته والثاني أساسه المصالح الإقليمية المشتركة على وفق مفهوم الشراكة واحترام اختيارات الغير وشكل البناء الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الذي ينشده والثالث أساسه النظام العالمي الجديد مع الحفاظ على الخصوصية الوطنية والإقليمية دون الانتقاف مع قطب على قطب وإنما الأخذ بالحسبان أن دوام الحال من المحال .

إن هذه النظرة ليست غريبة أو جديدة وإنما مستوحاة من خلال الاطلاع على المستجدات الفلسفية لبناء منظومة قيمية عالمية نادي بها بعض من المفكرين «برز من بين هذه الدعوات بيان الستين مثقفاً ومفكراً أمريكياً الذي حمل عنوان من أجل ماذا نحارب؟ رسالة من أمريكا، وكان من أبرز الموقعين عليه فرانسيس فوكوياما وصاموئيل هنتغتون وصومائيل فريدمان وتوماس كوهلر ونيل جيلبرت وهارفي مانسفيلد وروبرت بوتمان وغيرهم، ورعاه بشكل رئيسي معهد القيم الأمريكية الذي يرأسه ديفيد بلانكنهورن، ويدافع بشكل رئيسي عن القيم الأمريكية في المجتمع والأسرة والدين والاقتصاد ويقود حواراً مهماً حول جميع هذه القضايا في الولايات المتحدة الأمريكية والعالم، يمكن القول إن هذا البيان قد أطلق حواراً من نوع فريد حول معنى ومفهوم "القيم الكونية" أو "اليونيفرسال" كما يجري تداولها الآن في الفلسفة الفرنسية والأمريكية بشكل كبير»، ولقد أوضح هذا البيان مبادئ قيمية عالمية يمكن أن تكون بداية لمنظومة قيمية عالمية وهي كالآتي :

- ١- إن البشر يولدون متساوين في الكرامة كما في الحقوق.
 - ٢- الشخصية الإنسانية هي العنصر الأساسي في المجتمع، وتكمن شرعية دور الحكم في حماية هذه الشخصية والمساعدة في تأمين فرص التفتح الإنساني لها.
 - ٣- يرغب البشر بطبيعتهم في البحث عن غاية الحياة ومقاصدها.
 - ٤- حرية الضمير والحرية الدينية من الحقوق التي لا يمكن انتهاكها في الشخصية الإنسانية.
 - ٥- القتل باسم الله مخالف للإيمان بالله، وهو يشكل خيانة عظيمة لكونية الإيمان الديني» .
- إن النقاط الواردة في أعلاه تشير بوضوح إلى فكرة عالمية القيم وأن بالإمكان الخروج بمنظومة قيمية إنسانية لأن المبادئ أعلاه لها قاسم مشترك عند كل الشعوب ولا يختلف مفكر عن آخر فيها بغض النظر عن الجنسية أو اللون أو العرق، وهذه المبادئ نفسها نجدتها في الفكر الإسلامي وعلى وفق الآتي :

- ١- الإنسان من حيث كينونته هو مخلوقٌ مكرم، فلا يجوز أن يُعتدى عليه مهما كان لونه أو عرقه أو دينه، قال تعالى (ولقد كرمنا بني آدم).
- ٢- تحريم قتل النفس الإنسانية بغير حق، بل قتل نفس واحدة ظلماً عند الله كقتل الناس جميعاً، وحماية نفس واحدة من القتل كإحياء الناس جميعاً.
- ٣- كما لا يجوز إكراه أحد في دينه، قال تعالى: (لا إكراه في الدين)، بل إن الإسلام نفسه لا يصح مع الإكراه.
- ٤- إقامة العلاقات الإنسانية على الأخلاق الكريمة أساسٌ في رسالة الإسلام.
- ٥- المسؤولية في الجنايات الخاصة فردية فلا أحد يؤخذ بجريرة غيره، كما أن العدل بين الناس حقٌّ لهم و الظلم محرّم فيما بينهم مهما كانت أديانهم أو ألوانهم أو قومياتهم، قال تعالى: (وإذا قتلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى).

٦- أما الحوار والدعوة فإيمًا يتمان بالحسنى، قال تعالى: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن).

يصطدم هذا الاتفاق على شكل المنظومة القيمية العالمية عند كل المفكرين الإنسانيين في إيجاد آلية لتطبيق هذه المنظومة القيمية، بمعنى كيف تطبق ذلك في أرض الواقع ؟ لأن هناك من يعتبر إن « هذه القيم ليست كونيةً البتة، بل هي تنحدر بالأخص من حضارة الغرب المسيحي وهم يحتاجون بأن الإقرار بكونية هذه القيم يُلغي خصوصية الثقافات الأخرى».

بينما يرى آخرون «نحن نختلف ذلك. نحن نعترف بالطابع الناجز لحضارتنا، لكننا نؤمن بأن الناس جميعهم خلقوا متساويين. كما نؤمن بالحرية الإنسانية، كإمكانية كونية ورغبة، وبأن هناك حقائق أخلاقية أساسية معينة يشترك كلُّ العالم في الإقرار بها لا غبار - بكل تأكيد- على أن الحرية الإنسانية والكرامة هي محط تبجيل من قبل الثقافات جميعها.

بيد أننا نعود للقول مجدداً أن فهم هذه الثقافات للحرية يختلف من ثقافةٍ إلى أخرى، وهو ما استدعى السعودية والصين، كمثالين فقط يعبران عن ثقافتين مختلفتين، للتحفظ على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة عام ١٩٤٨ بحجة أنه يناقض في عددٍ من بنوده القوانين المرعية في كلا البلدين التي تؤكد على الخصوصية الثقافية لكلٍّ منهما».

وكمثال على ذلك هو الاختلاف بين الأمريكيين والأوروبيين «فالأمريكيون على سبيل المثال مبالون لأن يروا لأية شرعية ديمقراطية وجوداً يفوق ما تتمتع به الدولة القومية من شرعية، أما الأوروبيون فعلى العكس تماماً، إذ يرون أن الشرعية الديمقراطية إنما تنبع من إرادة المجتمع الدولي، أكثر من كونها مستمدة من أية دولة قومية منفردة على الأرض، يعود الخلاف في الرؤى حول الشرعية الديمقراطية إلى الخلاف حول دور القانون الدولي وأولها انعدام توازن القوى بين الولايات المتحدة الأمريكية وأية دولة أخرى سواها. ممّا يدفع الدولة العظمى الوحيدة في العالم للانفلات من القيود وإلى تحرير قدرتها على الفعل.

كما أن الأوروبيين يعتبرون أن سلوكهم في مواجهة المشكلات أكثر براعةً وتنوعاً بحكم خبرتهم التاريخية، وخبرتهم تلك هي التي دفعتهم إلى اتخاذ موقفٍ سلمي من الحرب على العراق، ممّا

شكل تناقضاً جذرياً مع الثقافة الإستراتيجية التي سادت في أوروبا طوال أربعة قرون، وهكذا فقد تبادل الأمريكيون والأوروبيون مواقفهم ووجهات نظرهم، فالانكفاء الأمريكي عن التدخل أصبح جموحاً بعد قرن من الزمان، أما الحماسة الأوروبية للصراع والتدخل فقد قلّمت أظافرهما، وأصبحت تنشد السلام أكثر من رغبتها في الحرب.

غير أن أوروبا اليوم لا تستطيع أن تكبح جناح الولايات المتحدة في حروبها المتكررة، فهي لم تستطع مثلاً أن تمنعها عن خوض الحرب على العراق، لكنها تسعى وباستمرار إلى السيطرة على الوحش من خلال إيقاظ ضميره وتذكيره بماضيه.

لكن المحافظين الجدد الذين يسيطر معظمهم على المواقع الحساسة في الإدارة الأمريكية الحالية يؤكدون بما لا يقبل الشك، أن أمريكا وأوروبا قد أصبحتا منتميتين إلى عالمين مختلفين، أحدهما منحدر من الزهرة، وثنانيهما من المريخ، وأنهما، تالياً، لا يؤمنان بالقيم نفسها.

فمن الصحيح كما قلنا أكثر من مرة: إنَّ القيم الكونية تكاد تكون هي ذاتها، إلا أن طرق تطبيقها يزداد تبايناً حتى ضمن الثقافة نفسها، كما نجد في الثقافة الغربية، فالأوروبيون والأمريكيون يمتلكون قيماً أساسية مشتركة، لكنهم لا يشتركون في فهم واحد لهذه القيم المشتركة.

فعلى سبيل المثال كلا الطرفين يمدان الكرامة الإنسانية، إلا أن الأوروبيين يرون في عقوبة الإعدام انتهاكاً لها، لكن الأمريكيين يستمرون في تطبيقها، كما أن أوروبا تتحول أكثر فأكثر إلى تبني العلمانية، في حين يمثل الدين مكانة مهمة في الحياة السياسية والاجتماعية الأمريكية، والرئيس بوش نفسه يفاخر بتدينه العميق.

والولايات المتحدة تنزع نحو تفرد أكثر فأكثر وضوحاً في القرار والقيادة، معتبرة أن المعاهدات الدولية ليست سوى قيود غير مبررة تكبل السيادة الأمريكية، أما الأوروبيون فيدعون، اقتناعاً وتركيباً وحاجة، كما يقول باسكال بونيفاس، إلى تعددية قطبية؛ لأنهم مقتنعون بأن قواعد الحق تحمي الجميع ولا سيما الأضعف.

إن الأوروبيين وعلى رأسهم الفرنسيين ينتهون إلى القول بأن «العالم الغربي الذي طالما وقف صفاً واحداً إلى جانب الولايات المتحدة بمواجهة التهديد السوفيتي، يميل اليوم إلى التصدع. وما عاد مؤكداً أننا نشترك بالعزم نفسه في تبني القيم نفسها والتصور نفسه للتهديدات والمخاطر وأساليب المواجهة. لم يعد من المجدي التغافل عن هذا الواقع متدرعين بوازع التضامن الغربي، والأحرى بنا، إذا أردنا أن نقيم علاقة عبر أطلسية جديدة، أن نقيمها على أسس جديدة وواضحة، وليس على أسس مفترضة مسبقاً وبعيدة كل البعد عن الواقع».

أما الأمريكيون فيعلنونها صراحة: «علينا أن نكف عن التظاهر بأن للأمريكيين والأوروبيين رؤية مشتركة عن العالم، لا بل عن الادعاء بأنهم يعيشون على الكوكب نفسه».

فإذا كان التصدع قد أصاب الثقافة الغربية ذات الأصل التاريخي المشترك، والهوية المسيحية اليهودية الواحدة، والتحالف السياسي الاقتصادي الاستراتيجي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، فإنه من الأسهل علينا القول إذًا: إنَّ الثقافة الكونية التي يبشر بها البعض، أكثر بعداً ونأياً ممَّا نتخيله.

فالصراع على القيم في جوهره هو اختلاف على المصالح والرؤى وامتلاك الأفضلية، وأن التفوق الحضاري الذي يشمل تفوقاً فكرياً وتكنولوجياً واقتصادياً وسياسياً وعسكرياً سيفرض حتماً تفوقاً قيمياً لصالحه، هذا ما يعلمنا إياه التاريخ، والواقع المعاصر لا يبدو أنه يشدُّ عن تاريخه، لا بل إنَّه يصدقه ويؤكد.

بيد أن ذلك يجب أن لا يعني بأي حال من الأحوال انغلاق الثقافات وراء متراس خصوصياتها، إذ في ذلك انتحارٌ لها، وإنَّما انفتاحٌ على الآخر المختلف بما فيه إغناء لها وبها، وسعيٌ حثيث باتجاه الإنساني المشترك منعاً ومحاصرةً للأصوليات التي لا تهدد "القيم الكونية" فحسب، وإنَّما تتجر خصوصيات الثقافة ذاتها وتدمرها».

المبحث الثالث: دراسة موازنة

إن أول ما يطالعنا في المنظومة القيمية هي استنادها إلى المفهوم الأخلاقي، هذا المفهوم الذي نجده واضحا تمام الوضوح فيما أثبتنا من نصوص من نهج البلاغة في المبحث الأول وأول مصادقيه لأجل ترسيخ ثقافة أو مفهوم التسامح هو الصبر على الأذى وترك الحق الشخصي من أجل سلامة المجموع، يقول الإمام علي في ذلك (لَقَدْ عَلِمْتُ أَنِّي أَحَقُّ بِهَا مِنْ غَيْرِي، وَوَاللَّهِ لَأَسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً، التِمَاساً لِأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ، وَرُحْمَةً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرَفِهِ وَزَبْرَجِهِ).

فهنا إشارة واضحة المعنى على أن الخلافة هي حق للإمام، ولأمانة لأحد عليه في ذلك إلا الله ورسوله، وانه (عليه السلام) ينظر إلى أمور المسلمين بالدرجة الأساس، ولا أهمية تعلق عليها حتى أمر الخلافة نفسه، وهو ما أكده الإمام في أكثر من نص بالإضافة إلى سيرته العملية مع الخلفاء.

ذكرنا في تعريف التسامح اصطلاحاً مانصه (هو كلمة دارجة تستخدم للإشارة إلى الممارسات الجماعية كانت أم الفردية تقضي بنبذ التطرف أو ملاحقة كل من يعتقد أو يتصرف بطريقة مخالفة قد لا يوافق عليها المرء) هنا ليس فقط كان الإمام لا يوافق على الذي جرى في أمر الخلافة في السقيفة وإنما كان يراها خروجاً عن الالتزام بطاعة الله والرسول بدليل قوله في النص الرابع من المطلب الأول (قالوا: لما انتهت إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) أنباء السقيفة بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، قال (عليه السلام) : ما قالت الأنصار؟ قالوا: قالت: منا أمير ومنكم أمير، قال (عليه السلام): فَهَلَا احْتَجَجْتُمْ عَلَيَّ؟ بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَّى بِأَنْ يُحْسَنَ إِلَى مُحْسِنِهِمْ، وَيُتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ؟ قالوا: وما في هذا من الحجّة عليهم؟ فقال (عليه السلام): لَوْ كَانَتِ الْإِمَامَةُ فِيهِمْ لَمْ تَكُنِ الْوَصِيَّةَ بِهِمْ. ثم قال: (عليه السلام): فَمَاذَا قَالَتْ فُرَيْشٌ؟ قالوا: احتجت بأنها شجرة الرسول صلى الله عليه وآله، فقال (عليه السلام): احْتَجُّوا بِالشَّجَرَةِ، وَأَضَاعُوا الثَّمَرَ).

وقد أكد الإمام ذلك بأوضح صورة في الخطبة الششقية وهي النص الأول في المطلب الأول بقوله :

(أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا فَلَانٌ، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّيَ مِنْهَا مَحَلَّ الْفُطْبِ مِنَ الرَّحَاءِ، يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ، وَلَا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ، فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً وَطَفَقْتُ أُرْتَبِي بَيْنَ أَنْ أُصُولَ بِيَدِ جَدَاءٍ، أَوْ أُصْبِرَ عَلَى طَخِيَةِ عَمِيَاءٍ، يَهْرُمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَيَشِيْبُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ! فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحَجَى، فَصَبْرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَدَى، وَفِي الْحَلْقِ شَجَاءٌ، أَرَى ثُرَاتِي نَهْباً) - الخطبة طويلة نقلنا منها موضع الحاجة.

تحدث الشيخ مغنية عن المعنى الوارد في الخطبة الششقية قائلاً: «ما هذا؟ هل هو حرقة وتلهف على الخلافة، كما يترأى للأغبياء؟ حاشا لمن قال: إن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها.

وكلنا يعلم أن علياً يفعل ما يقول، ولا يقول ما لا يفعل، وإذن فما هو السر لهذه الشكوى وهذا التظلم؟ السر واضح، لا إبهام فيه..

انه نفس الشيء الذي أشعر به أنا و أنت، وكل إنسان حين ينتهب ثوبه عن بدنه ناهب أو غاصب، نقول هذا مع الإيمان والعلم بأن علياً أحرص على مصالح الناس من الناس أنفسهم، وانه لا يرضى و يغضب إلا لله وحده.. هذا، إلى أنها نفثة مصدر هدرت ثم قررت، كما قال (عليه السلام): (ينحدر عني السيل، ولا يرقى إلي الطير).

وكفى شاهدا قول الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم): أنا مدينة العلم، وعلي بابها : (فسدلت دونها ثوباً، وطويت عنها كشحاً).

وعطف الجملة الثانية على الأولى للتوضيح والتفسير، والمعنى انه (عليه السلام) أعرض عن الخلافة، ولم يلتفت إليها، ثم بيّن السبب الموجب لذلك بقوله: (وطفقت أرتابي بين ان أصول بيد جداء، أو أصبر على طخية عمياء).

بعد أن بويغ أبو بكر بالخلافة فكر الإمام (عليه السلام): ماذا يصنع ؟ وانتهى به التفكير إلى انه واقف بين محذورين : إما أن يصر وينهض مطالباً بحقه من غير جدوى إلا إراقة الدماء لعدم الناصر، وتفتيت وحدة الإسلام و المسلمين، وإما أن يسكت ويصبر حرصاً على هيبة الدين وصالحه، فاختر الصبر».

وهذا الكلام واضح المعنى في أن الإمام (عليه السلام) لم يعلن الحرب من أجل الخلافة، يقول محمد جواد مغنية «و لكنه لم يسكت عن حقه، بل استمر في الدعوة إلى نفسه هو ومن شايعه كسلمان وأبي زر، وعمار، والمقداد» هذه الدعوى السلمية فيها إشارة واضحة لما نريد التأسيس له من مفهوم التسامح وكذلك فيها إشارة واضحة لما يسمى اليوم بالاحتجاج السلمي والمطالبة المتحضرة بالحقوق.

سئل الإمام علي عن أمر الخلافة كما أورده الشيخ مغنية قائلاً: «قال لي قائل: انك على هذا الأمر يا ابن أبي طالب لحريص، فقلت له: بل أنتم والله أحرص وأبعد، وأنا أخص وأقرب، وإنما طلبت حقي، وتحولون بيني وبينه..»

فلما قرعته بالحجة في الملأ الحاضرين هب كأنه بهت لا يدري ما يجيبني به» وعلق الشيخ مغنية عن هذا المعنى قائلاً «وهذا الكلام يدل بظاهره انه كان مع أحد الخلفاء الذين تقدموا على الإمام، وانه (عليه السلام) قد طالبه، واحتج عليه فهزمه وأفحمه، فهل بعد هذا يقال : ان علياً أقر بخلافة الخلفاء، ورضي بما كان فيه ؟ أجل، لا يشك مسلم انه قد تعاون معهم ومع غيرهم على إقامة العدل والصالح العام».

وقد يثار تساؤل هنا، هل هذا الفهم لحق علي في الخلافة هو منحصر في فهم الأمامية وتصوراتهم أم يوجد ذكر له عند بقية المذاهب الإسلامية ؟

وللإجابة عن هذا التساؤل اذكر النص الآتي الذي ذكره الإمام البخاري (ت ٢٥٦ هـ) وهو اصح صحيح بعد القران كما ورد عن أئمة المذاهب الإسلامية جميعاً باستثناء الامامية، ذكر الامام البخاري قول علي (عليه السلام) : «يا أبا بكر، فإنه لم يمنعنا أن نباعك إنكاراً لفضيلتك ولا نفاسة عليك، ولكننا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً، فاستبددت به علينا، ثم ذكر قرابته من رسول الله، فلم يزل يذكر حتى بكى أبو بكر، فقال أبو بكر : لقرابة رسول الله أحب إلي من قرابتي».

نقل ابن قتيبة في الإمامة والساسة مقترحاً قدم لعلي (عليه السلام) مفاده «فسلم لأبي بكر هذا الأمر، فإنك إن تعش ويطل بك بقاء، فأنت لهذا الأمر خليك وبه حقيق، في فضلك ودينك، وعلمك وفهمك، وسابقتك ونسبك وصهرك».

فكان جواب علي (عليه السلام) «فقال علي كرم الله وجهه : الله يا معشر المهاجرين، لا تخرجوا سلطان محمد في العرب عن داره وقعر بيته، إلى دوركم وقعور بيوتكم، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه، فو الله يا معشر المهاجرين، لنحن أحق الناس به».

لأننا أهل البيت، ونحن أحق بهذا الأمر منكم ما كان فينا القارئ لكتاب الله، الفقيه في دين الله، العالم بسنن رسول الله، المضطلع بأمر الرعية، المدافع عنهم الأمور السيئة، القاسم بينهم بالسوية، والله إنه لفينا، فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله، فتزدادوا من الحق بعداً».

فأجاب بشير بن سعد الأنصاري معلقاً «لو كان هذا الكلام سمعته الأنصار منك يا علي قبل بيعتها لأبي بكر، ما اختلف عليك اثنان».

أردت التأكيد على هذا المعنى وهو انعدام فرصة إعادة أمر الخلافة إلى علي (عليه السلام) فلم يتبقى له إلا الصبر وانتظار ماتؤول إليه الأيام المقبلة بل قل السنين الطويلة وهو عين ما حصل كما ورد في عبارات الإمام (عليه السلام) في مختلف المواقف، وهنا نسال هل هناك تلازم ما بين الصبر والإيمان ؟ لنترك الشيخ مغنية يجيبنا عن ذلك «إن الصبر من شؤون العقل لا من شؤون الدين، لأنه نتيجة لعملية الموازنة بين ضررين لا مفر من أحدهما، يجريها الإنسان بنفسه..»

وليس من شك إن العاقل يختار ما هو أخف وطأة، وأقل ضرراً، والدين بدوره يقر العقل على حكمه و اختياره، أما الأحاديث التي تقول : لا إيمان بلا صبر، فمعناها في واقع الأمر أنه لا إيمان بلا عقل سليم يختار الأجدى والأصلح، ومن البدهة إن الله سبحانه يجزي العباد بعقولهم تماماً كما يجزيهم بإيمانه».

وأنا اذهب إلى القول به أيضاً لأننا لو تتبعنا العبارة الأخرى من الخطبة الشقشقية لوجدنا عبارة (أرى تراثي نهبا) المقصود بالتراث هنا الخلافة «كنى عن الخلافة بالتراث لأنها حق له تماماً كالميراث الذي هو حق خاص بالقرب دون البعيد، وليس المراد إن الخلافة إرث كالميراث».

ونحن هنا نحتاج إلى تحرير جدلية النص والتعيين لنرى أن موقف الإمام علي منها يجب أن يكون الموقف المتبنى من قبل المسلمين جميعاً وهو الاعتراف إن الخلافة حق لعلي سكت هو عنها حفاظاً على المسلمين وهو الموقف الذي يدخلنا إلى بناء المنظومة القيمية الإسلامية تمهيداً للحكم المدني الإسلامي لحين عصر الظهور.

إن أمر الخلاف في الخلافة جرى بين الشيعة والسنة «قال الشيعة: إن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نص على علي بالخلافة، وقال السنة: بل تركها شورى بين المسلمين وسألهم الشيعة: هل نص النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على إن الخلافة شورى بين المسلمين؟ ثم قال الشيعة: وإذا ادعى مدع إن وجوب الشورى من الواضحات، ولا يحتاج إلى نص وبيان هذا، إلى أن الله سبحانه قد نص عليها بقوله : وأمرهم شورى بينهم إذا ادعى هذا مدع أجبناه: لو كان الأمر واضحاً لما وقع الخلاف، ولو كان المراد بهذه الآية الخلافة لكان أبو بكر في نصه على عمر مخالفاً لله ورسوله، ولا قائل من السنة بذلك، وإذن فلا دلالة في الآية على الخلافة».

ولدى البحث عن الأدلة نجد الآتي :

«يتلخص دليل الشيعة على وجود النص بأن الله سبحانه قد أكمل الدين لأمة محمد (ص) كما جاء في الآية ٣ من سورة المائدة: اليوم أكملت لكم دينكم ولا يكمل الدين من غير النص على الخلافة، لأنها من أهم الأمور، وعليها قوام الحياة، والدين الذي بين حكم العصفور المذبوح بلا تسمية لا بهمل ما عليه مدار الحياة بشتى جهاتها.. هذا، بالإضافة إلى أنها خلافة عن الله ورسوله، ثم قال الشيعة : إن النص موجود وثابت بالفعل في حق علي بن أبي طالب بالذات، وقد تتبع الشيعة كتب السنة وآثارهم، وجمعوا مفردات النص بالخلافة على الإمام، جمعوا من كتب السنة في الحديث والتاريخ والتفسير بل والأدب أيضاً، بل تخصص كثيرون من علماء الشيعة في هذا الموضوع بالذات، وألفوا فيه المجلدات، منها «الشافعي» للمرتضى، «ودلائل الصدق» للعلامة والمظفر، وآخرها فيما أعلم فضائل الخمسة من الصحاح الستة في ثلاثة مجلدات كبار للفيروز آبادي.

ويمتاز هذا السفر عن غيره بالحياد التام، لأنه مجرد عرض و نقل عن كتب السنة بلا فلسفات و تعليقات، بل يدع المؤلف الفارسي و شأنه، يستخلص بعقله و فهمه ما شاء و أراد، ولا يحاول إقناعه بشيء.

ولكي يبرهن المؤلف على تثبته في النقل ذكر اسم الكتاب والجزء ورقم الصفحة، كما ذكر في آخر الجزء الثالث تاريخ الطبع ومكانه، واسم المطبعة أو المكتبة التي نشرته».

ولدى تتبعي لتحريير محل الخلاف وجدت أيضاً إشارات واضحة عند الماوردي (ت ٤٥٠هـ) في كتابه الأحكام السلطانية لموضوع الإمامة والخلافة، فقد ذكر الماوردي مانصه «ن الله جلت قدرته ندب لأمة زعيماً خلف به النبوة، وحاط به الملة، وفوض إليه السياسة، ليصدر التدبير عن دين مشروع وتجتمع الكلمة على رأي متبوع فكانت الإمامة أصلاً عليه استقرت قواعد الملة وانتظمت به مصالح الأمة».

تابع الماوردي في توصيف الإمامة قائلاً «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب الإتياع» ولم يدعي احد من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أن النبي قد أوصى له بالخلافة باستثناء علي (عليه السلام) ولو حصل لنقل

إلينا في الحوارات التي دارت في سقيفة بني ساعدة والتي نقلها المؤرخون بل كان الفصل هو الاحتجاج بالقرابة القبلية التي أكدها المؤرخون والتي أجاب عنها الإمام علي (عليه السلام) عندما استفسر عن إجابة المهاجرين لأنصار (ثم قال: (عليه السلام): فَمَاذَا قَالَتْ قُرَيْشٌ؟ قالوا: احتجت بأنها شجرة الرسول صلى الله عليه وآله. فقال (عليه السلام): احْتَجُّوا بِالشَّجَرَةِ، وَأَصَاعُوا الثَّمَرَ).

استعرض الماوردي موضوع الخلافة والإمامة من خلال الآراء التي تناولت وجوبها، هل وجبت بالعقل أم الشرع؟ ولم يرجح رأياً منها.

ثم تحدث عن وجوبها على الكفاية وتناول الطرق التي من خلالها تم اختيار الخلفاء بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ثم تناول الشروط المعتبرة في أهل الإمامة، بعدها تناول كيفية انعقاد الإمامة وحصرها بطريقتين الأولى منها اختيار أهل العقد والحل والثاني بعهد الإمام من قبل.

استوقفني كباحث الفصل الخاص الذي ذكره الماوردي تحت عنوان (إذا عهد الإمام بالخلافة إلى من يصح العهد إليه) فقد ذكر الماوردي مانصه «وإذا عهد الإمام بالخلافة إلى من يصح العهد إليه على الشروط المعتبرة فيه، كان العهد موقوفاً على قبول المولى.

وختلف في زمان قبوله فقبل بعد موت المولى في الوقت الذي يصح فيه نظر المولى وقيل وهو الأصح انه ما بين عهد المولى وموته لتنتقل عنه الامامة إلى المولى مستقرة بالقبول المتقدم» . إن هذا الرأي مطابق تماماً لشكل الإمامة بالتوارث الذي حصل في دولة بني أمية وبني العباس. إذ ظهر مفهوم ولاية العهد منذ زمن يزيد ابن معاوية بن أبي سفيان إلى سقوط بغداد ٦٥٦ هـ.

وجدت ارتباكاً شديداً عند الماوردي عندما روى حكاية ابن إسحاق عن الزهري عن ابن عباس قائلاً «وجدت عمر ذات يوم مكروبا فقال مالدري ما صنع في هذا الأمر؟ أقوم فيه واقعد؟ فقلت هل لك في علي؟ فقال انه لها لأهل ولكنه رجل فيه دعابة واني لأراه لو تولى أمركم لحملكم على طريقة من الحق تعرفونها، قال قلت فأين أنت من عثمان؟ فقال لو فعلت لحمل ابن أبي معيط على رقاب الناس ثم لم تلتفت إليه العرب حتى تضرب عنقه، والله لو فعلت لفعل ولو فعلوا، قال فقلت فطلحة؟ قال انه لزهو ماكان الله ليوليه أمر امة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) مع مايعلم من زهوه، قال فقلت والزبير؟ قال انه لبطل ولكنه يسال عن الصاع والمد بالبيع بالسوق اذالك يلي أمور المسلمين؟ قال فقلت سعد بن أبي وقاص؟ قال ليس هناك انه لصاحب مقتب يقاتل عليه، فأما ولي أمر فلا، قال فقلت فعبد الرحمن ابن عوف؟ قال نعم الرجل ذكرته لكنه ضعيف» .

هذا الارتباك منشؤه من وجهة نظري التناقض في وصف من سبق من الصحابة بنص الحديث الذي رواه في أعلاه وبين تسميتهم ليكون احدهم خليفة، فقد واصل الماوردي سرد قضية الشورى بين الصحابة الستة قائلاً «هذا الأمر إلى علي وبإزائه الزبير، والى عثمان وبإزائه عبد الرحمن بن عوف والى طلحة وبإزائه سعد بن أبي وقاص» وهنا من حقنا أن نسأل إذا كان الصحابة الست فيهم عيوب لا يصلحون فيها للإمامة أو الخلافة فكيف حصر الأمر بهم فقط؟ ولماذا لا يترك الأمر إلى المسلمين في اختيار الخليفة أو على الأقل أهل الحل والعقد؟.

إن الأغرب من ذلك هو ما نقله الماوردي أيضا في هذا الشأن بقوله «حكي ابن إسحاق إن عمر رضي الله عنه لما دخل منزله مجروحا سمع هذه فقال ماشان الناس؟ قال يريدون الدخول عليك فأذن لهم، فقالوا اعهد يا امير المؤمنين استخلف علينا عثمان : فقال كيف يحب المال والجنة فخرجوا من عنده ثم سمع لهم هدة فقال ماشان الناس؟ قالوا يريدون الدخول عليك فاذن لهم فقالوا استخلف علينا علي بن أبي طالب. قال إذن يحملكم على طريقة هي الحق، قال عبد الله بن عمر فاتكات عليه عند ذلك وقلت يا امير المؤمنين وما يملك منه؟ فقال بابني أتحملها حيا وميتا» وهي إشارة واضحة إلى إن علي بن أبي طالب لو تولى الأمر لقاد الناس إلى طريق الحق. وبالجمع بين الروايتين يكون أصلح الستة للخلافة هو علي بن أبي طالب فلم يفعل المسلمون ذلك؟

إن تدقيق النظر فيما تقدم يؤكد بلا ريب إن علي بن أبي طالب ظلم هنا للمرة الثالثة على التوالي في عدم تولي الخلافة التي يعتقدها حقا له ويعتقدونها الآخرون أيضا حقا له ومع ذلك فهو يقبل بالأمر حفاظا على إنشاء المنظومة القيمية التسامح حفاظا على الدين وحفظ الإسلام.

يقول الإمام علي (عليه السلام) (أَيْنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ دُونَنا كَذِبًا وَبَعِيًّا عَلَيْنَا أَنْ رَفَعْنَا اللَّهَ وَوَضَعَهُمْ وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ وَأَدْخَلْنَا وَأَخْرَجَهُمْ بِنَا يُسْتَعْطَى الْهُدَى وَيُسْتَجَلَى الْعَمَى إِنَّ الْأَيْمَةَ مِنْ فُرَيْشٍ غُرِسُوا فِي هَذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ لَا تَصْلُحُ عَلَى سِوَاهُمْ وَلَا تَصْلُحُ الْوَلَاةُ مِنْ غَيْرِهِمْ مِنْهَا آثَرُوا عَاجِلًا وَأَخْرَجُوا آجِلًا وَتَرَكُوا صَافِيًا وَشَرَبُوا آجِنًا).

وقوله أيضا (وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - أَنِّي لَمْ أُرِدَّ عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا الْأَبْطَالُ وَتَتَأَخَّرُ الْأَفْدَامُ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِهَا وَلَقَدْ فُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي وَلَقَدْ سَأَلْتُ نَفْسَهُ فِي كَفِّي، فَأَمَرَتْهُا عَلَى وَجْهِي وَلَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - وَالْمَلَانِكَةُ أَعْوَانِي، فَضَجَّتِ الدَّارُ وَالْأَفْنِيَّةُ مَلَا يَهْطُ، وَمَلَا يَعْرُجُ، وَمَا فَارَقْتُ سَمْعِي هَيْئَةً مِنْهُمْ، يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرْبِهِ. فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيًّا وَمَيِّتًا؟ فَانْفُدُوا عَلَيَّ بِصَائِرِكُمْ، وَلْتَصَدِّقْ نِيَّاتِكُمْ فِي جِهَادِ عَدُوِّكُمْ فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي لَعَلَى جَادَةِ الْحَقِّ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى مَزَكَةِ الْبَاطِلِ أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَعْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ).

هذا هو علي بن أبي طالب (عليه السلام) بسماحته وتسامحه والذي لم يذكر لنا التاريخ ولو لمرة واحدة على كثرة أعدائه انه سلب حقا من احد على الرغم من إن أعدائه سلبوه كل صفاته وأسبغوها على غيره إلا أنهم لم يمتلكوا الشجاعة على سلبه لقب الإمامة في إشارة واضحة منهم للتاريخ - لم يقصدوها - إن الإمامة منصب الهي أودعه النبي صلى الله عليه وآله في علي (عليه السلام) وان علي أودعه في اثنا عشر إماما من صلبه مصداقا لحديث النبي صلى الله عليه وآله الذي روته جميع الكتب الحديثية للمذاهب الإسلامية بالفظ تؤدي المعنى نفسه «لا يزال الدين قائما حتى تقوم الساعة أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش».

الخاتمة

النتائج:

اساس المنظومة القيمية اساسا اخلاقيا ثم اصبح دينيا وفي عصر الحداثة صار مدنيا. مرت كل المجتمعات المتطورة في منظومتها القيمية بمرحلة العنف العرقي او الديني وصولا الى المجتمع القيمي.

ان التسامح هو المفهوم الذي استندت اليه المجتمعات المتحضرة في بناء المنظومة القيمية. ابرز نتيجة لتطبيق مفهوم التسامح هو القبول بالآخر.

ان الامام علي (عليه السلام) من خلال خطبه في نهج البلاغة ضرب اروع الامثلة في بناء منظومة قيمية مدنية من خلال قبوله بالآخر على الرغم من اعلانه بان النص يشير الى انه المستحق الاول لمنصب خلافة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

التوصيات:

اهمية العمل على انشاء منظومة قيمية في المجتمعات الاسلامية تستند الى الفكر الاسلامي من خلال التطبيقات العملية لمفهوم التسامح عند الامام علي (عليه السلام).

اهمية اشاعة مفهوم القبول بالآخر والتداول السلمي للسلطة عبر النظر الى تجربة الامام علي (عليه السلام) من خلال نصوص نهج البلاغة في بناء المنظومة القيمية المدنية الاسلامية التي تكون اساسا لمفهوم الحكم المدني المعاصر.

تسليط الضوء على المفاهيم القيمية الاخرى المكملة لمفهوم التسامح عند الامام علي (عليه السلام) والائمة من ولده (عليهم السلام) استكمالا لمشروع الدولة المدنية الاسلامية في مقابل الدولة المدنية الحديثة التي انشأها المجتمع الغربي بكل انواعه وكذلك الاسيوية منها.

دلالة العدول في نصوص نهج البلاغة

الأستاذ الدكتور المدرس المساعد: صباح عباس عنوز

حوراء مهدي الكوفي (جامعة الكوفة – كلية الفقه)

المبحث الأول: العدول في المنظور النقدي

تفقد محاولة تتبع مضامين كلمة العدول في المعجمات اللغوية إلى الاستنتاج الذي مفاده، أنّ المادة اللغوية التي تتألف منها هذه اللفظة وهي (العين، والبال، واللام)، وما يمكن أن يشتق منها محصورة بين الدلالة الأولى والمتمثلة بالأنصاف وإحقاق الحقوق في الحكم، وهذا ما ورد في معجمات اللغة، إذ أن «العدل: كالعادلة والعدول والمعدلة والمعدلة وعدل يعدل فهو عادلٌ من عدول بلفظ الواحد».

وبين الدلالة الثانية والتي تهمننا في موضوع بحثنا وهي كما جاء عن ابن منظور (ت: ٧١١هـ): «عدل عن الشيء يعدلُ عدلاً وعدولاً حاد وعن الطريق جار، وعدل إليه عدولاً رجوع وماله معدلٌ ولا معدول أي مصرف، ومنه قول أبي خراش:

على أنني، إذا ذكرتُ فراقهم
تضييق عليّ الأرض ذات المعادل

أراد ذات السعة يعدل فيهم يميناً وشمالاً من سعتها، والعدل أن تعدل الشيء عن وجهه، تقول: عدلتُ فلاناً عن طريقه وعدلتُ الدابة إلى موضع كذا» .

ويبدو لنا من مفهوم ابن منظور (ت: ٧١١هـ) للعدول الدلالة الفنية له، واللغوية حينما نتحسس به عناصر الجمال، ونستطيع الوصول إلى مفهوم العدول في الاصطلاح، من خلال تعريفنا له بعده إجراء يلحق الصياغة لأغراض فنية عامة، استحسناها العربي اللغوي بذوقه المرهف وحسّه الراقى، وهذه الظاهرة واسعة الاستعمال في الدرس اللغوي، إذ نجد العربي في كلامه يعدل عن استعمال صيغة إلى صيغة أخرى لأغراض مختلفة، فقد يعدل عن استعمال صيغة اسم الفاعل إلى الصفة المشبهة، أو من صيغة الفعل إلى الاسم، أو بالعكس، وكل ذلك باستقراء كلام العرب، فضلاً عن ذلك ليبين أنه قادرٌ على الخروج عن القواعد الأصلية والتي انبنى عليها النظام اللغوي () واستحسان قواعد وجد فيها ضالته، يقول ابن جني (ت: ٣٩٢هـ) في ذلك: «إن العربي إذا قويت فصاحته تصرف وارتجل ما لم يسبق إليه أحد من قبل ()».

لذا يتضح لنا مما تقدم أن مفهوم العدول في اللغة هو الميل من صياغة إلى صياغة أخرى أكثر وضوحاً وإيحائية في الكلام، بحيث حينما يسمعها المتلقي يكون لها جرساً وقوة في التعبير. والعدول كأية ظاهرة تناولتها ألسنة البلاغيين واللغويين والنحويين والنقاد، وسنقتصر في بحثنا هذا على مفهومه في المنظور النقدي مقتصرين على بعض العلماء من القدامى والمحدثين.

وعند القدامى ذكره أبو الفتح ابن جني (ت: ٣٩٢هـ) في أثناء حديثه عن المجاز بقوله: «وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاث وهي الاتساع والتوكيد والتشبيه، فإن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة ()»، ومفاد كلام ابن جني أن المجاز إذا كثر لحق بالحقيقة، وقد استخلص علماء اللغة على أثر ذلك نتيجة في غاية البراعة هي أن المجاز قد يصير ويعدل إلى الحقيقة، وبخلاف ذلك قد تصير الحقيقة مجازاً، وذلك متى قل استعمال الحقيقة صارت مجازاً عرفاً، والمجاز متى ما كثر استعماله صار حقيقياً عرفاً () .

ويبدو لنا أنّ الحقيقة لا تصير مجازاً؛ لأنها الأصل الذي نعرف فيه اللفظ الحقيقي، فهي الأساس الذي يبنى عليه المجاز، فلا شأن للاستعمال في عدّها مجازاً.

فالإتساع والتوكيد والتشبيه كلها أدوات نعدل عن الحقيقة إلى المجاز ويظهر ذلك جلياً في أمثلة كثيرة استشهد بها العربي بذوقه المرهف عن ذلك، ويمكن أن نلاحظ الصياغة الواردة في القرآن

الكريم نحو قوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)¹.

فموضع الشاهد هنا (مثنى، وثلاث، ورباع) ألفاظ معدولة عن أصولها ب (اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة)، فهذه ألفاظ دالة على تكرر العدد، فتكون هذه الأسماء غير منصرفة؛ لأنها معدولة عن أصولها وأيضاً أنها معدولة عن تكررهما.

فاستحسن العدل في هذه الآية المباركة فيما يبدو لنا لعدم تكرار اللفظ مرتين فيفقد السياق جمالية بعيدة عما أريد من النص، إلا أن هذا ليس بعيداً عن السر الجمالي الذي تميز به القرآن العظيم، وإيضاحه لمعانيه بكل سهولة ويسر والله أعلم.

وقد ورد مصطلح العدول عند عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) للدلالة على ترك طريقة في الصياغة إلى أخرى، أحسن وأفضل في التعبير عن المعنى، وذلك في سياق حديثه عن الإظهار، والإضمار، والدواعي الفنية لكليهما، وقد أصاب الجرجاني الحقيقة في فهمه هذا للعدول؛ لأن العدول انحراف في دلالة اللفظ الأصلية تؤثر في إعطاء دلالة أخرى من انتظام اللفظ بالسياق، إذ تظهر الصورة والدلالة معنى وهو ما يسمى اليوم بـ(شعرية القول)، وهذا الانحراف في الدلالة يسهم في تحريك التأمل والتفكير ويمنح العقل مجالاً للتدبر في إحياء الدلالة. وقد قال الجرجاني تعليقاً على قول الخريمي:

ولو شئت أن أبكي دماً لبكيته عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

فقياس كلام الشاعر لو كان على حدّ قوله تعالى (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى)²، لو شئت لبكيت دماً، ولكنه ترك تلك الطريقة وعدل إلى هذه؛ لأنها أليق وأحسن في هذا الكلام ولاسيما، وسبب حسنه أنه كأنه بدعٌ عجيب أن يشاء الإنسان أن يبكي دماً فلما كان الأولى به أن يصرح بذكره ليقرره في نفس السامع ويؤنسه به، لجأ إلى ذلك.

وبعض من القدامى لم يسم (العدول) وإنما سمّوه باسم آخر، وكان مقصدهم في ذلك (ظاهرة العدول)؛ لأن بعض المفاهيم تتشابه فيما بينها، ثم ما تلبث وتأخذ بالتداول بين الناس وتصير لغة قائمة برأسها، وسنوضح ذلك بشكل مختصر فيما بعد.

لذا سُمي (العدول) بمسميات أخرى ومنها (اللحن، والغلط، والتجاوز، والمخالفة)، فهذه المصطلحات قريبة جداً من مفهوم العدول، فما تعريف (اللحن) إلا هو الميل في الكلام إلى نحو من الأنحاء، والذي تتغير صياغة اللفظة أو الجملة من حال إلى آخر، فقد ذهب جار الله محمود الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) في تفسيره الآية المباركة (وَلَوْ شَاءَ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَكَلَّعْنَا عَنْهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ)³ إلى ما يُعمق الإحساس بالدلالة الفنية لهذا المصطلح بقوله: «(في لحن القول) يعني: في نحوه وأسلوبه، وقيل: اللحن أن تلحن بكلامك أي تميل إلى نحو من الأنحاء ليفطن له صاحبك كالتعريض والتورية، قال: ولقد لحنتم لكم لكيما تفقهوا، واللحن يعرفه ذو الألباب، وقيل: للمخطئ لحن؛ لأنه يعدل بالكلام عن الصواب»، فلو أنعمنا النظر في كلام الزمخشري نلاحظه أشار إلى أن اللحن هو العدول في الكلام الصواب إلى الخطأ، ويبدو لنا أن سبب العدول في الكلام هو استحسان العربي لذلك ليبدل على براعته وقدرته في رفع النمطية عن الجملة، ولتكسب إيحائية أخرى تكون أليق في الكلام من الأولى.

ولاشك أن ورود هذا المصطلح بالمعنى الأسلوبية عند الزمخشري يؤكد التقطن لظلاله الأسلوبية والتي تستوجب نمطاً إجرائياً متميزاً. ويفهم هذا الأمر من خلال حينما «قيل للمخطئ لحن، إن اللحن بمعنى الخطأ معنى طارئ على المعنى الأصلي الذي يقدرح الألباب للغوص على المعنى وكشفه».

١ . فاطر: ١ .

٢ . الأنعام: من الآية ٣٥ .

٣ . محمد: ٣٠ .

نلتمس مما تقدم في مفهوم العدول عند القدامى، أن العربي اللغوي اصطنع لنفسه نظاماً خاصاً ليضيف على كلامه بعض الجمالية بما يحمله النص من قوة مؤثرة وإيحائية لها أثرها في أذن السامع.

أما المحدثون فلم يخرجوا عما تناوله القدامى في مصطلح العدول، إلا أن أكثرهم سموه (الانزياح) ترجمة لمفهوم أجنبي (Lecart) ويقصد به إبراز سمة الجدة من حيث هو متصور إجرائي طارئ على التأليف في اللغة العربية()، وقد تعددت تسمياته لدى المحدثون فقد سُمي بـ (الانحراف) لسببتر، و (الاختلال) لويلك، و (المخالفة) لتيري، و (الشناعة) ليارت، و (الانتهاك) لكوهن، و (التحريف) لجماعة (مو)، إلا انه وعلى الرغم من تعدد تسمياته التي أطلقها العلماء فقد استقر مصطلح الانزياح بوصفه وظيفة شعرية في الكلام، وتحقق باختيار المتحدث لأداته التعبيرية والشعورية المخزونة في ذاكرته.

المبحث الثاني: العدول والدلالة الإيحائية

إن الذي يستنتق أقوال الإمام علي في نهج البلاغة، يجد العدول أخذ دوره الفاعل في إنتاج الدلالة الإيحائية، وهذه الأخيرة لها سطوتها في إقناع المتلقي (السامع)؛ لأن الدلالة الإيحائية نتاج عمليات الفعل الإبداعي داخل إطار النص، ومن هنا فإن الدلالة الإيحائية بحد ذاتها دالاً؛ لأنها معنية بإيصال المعنى كونها «نتاج لما يستوطن النص من أبنية لغوية وصرفية ونحوية وبلاغية بيانية كانت أم معنوية أم بديعية، فضلاً عن الأفكار التي تسهم في تيسير هذه الصياغة الأدبية، لأن الإبداع يبدو في خصوصية الصياغة أو الأسلوب الذي يقوم عليه النص».

لذا تمتاز نصوص الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) بأنها من أكثر النصوص العربية إنتاجاً للدلالة الإيحائية، فإذا تأملت وحدة النص في أقوال الإمام علي (عليه السلام)، لوجدت الوحدة العضوية مفتاحاً للومضة الدلالية عند المتلقي، فضلاً عن أن قصدية القول لم تأت اعتباراً وإنما كانت متجلية في وحدة عضوية تكاملت فيها أركان الخطاب، فانعكس هذا الأمر على الوحدة الموضوعية فظهرت تلك الوحدة بنية متكاملة لتصبح معياراً دلاليّاً متأسساً على الوحدة العضوية.

فعملية التكوين الإبداعي لنصوص نهج البلاغة مبنية على تأمل وتدبر وتفكر لدى الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) حينما يريد أن يعالج قضية ما، فضلاً عن ذلك لوحدة الصراع أي موقف الإمام علي (عليه السلام) من الوجود دور مهم ينعكس على عملية التكوين الإبداعي، ولهذا تعد نصوص أمير المؤمنين مبنية عن خبرة وتجربة يوظفها الإمام علي (عليه السلام) في نصوصه وصولاً إلى إقناع المتلقي وشد انتباهه، إذ تطور هذا الأمر ليصبح كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) ومولى الموحدين مثلاً يُحتذى به ويصلح في كل زمان ومكان، إذ تتحد وحدة الموضوع مع وحدات الفعل الإبداعي، الأمر الذي ينعكس على تكثيف النص فيتسامى ويصبح ومضة دلالية إيحائية؛ لأن تجربة الإمام علي (عليه السلام) ونظرته للواقع مع الاستحضار الذهني الخارقي للكلام، هو الذي أنتج عبارة لغوية مكثفة مكتنزة بالمدلول معاً، وكلما تكثفت العبارة كلما كانت الوحدة العضوية لنصوصه هي الومضة الدلالية()، إذ تعد هذه النصوص التي تنتج ومضة دلالية من أكثر النصوص قدرة على احتواء العدول، وتكوين الدلالة الإيحائية، إذ تصبح الأخيرة عند إمام المتقين مبنية عن التجربة والدربة في القول والمران في التدبر وسعة الاطلاع والموقف من الوجود، فما ضمه نهج البلاغة من أقوال والتي احتوت على أسمى معاني البلاغة والفصاحة، وحسن التأليف التي بلغت أوجها في القوة والحجة، فكل ذلك يدل على عبقرية هذا العملاق العربي، فلا يستطيع خطيب أن يحوي في ثانياً كلامه من الدقة والإبداع في الجوانب التي تناولها الإمام علي (عليه السلام) صياغةً، وتركيباً، وتحليلاً، وتعليلاً، فنجد اللغة المعبرة، والمشاعر الراقية، والأخلاق السامية، فلا عجب أن نحصل على هذا الشيء من نصوصه، فمجموع خطبه كانت عن تجربة إنسان خبر الحياة بقلبه الكبير وعقله الراجح، لذا كان سفره الأدبي بما «يتضمن من عجائب البلاغة، وغرائب

الفصاحة، وجواهر العربية، وثواقب الكلم الدينية والدينيوية ما لا يوجد مجتمعاً في كلام ولا مجموع الأطراف في كتاب، إذ كان أمير المؤمنين مشرع الفصاحة وموردها ومنشأ البلاغة ومولدها ومنه عليه السلام ظهر مكنونها وعنه أخذت قوانينها، وعلى أمثلته حدا كل قائل خطيب وبكلامه استعان كل واعظ بليغ.

ومع ذلك فقد سبق وقصروا وقد تقدّم وتأخروا؛ لأنّ كلامه عليه السلام الكلام الذي عليه مسحة من العلم الإلهي وفيه عبقة من الكلام النبوي».

ولو تصفحنا نهج البلاغة لوجدنا إحساس هذا العملاق العربي بما قاله، أو فكره، أو تأمله في هدوئه وغضبه ينمُّ عن براعته وقدرته في مسك زمام كلامه، لذلك كانت لظاهرة العدول في أقواله ولاسيما القصار منها متميزة ومتجسدة بشكلٍ دقيق ومركز دالاً عن عمق المعرفة التي يمتلكها أمير المؤمنين (عليه السلام).

المبحث الثالث: العدول والتكثيف الدلالي

حينما تقرأ نصوص نهج البلاغة تلحظ أنك في عالم واقعي قد عشت تجربته التي عاشها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فيجعلك النص تنشد إليه وتستلهم العبر منه، وحتى يتبين لك الدوافع النفسية المكبوتة في نفس الإمام علي (عليه السلام): ثم الطابع الاجتماعي للكلام والذي طغى على أقواله القصار، فكأن سفره الأدبي الرائع هو رسالة بين المتكلم والمتلقي لكل زمان ومكان وفي الوقت نفسه، يخضع لزمن إنتاجه وزمن تلقيه، وسنوضح بعض الأقوال التي حصل فيها العدول واتسعت بما فيها من تكثيف دلالي.

قال الإمام علي (عليه السلام): «اعتصموا بالذمم في أوتادها».

لذا جاء النص مكتنزاً بطاقته الإيحائية، ومرتوياً بالدلالة، فقد توطنت المعاني نصوصه فأفاضت بها إيحائيات اللفظ وحملت معه وظائف الإقناع لدى المتلقي، فالكثافة الشعرية حضرت بكلِّ مقوماتها و اتكأت جماليات التعبير على معنى دلالي مقنع، ذلك هو أن الذمة يجب أن تربط في مكانها الصحيح ولا يعطي الإنسان أشياءه الخاصة إلا لمن يكون أهلاً للحفاظ على تلك الأشياء بحيث تكون الذمة في مستقرها الصحيح، ومما يحمد لتعبير الإمام علي وجود وحدة الموضوع والوحدة الحيوية أي الموقف الشعوري من القائل والمتلقي، فضلاً عن وحدة الصراع أي الموقف من الوجود، فالإنسان دائماً بحاجة إلى أن يطمئن على أسراره، لذلك فالموقف من الوجود واضح هنا إذ عبرت عنه عملية التجسيم، فجعل الذمة بمقام الدابة ولكي يؤمن عليها يجب أن تكون في منأى عما نتعرض له من مخاطر.

فالعدول أوجد طاقة إيحائية تعبيرية حملت وظيفة اقناعية لدى المتلقي وأفصحت عن حال المتكلم في وقت واحد.

فالتكثيف الدلالي مصاحبٌ للعدول في أقوال الإمام علي (عليه السلام) وكلما قصرت العبارة يعني أن تكثيفاً دلالياً حصل بأقصى طاقته، وأن عدولاً مصاحباً للدلالة الإيحائية قد حصل من جهة أخرى، وأن إقناعاً واستسلاماً من لدن المتلقي قد رافقه كما هو الحال في قوله (عليه السلام): «الثقى رئيس الأخلاق()»، فكانت شبكات المعنى في هذا القول على وفق ما حمله بناء النص، فنجد المسند والمسند إليه المقيد، ثم ما كونته الوحدة العضوية من ومضة دلالية. أفادت أن القمة تكون للنقي الذي يتسيد هرم الأخلاق() فارتقي هذا التكثيف الدلالي عبر العدول سلم الاقتناع حتى جعل الكلام أو القول بمصاف المثل، إذ يمكن أن يكون هذا المثل لكل زمان أو مكان ولمتلقين مختلفين زمانياً ومكانياً، بمعنى أن التكثيف الدلالي عبر العدول حقق حجة اقناعية لدى المتلقي كانت الدلالة الإيحائية حاضرة فيه، فحصل توافق بين العدول والدلالة الإيحائية ووظيفة الكلام، ونجد الإمام علي (عليه السلام) يهتم في نصوصه بترابط أجزاء القول وهي خصيصة يمتاز بها أسلوبه، وتبين أكثر حينما يذهب كلامه إلى الموعظة المتكئة على تكثيف الدلالة المستندة على التجارب الإنسانية() بإطار صوري بياني جاذب للسامع، فالخبرة من تجارب الحياة تحقق موقفاً من الوجود أي ما يحمله المنشئ من نظرة تجاه ذلك الواقع، فلذلك

كلما قصرت العبارة في نهج البلاغة كلما تكاثفت دلاليًا وأصبح القول يرتقي إلى مستوى المثل، وهذا منتشرٌ في أقوال الإمام علي(عليه السلام) فهي تصلح أن تكون مثلاً في الوقت الذي تكون مكنزة بمختلف الدلالات الإيحائية والمستويات الفنية، مثال ذلك قوله (عليه السلام): «سعة الصدر آلة الرياسة»، وقد حصل في هذه العبارة التي ظهر فيه أسلوب التشبيه البليغ عدولاً مصاحباً للتكثيف الدلالي المبني على الخبرة؛ لأن سعة الصدر هي الفضاء الذي يحتوي الرياسة، وهي الطريق الموصل أيضاً إلى إتقان تلك الرياسة أو عملية تلك الرياسة، وهذا الأمر ينطبق على كلِّ رئيس يستطيع أن يسوس معيته بخبرة ومران وحذق، فلا بدّ من أن تتسع آفاقه وتمرن رؤى نظره على الأشياء، وفي الوقت نفسه تنفتح فضاءات تفكيره لكي يصل إلى مراد معيته ويكون محتوياً لهم كما ورد ذلك في قوله تعالى: (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَطَرْنَا مِنْ حَوَالِكِ)١، فإن الذي حملته الدلالة الإيحائية حقق قصد القول وارتقي بالكلام إلى مستوى المثل.

فالعُدول هو مصدر الدلالة الإيحائية وقد وجدناه في نصوص نهج البلاغة مبنياً على القصدية، التي تخرج من أطواء كلام الإمام علي(عليه السلام) مقصودة لذاتها متشحة بالحكمة، والحكمة هي مفتاح من مفاتيح الخبرة وهذه الأخيرة هي التي تأخذ القول لأن يكون مثلاً، وكلما كان النص حاملاً لقصدية كان صادقاً وحاملاً لجمالية متكاملة وهذا نلاحظه في السفر العجيب الذي تتساوى فيه الصور الذهنية مع الصور الحسية بتحقيق وحدة عضوية مترابطة الأجزاء، الأمر الذي جعلها مثلاً يحتذى به فمثلاً قوله (عليه السلام): «تعطروا بالاستغفار كي لا تفضحكم روائح الذنوب»، فالعدول هنا تحقق عبر الاستعارة المبنية على الإضافة (روائح الذنوب) وكذلك عبر الاستعارة المكنية في (تعطروا بالاستغفار) (تفضحكم روائح الذنوب)، وهنا نجد من الملفت للنظر أن الإمام علي(عليه السلام) يستعمل العدول بأعلى مراحلها عبر أساليب البيان المختلفة، فلا نجد بوناً بين أسلوب بياني وآخر في الوصول إلى إيحائية القول، فسواء كان الأمر في التشبيه أو الاستعارة؛ لأن الأمرين لا يخرجان في النهاية من أن يكون ذلك الإيحاء الدلالي داخل إطار الوظيفة النفعية لدى المتلقي، وهذه الوظيفة تحقق أعلى غاياتها عند إقناع المتلقي فليس هناك من متلق لا يخضع فكرياً إلى حقيقة تلك الحجة الإقناعية، بل يسلم لها ويعدها أساً في واقعه الاجتماعي بمعنى إن علاقة بين نصوص الإمام علي(عليه السلام) وواقع الفرد الاجتماعي وهذه الخصيصة تمنح النص - فضلاً عن الخصيصتين السابقتين التكثيف الدلالي والمثل - وتمنحه ألتصاقاً بالمتلقي فهي من جانب احتوت على فنية القول ومن جانب آخر حملت وظيفة إرشادية ومن جانب ثالث أسهمت في تعميق أو اصر المتلقي بعمل الخير في مجتمعه، والملاحظ إن الإنسان إذا ركز على قضايا المجتمع ضعفت لديه الفنية بسبب إمعانه في أعمال العقل، لكننا نجد العكس تماماً في نصوص نهج البلاغة فكلمة أو غل الإمام علي(عليه السلام) في إنتاج الكلام المرتبط اجتماعياً فإن ذلك لا يقصر من فنيته، فمثلاً في قوله (عليه السلام): «الطمع رقٌّ مؤبَّدٌ») فقد تأسس النص على مستوى التشبيه، وضم إليه فنية ورؤية اجتماعية حتى استوى النص مثلاً اجتماعياً.

كما في قوله(عليه السلام) أيضاً: «كفى بالأجل حارساً» ففي هذه العبارة التي ظهرت فيها الاستعارة المكنية طريقاً موصلاً إلى الدلالة، وقد أسهمت في إعطاء المعنى لوحدة عضوية لا تقبل الانفصام، إذ ساعدت الاستعارة على شد بناء النص المعتمد على الجملة الفعلية المتصلة بالماضي، فتولد التكثيف الدلالي الذي ساعد هو الآخر على إيضاح وحدة الموضوع، وهذا الأمر المستند على التجربة أفضى إلى حقيقة أن الأجل حارس الإنسان معه، وهذا تعبيرٌ بياني معتمد على الصورة الاستعارية ساعد على وجود نواة وهي الوحدة العضوية التي شعت بطاقتها الإيحائية وبأقصى دلالاتها، فكانت الدلالة الإيحائية هي الوحدة الموضوعية التي استندت على التكثيف الدلالي الذي اعتمده الإمام علي .

إذن حقق العدول في نصوص نهج البلاغة دلالة إيحائية كانت اطاراً لضم الاعتبارات التي أشرنا إليها في النص وهذه الخصائص التعبيرية في أقوال نهج البلاغة تنبئ عن قدرة معرفية بأنظمة السياق، فثمة سياق ظاهري ومعنى تولد بتقنية عقلية وأدبية معاً وهذا الأمر لا يقوى إلا من خبر مكامن القول وسلك سبله وسبر أغواره وعرف بأحوال النفس الإنسانية، وتثقف بخبرات الحياة، هكذا كانت أقوال الإمام علي تتسم بهذه الخصائص فكان كلامه قريباً من النفس مقنعاً محمولاً بفنية عالية فأصبح بموجبها العدول توأماً للوظيفة الاقناعية لدى المتلقي، وبذلك أرتقى مستوى الدلالة الإيحائية إلى الفهم والإفهام.

خلاصة البحث ونتائجه

بعد أن أرسى البحث رحلته القصيرة في تلك الرحاب الثرة لأقوال أمير المؤمنين (عليه السلام) في نهج البلاغة، نقف وقفة استرجاع وتقرير لتلك الشذرات التي استقطبناها من هذا البحث لنقول بالنتائج التي توصلنا إليها وهي:

تجلى لنا أن العدول قد أخذ دوره الفاعل في إنتاج الدلالة الإيحائية، وهذه الأخيرة لها سطوتها في إقناع المتلقي (السامع)؛ لأن الدلالة الإيحائية ما هي إلا نتاج عمليات الفعل الإبداعي داخل أطار النص، ومن هنا فإن الدلالة الإيحائية بحد ذاتها دالاً، لأنها معنية بإيصال المعنى.

وجدنا أن الإمام علي(عليه السلام) في سفره الأدبي الرائع قد عدل من صيغة إلى أخرى ومن تركيب إلى آخر، وكان غرضه على وفق فنية واقعية تمثلت به ورسمت ملامح أدائه الإبداعي الخاص في تكوين النص.

ظهر من خلال البحث أن لظاهرة العدول تكثيفاً دلالياً ولاسيما في المفردات اللغوية التي منحت معنى الكلام دقة ورسانة وقوة، وهذا يدل عن مدى قدرة الإمام علي في مسك زمام كلامه، وكل قول قد قاله يعبر عن التجربة الخالدة التي عاشها أمير المؤمنين (عليه السلام).

ووجدنا أن هناك دوافع نفسية لهذه الأقوال، إذ تلاحظ حينما تقرأ أو تسمع أقوال الإمام علي(عليه السلام) أن هناك رسالة بين المتكلم والمتلقي، تبين الطابع الاجتماعي للكلام، وهذا كله يخضع لزمن إنتاجه وزمن تلقيه، كما يخضع لمكان إنتاجه وتلقيه أيضاً.

توصلنا إلى أن العدول هو مصدر الدلالة الإيحائية وهو مبني في نصوص نهج البلاغة على القصدية التي تخرج من اطواء كلام الإمام علي(عليه السلام) مقصودة لذاتها ومتشحة بالحكمة التي هي مفتاح من مفاتيح الخبرة.

سارت أقوال الإمام علي(عليه السلام) مسار المثل، فضلاً عن الخصيصتين اللتين تميزت بهما وهما التكثيف الدلالي ومخاطبة الواقع الاجتماعي. والحمد لله رب العالمين

شرح العهد الدولي للإمام علي (عليه السلام) لواليه مالك الأشر على مصر

سماحة آية الله الشيخ باقر شريف القرشي

موضوع هذا الكتاب تحليل وعرض لبعض محتويات عهد الإمام لمالك الأشر واليه على مصر وقد تناول هذا العهد أهم وأدق قضايا الحكم والإدارة، وليس البحث فيه عن دراسة القائد الملهم الزعيم مالك الأشر الذي هو من أفذاذ أصحاب الإمام أمير المؤمنين، ومن أكثرهم إخلاصاً وولاءً له.

ومن الفائدة أن نشير بإيجاز إلى أهم الجوانب في حياة مالك، وهو ولاؤه العام للإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) وتفانيه في حبه، والإخلاص له، وقد حكى الإمام مدى تعاطفه وإخلاصه له بقوله: «كان مالك لي كما كنت لرسول الله (صلى الله عليه وآله)».

ومن المؤكد أنه ليس أحد من أرحام النبي (صلى الله عليه وآله) وأصحابه أشد ولاءً ولا أكثر حباً ولا تمادياً في الإخلاص له من الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) فقد كان القوة الضاربة التي حمته من ذئاب طغاة القرشيين الذين جهدوا على تصفية جسده وإقصاء قيمه ومبادئه وحينما أحاطوا بداره لتصفيته وقاه الإمام بنفسه وبات في فراشه فكان الفدائي الأول للنبي (صلى الله عليه وآله)، وبهذه المنزلة الرفيعة من الوفاء والإخلاص كان الزعيم مالك للإمام فقال له: (أنت لي كما كنت لرسول الله).

وعلق أستاذنا المعظم آية الله الشيخ محمد طاهر آل الشيخ راضي على كلمة الإمام لمالك بقوله: لقد ترجم الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) قائده الأشر بكلمة من قصار كلماته، وذكر نصها، فهذه الكلمة القصيرة فتحت لنا ألف باب نصل منها إلى معرفة تلك النفس الزكية القدسية كان أمير المؤمنين (عليه السلام) خالصاً لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا لأنه ابن عمه ومن أقرب الناس إليه نسباً ولحمة بل لأنه النبي الصادق الأمين الذي جاء بالحق من عند الله تعالى فصدع به، وبلغه، وهكذا يقضي التشبيه لمالك، ويدل عليه مآثر فعله وقوله في حالتي الغضب والاطمئنان والشدة والرخاء، وهو وإن لم يبت على فراش علي، ولكنه عرض نفسه مشهداً للعداء في كل موقف وقفه، وشهد شهادته، ومغالاته في التضحية عنه..

وقد تحدث الإمام (عليه السلام) عن سمو شخصية مالك وعظيم شأنه في رسالته التي بعثها لأهل مصر حينما ولاه عليهم جاء فيها:

«أما بعد: فقد بعثت إليكم عبداً من عباد الله تعالى لا ينام أيام الخوف، ولا ينكل عن الأعداء ساعات الروع، أشد على الكفار من حريق النار وهو مالك بن الحارث أخو مذحج فاسمعوا له وأطيعوا أمره فيما طابق الحق فإنه سيف من سيوف الله تعالى لا كليل الظبة ولا نابي الضريبة فإن أمركم أن تنفروا فانفروا، وإن أمركم أن تقيموا فأقيموا فإنه لا يقدم، ولا يحجم، ولا يؤخر، ولا يقدم إلا عن أمري، وقد أثمرتكم به على نفسي لنصيحتته لكم وشدة شكيمته على عدوكم».

المقطع من حديث الإمام (عليه السلام) بعض الجوانب من شخصية الزعيم مالك كان منها أوله: عظيم شجاعته وشدة بأسه في أيام الرعب والخوف، فإنه لا يهاب الأعداء ولا يلين لهم ثانيه: شدته على الكفار، وقد وصفه الإمام بأنه أشد عليهم من حريق النار، وهو وصف من أروع الصفات.

ثالثه: انه سيف من سيوف الله تعالى كما كان الإمام (عليه السلام).

وقد لازم مالك الإمام (عليه السلام)، فكان عضده ومستشاره في تخطيط سياسته وإدارة شؤون دولته، وكان معه في أحلك الظروف وأشدّها محنة، وأقساها بلاءاً، وعسى أن يساعدنا التوفيق، ويمنحنا الله تعالى الصحة لدراسة حياته والتعرف على مواقفه وجهاده في نصرة الإمام (عليه السلام).

شهادته

قُلت الإمام (عليه السلام) مالك ولاية مصر فخرج إليها، وسارت قافلته لا تلوي على شيء فلما انتهت إلى إبلة التقى به نافع مولى عثمان بن عفان، وقد أرسله معاوية لاغتياله، وكان لبقاً فقال له مالك:

ممن أنت؟ من أهل المدينة من أيهم؟ فأخفى نسبه وموضعه وقال:
مولى لعمر بن الخطاب أين تريد؟ مصر ما حاجتك؟ أشبع من الخبز
فرق له مالك وقال له: سأصيبك من الخبز

و سار مالك ومعه عميل معاوية حتى انتهى إلى القلزم فنزل ضيفاً عند امرأة، جهينة فرحبت به، وسألته أي الطعام أحب إليك فقال الحيتان، فقدمت له ما اشتهى فلما تناول الطعام أصابه عطش شديد فأخذ يكثر من شرب الماء، فقال له نافع مولى عثمان لا يقتل سمه إلا العسل، فدعا الأستر بإحضاره من ثقله فلم يكن فيه فبادر نافع قائلاً هو عندي علي به.
فأحضره وكان قد دس فيه سمّاً قاتلاً فتناوله، ولم يكن حسرات، من أن تقطعت أمعاؤه وأخذ الموت يدنو إليه وطلب إحضار نافع فوجده منزهماً، وعرف مالك ما دبره له هذا العميل، ولم يلبث إلا قليلاً حتى طويت حياته التي كانت صفحة من الشرف والكرامة والجهاد في سبيل الله، وكانت شهادته على يد أقر مجرم لم يعرف التاريخ الإنساني نظيراً له في موبقاته وجرائمه، وقد جعل الخبيث يردد (إنّ الله تعالى جنوداً من عسل).

تأبين الإمام لمالك

ولما انتهى النبا المفجع بشهادة مالك ذابت نفسه أسي وحسرات، وأخذ يذرف الدموع قائلاً:
إنا لله وإنا إليه راجعون، الحمد لله رب العالمين اللهم إني احتسبته عندك فإن موته من مصائب
الدهر، وأضاف قائلاً:

رحم الله تعالى مالكا فقد وفى بعهدده، وقضى نحبده، ولقي ربه، وإنا قد وطننا أنفسنا أن نصبر
على كل مصيبة بعد مصابنا برسول الله (صلى الله عليه وآله)، فغنها من أعظم المصائب.
و اخذ الإمام يتلهف على فقده ويقول بحرارة:

لله در مالك لو كان من جبل لكان فنداً ولو كان من حجر لكان صلداً أما والله ليهدني موتك
وأضاف: على مثل مالك فلتبك البواكي، وهل موجود كمالك لقد عرض شهادة مالك حياة
الإمام، فقد خسر أعظم شخصية تساعده على محن الدنيا وكوارث الأيام.

سرور معاوية

و سر معاوية بسمه لمالك، وخطب الناس قائلاً: أما بعد: فإنه كانت لعلي بن أبي طالب يدان
يمينان قطعت إحداها يوم صفين وهو عمار بن ياسر، وقطعت الأخرى اليوم وهو مالك
الأستر، لقد انطوت حياة مالك ورزقه الله تعالى الشهادة على يد أخبث مجرم اقترف كل
محرم. رحم الله تعالى مالكا وأجزل له المزيد من الأجر لنصرته أخي رسول الله (صلى الله
عليه وآله) وباب مدينة علمه، ونستقبل عهد الإمام له آملاً أن أكون قد ساهمت في خدمت أهل
بيت النبوة ومراكز الوحي.

عهد الإمام لمالك الأستر

بسم الله الرحمن الرحيم

للإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) مواهب وعقريات، ولم تختص ملكاته العلمية بأحكام
الشريعة ومعارف الإسلام، وإنما كانت شاملة لجميع أنواع العلوم على اختلافها وتعدد أنواعها،
وقد ذكر العقاد في عبقرية الإمام أنه فتق أكثر من ثلاثين علماً، لم يعرفها المسلمون من قبل.
ومن المؤكد أن سعة علوم الإمام وشموليتها لكل علم تتطور به الحياة كانت مستمدة من النبي
صلى الله عليه وآله فقد أفاض عليه علومه، وغذاه بمكوناته الفكرية، فقال: «أنا مدينة العلم

وعلي بابها» فهو باب مدينة علم النبي صلى الله عليه وآله التي شملت جميع أنواع العلوم التي عرف الناس بعضها وجهلوا الكثير منها.

ومن بين العلوم التي انفرد بها الإمام وضعه لأنظمة الحكم والإدارة في عهده الدولي للزعيم مالك الأشتر واليه على مصر، فقد وضع فيه أدق الأنظمة وأهمها إصلاحاً لحياة الإنسان السياسية والاجتماعية، وعالج فيه بصورة موضوعية وشاملة جميع قضايا الحكم والإدارة في مجتمع لم يفقه أي بند من أنظمة الحكم والإدارة، وقد شرع الإمام أروع صور الحضارة، وأبهى ألوان التطور والتقدم الفكري، إن الإنسانية على ما جربت من تجارب وبلغت من رقي وإبداع فيما أسسه لها رجال السياسة والقانون من أنظمة الحكم والإدارة فإنهم لم يأتوا بمثل هذا العهد، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً فقد بلغ من عظيم ما سنه الإمام في عهده أنه أمر الحكام أن يساؤوا بين جميع طبقات الشعب حتى في اللحظة والنظرة، وقد أقام بذلك أسمى صور العدالة التي ينشدها الإسلام وعلى أي حال فإننا نعرض صوراً من الأنظمة المشرقة التي تملأ النفوس إكباراً وتعظيماً ومن بينها:

تطلع الرعية إلى عدل الولاية

و شيء بالغ الأهمية عند الإمام وهو تطلع الرعية إلى عدل الولاية، فقد مرت عليهم ولاية في الحكومات الظالمة قبل حكومته فأمعنوا في ظلم الناس وإرهاقهم، فعهد الإمام إلى مالك أن يريهم صنوف العدل ويسوسهم سياسة قوامها الحق المحض وهذا كلامه:

«ثم اعلم يا مالك أنني قد وجهتك إلى بلادٍ قد جرت عليها دول قبلك من عدلٍ وجور وأن الناس ينظرون من أمرك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاية قبلك ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم: وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله تعالى على ألسن عباده، فمالك هوأك، وشح بنفسك عما لا يحل لك فإن الشح بالنفس بالإنصاف منها فيما أحببت أو كرهت..».

هذه المثل العليا في سياسة الإمام فقد أكد فيها على بسط العدل وإشاعته بين الناس، وأن يعتبر مالك نفسه مواطناً لا زعيماً فيرجو من الوالي تحقيق ما يصبو إليه من العدل وبما تسعد به الرعية، وأكد الإمام على ضرورة العمل الصالح، والسيطرة على نزعات النفس، ونشر الإنصاف بين الناس.

الرحمة بالرعية

وعرض الإمام في عهده لمالك إلى ضرورة الرحمة بالرعية والإحسان إليها والرفق بها، والعفو عنها في موارد الزلل، وأن بها مهما استطاع لذلك سبيلاً استمعوا لقوله:

قال (عليه السلام): «وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم واللفظ بهم ولا تكونن عليهم سبباً ضارياً تغتتم أكلهم، فإنهم صنفان: أما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق، يفرط بينهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤثر على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك، مثل الذي تحب أن يعطيك الله تعالى من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم ووالي الأمر عليك فوقك، والله تعالى فوق من ولاك، وقد استكفأك أمرهم وابتلاك بهم، ولا تنصب نفسك لحرب الله تعالى، فإنه لا بد لك بنقمته، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته..».

وليس في قواميس الأديان ومذاهب السياسة مثل ما سنه قائلاً: من الرفق بالرعية على اختلاف ميولها وأديانها، فليس للوالي إلا اللطف والمبرة بها، وأن لا يشمخ عليهم بولايته ويكون سبباً ضارياً عليهم، وعليه أن لا يحاسبهم على ما صدر منهم من علل أو زلل، ويمنحهم العفو والرضا لتتعم البلاد بالأمن وتسد فيها ويستمر الإمام (عليه السلام) في عهده بالرفق بالرعية قائلاً:

«ولا تندمن على عفو، ولا تيجحن بعقوبة، ولا تسرعن إلى بادرة وجدت منها مندوحة، ولا تقولن: اني مؤمراً امرُ فأطاع فإن ذلك إدغال في القلب ومنهكة للدين، وتقرب من الغير، وإذا حدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة، فانظر إلى عظم ملك الله تعالى فوقك وقدرته

منك على مالا تقدر عليه من نفسك فإن ذلك يطامن إليك من طماحك ويكن عنك من غربك، وفي إليك بما عزب عنك من عقلك..». حكى هذا المقطع الأساليب التي يجب أن تتوفر في الولاة من عدم الندم على عفو اصدر على مواطن، وعدم التبجح بعقوبة انزلوها على أحد، وليس له الاعتزال بالسلطة والغرور بالحكم، فإن في ذلك مفسدة للدين ومفسدة للمواطنين، وعليهم أن ينظروا إلى قدرة الله، الى عليهم فإنه المالك لهم، هذه بعض محتويات هذه الكلمات.

إنصاف الناس

و في عهد الإمام (عليه السلام) لمالك الأمر بإنصاف الناس في سياسته وإنصافهم من خاصة أهله والتابعين له، فإن ذلك من أسمى ألوان العدل الذي تبناه الإمام في حكومته، وهذه كلماته قال (عليه السلام): «أنصف الله تعالى، وأنصف الناس من نفسك، ومن خاصة أهلك، ومن لك فيه هوى من رعيتك فإنك إلا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله تعالى، كان الله عز اسمه خصمه دون عباد، ومن خصمه الله تعالى أدحض، وكان لله تعالى حرباً حتى ينزع أو يتوب وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله تعالى وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم فإن الله تعالى سميع دعوة المضطهدين وهو للظالمين بالمرصاد..». حكى هذا المقطع العدل الصارم في سياسة الإمام التي تسعد بها الأمم والشعوب وتكون آمنة من الظلم والاعتداء.

إرضاء العامة

و شيء بالغ الأهمية في سياسة الإمام والحق، في رضاء العامة من المشروعة، الذين يشكلون الأكثرية الساحقة من الشعب من ذوي المهن والحرف وغيرهم فإن الحكومة مدعوة لإرضائهم وتنفيذ رغباتهم المشروعة، يقول الإمام (عليه السلام): «وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل وأجمعها لرضا الرعية فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة وليس احدٌ من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرضاء، وأقل معونة في البلاء وأكره للإنصاف، وأقل شكراً عند العطاء، وأبطأ عذراً عند المنع، واضعف صبراً عند ملحاحات الدهر من أهل الخاصة، وإنما عماد الدين وجماع المسلمين، والعدة للأعداء العامة من الأمة فليكن عفوك لهم وميلك معهم...». حكى هذا المقطع مدى أهمية العامة عند الإمام وأن رضاهم موجب لنجاح الحكومة وسخطهم موجب لدمارها، وأن العامة هم الذخيرة للدولة بخلاف الخاصة الذين هم أكره للإنصاف وأقل شكراً عند العطاء، وإن عماد الدين وقوام السلطة إنما هو بالعامة دون الخاصة.

إبعاد الساعين لمعائب الناس

و كان من رحمة الإمام بالناس إبعاد الساعين لذكر معائبهم، وطردهم، ولزوم ستر معائب المواطنين، وهذا جزء من سياسته العامة، وهذا نص كلامه: قال (عليه السلام): «وليكن أبعد رعيتك، وأشناهم عندك أطلبهم لمعائب الناس، فإن في الناس عيوباً الوالي أحق من سترها، فلا تكشفن عما غاب عنك منها، فإنما عليك تطهير ما ظهر لك، والله يحكم على ما غاب عنك فاستر العورة ما استطعت يستر الله تعالى منك ما تحب ستره من رعيتك، أطلق عن الناس عقدة كل حقد، واقطع عنك سبب كل وتر، وتغاب عن كل مالا يصلح لك، ولا تعجلن إلى تصديق ساع، فإن الساعي غاش وإن تشبه بالناصحين..». إن من مناهج سياسة الإمام إبعاد السعادة في ذكر مثالب الناس الأمر الذي يؤدي إلى إسقاط كرامتهم، وتحطيم منزلتهم، وهذا مما يرفضه الإمام الذي جهد على تهذيب المجتمع وحسن سلوكه.

الابتعاد عن بعض الأشخاص

وعهد الامام الى مالك بالابتعاد عن بعض الأشخاص المصابين بأخلاقهم وهم: قال (عليه السلام): «ولا تدخلن في مشورتك بخيل يعدل بك عن الفضل – أي الإحسان – وبعدك الفقر، ولا جباناً يضعفك عن الأمور، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى، يجمعها سوء الظن بالله تعالى...» لقد حذر الأمام من مزاملة هؤلاء الأشخاص لأنهم يجلبون الويل والعطب لولاية الأمور.

إقصاء الوزراء في الحكومات السابقة و أمر الإمام في عهده بإقصاء الوزراء في الحكومات السابقة لأنهم كانوا أشراً وخونة خصوصاً في حكومة عثمان، ولنستمع إلى حديثه.

قال (عليه السلام): «إن شر وزراءك من كان للأشرار قبلك وزيراً، ومن شركهم في الآثام، فلا يكونن لك بطانة – أي خاصة – فإنهم أعوان الأثمة، وأخوان الظلمة وأنت واجد منهم خير الخلف، ممن له مثل آرائهم ونفادهم، وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم ممن لم يعاون ظالمًا على ظلمه، ولا أثمًا على إثمه، أولئك اخف عليك مؤونة، وأحسن لك معونة، وأحنى عليك عطفًا وأقل لخيرك إلفاً – أي محبة – فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك، ثم ليكن أثرهم عندك أقولهم بمرّ الحق لك، وأقلهم مساعدة فيما يكون منك بما كره الله تعالى لأوليائه واقعا ذلك من هواك حيث وقع. وألصق بأهل الورع والصدق، ثم رضهم – أي عودهم – على أن لا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله، فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو، وتدني من العزة».

حكى هذا المقطع أسمى ما تصل إليه الحكومة من التطور في خدمة الشعب، فقد عهد الإمام (عليه السلام) إلى مالك أن لا يتخذ وزيراً قد شارك في وزارة الحكومة السابقة التي جهدت في ظلم الشعب ونهب ثرواته كما كان في أيام حكومة عثمان بن عفان عميد الأمويين فقد وهب ثروات الأمة وما تملكه من قدرات اقتصادية لبني أمية وآل بني معيط، كما صحح المناصب المهمة في الدولة، وكان ذلك من الأسباب التي أدت إلى الإطاحة بحكومته.

الاتصال بالعلماء

و أكد الإمام في عهده على ضرورة الاتصال بالعلماء والحكماء للتذاكر في شؤون البلاد وما يصلحها اقتصادياً وأمنياً وغير ذلك، قال (عليه السلام): «وأكثر مدارس العلماء، ومناقشة الحكماء في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك وإقامة ما استقام به الناس قبلك..».

و هذا أنموذج من سياسة الإمام الهادفة لإصلاح المجتمع بجميع ما يحتاج إليه طبقات الشعب، ونظر الإمام بعمق إلى طبقات الشعب التي يرتبط بعضها ببعض وهي:

الكتاب: ذي به قوام الدولة والشعب.

الكتاب: وهم كتاب العامة والخاصة.

قضاة العدل، وهما لرفق، يحكمون بين الناس فيما شجر بينهم من خلاف.

عمال الإنصاف والرفق، وهم صنف من العمال يلاحظون أمور الناس.

الذين يأخذون الجزية التي هي من مداد الاقتصاد في الإسلام.

التجار وهم الذين يمثلون العصب الاقتصادي في البلاد.

أهل الصناعات: وهم الذين يقومون بما يحتاج إليه المجتمع في شؤونه الاقتصادية.

الفقراء والمحتاجون.

ووضع خاصاً، لكل صنف منهجاً خاصاً، وأوصى بمراعاة هذه الأصناف لأنهم هم المجتمع في البلاد.

الاتصال بالأشراف والصالحين

من بنود عهد الإمام أنه أمر مالك بالاتصال بالأشراف والصالحين الذين يمثلون القيم الكريمة ليستعين بهم في إصلاح البلاد، وهذا قوله:

«ثم ألقى بذوي المروءات، وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة فإنهم جماع من الكرم وشعب من العرف، ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما، ولا يتفان في نفسك شيء قويتهم به، ولا تحقرن لطفاً تعاهدتهم به وإن قل، فإنه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك، وحسن الظن بك، ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالاً على جسيمها، فإن لليسير من لطفك موضعاً ينتفعون به، وللجسيم موضعاً لا يستغنون عنه».

حكى هذا المقطع أصالة ما ذهب إليه الإمام من إشاعة الفضيلة وتوطيد أركان الإصلاح الاجتماعي بين الناس، وهذه النقاط المهمة التي أدلى بها الإمام (عليه السلام) توجب التقاف المصلحين حول الولاية وتعاونهم معهم فيما يصلح أمر البلاد.

تكريم المخلصين من الجند

وعهد الإمام لمالك بتكريم المخلصين من الجند فإن ذلك مدعاة إلى إخلاصهم للحكومة والذب عنها ولنستمع إلى قوله.

قال (عليه السلام): «وليكن أثر رؤوس جندك عندك من واساهم - أي ساعد الجند - في معونته، وأفضل عليهم من جدته بما يسعهم، و يسع من وراءهم من خلوف أهلهم حتى يكون همهم همّاً واحداً في جهاد العدو، فإن عطفك يعطف قلوبهم عليك، وإن أفضل قرّة عين الولاية استقامة العدل في البلاد وظهور مودة الرعية، وأنه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاية الأمور، وقلة استنقال دولهم وترك استبطاء انقطاع مدتهم فأفسح في آمالهم، وواصل في حسن الثناء عليهم وتحديد ما أبلى ذوو البلاء منهم فإن كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهز الشجاع وتحرض الناكل إن شاء الله..».

أرأيتم هذا العمق في سياسة الإمام ودراسته لنفوس الجيش، و الوقوف على إخلاصهم وطاعتهم لقادتهم، ولم يحفل أي دستور عسكري وضعه قادة الجيوش بمثل هذه الدراسة الوثيقة لطبائع نفوس العسكر، وكيفية إخلاصهم وطاعتهم لقادتهم وقد أوصى الإمام (عليه السلام) بإشاعة ذكر المخلصين من الجند فإن ذلك يهز عواطف الشجعان منهم، ويحرض الناكل على الطاعة والإخلاص لدولته ويضيف الإمام مؤكداً برعاية المخلصين من الجند قائلاً:

«ثم اعرف لكل امرئ منهم ما أبلى، ولا تضيفن بلاء امرئ إلى غيره، ولا به دون غاية بلائه، ولا يدعوك شرف امرئ إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً، ولا منعة امرئ إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً».

حكى هذا المقطع بعض الوصايا الذهبية في تكريم المخلصين من الجيش، وأنه ليس له أن يعظم الأشراف على ما صدر منهم من خدمات ما كان قليلاً ويستهيّن بالفقراء ما صدر منهم من خدمات جليلة وأن الواجب عليه الإشادة بهم وذكرهم بأطيب الذكر وأنداه.

اختيار الحكام

و شيء بالغ الأهمية في عهد الإمام وهو أن يكون انتخاب الحكام غير خاضع للمؤثرات التقليدية، وإنما يكون عن دراسة جادة للحاكم نفسياً وفكرياً وإدارة ومعرفة بشؤون الحكم والإدارة على ضوء الشريعة المقدسة، وهذا حديث الإمام:

«ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيته في نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم، ولا يتمادى في الذلة، ولا يحصر من الفياء إلى الحق إذا عرفه، ولا تشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه، وأوقفهم في الشبهات، وأخذهم بالحجج، وأقلهم تيرما بمراجعة الخصم، وأصبرهم على تكشف الأمور، وأصرمهم عند اتضاح الحكم، ممن لا يزدنيه إطراء، ولا يستميله إغراء، وأولئك قليل.

ثم أكثر تعاهد قضائه، وأفسح له في البذل ما يزيل علتة، وتقل معه حاجته إلى الناس، وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك، فانظر

في ذلك نظراً بليغاً، فإن هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار يعمل فيه بالهوى وتطلب به الدنيا...».

حكى هذا المقطع شأن القضاة أموراً بالغة الأهورورعه، منها:
أولاً: أن يكون الحاكم أفضل الرعية في تقواه وورعه، وأن تتوفر فيه هذه الصفات:
أ- أن يكون واسع الصدر لا تضيق به محكمات الناس، ويميل منها.
ب- أن يمعن وينظر بجد في القضايا التي ترفع إليه، ويتبع سبيل الحق فيما يحكم به.
ج- أن لا يتمادى في الزلل والخطأ فإنه يكون ضالاً عن الطريق إذا لم يعن بذلك.
د - أن يتبع الحق فيما يحكم به.
هـ- أن يكون شديداً في حكمه إذا اتضح له الحق.
ثانياً- أن يتعاهد الوالي قضاء الحاكم خشية الزلل فيما حكم به.
ثالثاً- أن يوفر له العطاء ولا يجعله محتاجاً لأحد حتى يخلص فيما يحكم به.
رابعاً- أن تكون للحاكم منزلة كريمة عند الوالي لا يطمع بها غيره.. هذه بعض النقاط في هذا المقطع.

العمال:

نظر الإمام بعمق إلى العمال في جهاز الدولة فوضع منهجاً لاختيارهم في هذا الجهاز وأن يكون انتخابهم غير خاضع للمؤثرات الخارجية، بل لابد من البحث عنهم والفحص عن سيرتهم، وهذا نص عهده.

قال (عليه السلام): «ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختباراً ولا تولهم محاباة وإثرة فإنهم جماع من شعب الجور والخيانة، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة، والقدم في الإسلام المتقدمة فإنهم أكرم أخلاقاً، وأصلح إعراضاً، وأقل في المطامع إشراقاً، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً ثم أسبغ عليهم الأرزاق، فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك، أو ثلموا أمانتك، ثم تفقد أعمالهم، وابتعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم، فإن تعاهدك في السر لأموهم حدوث لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية، وتحفظ من الأعوان فإن أحداً منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عندك أخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهداً فبسطت عليه العقوبة في بدنه وأخذته بما أصاب من عمله، ثم نصبته بمقام الذلة، ووسمته بالخيانة، وقلدته عار التهمة»، ألقى الإمام الأضواء في هذا المقطع على العمال في أجهزة الحكم، وأولاهم المزيد من الاهتمام لأنهم العصب في الدولة، وكان مما أولاهم به.

أولاً: إن الوظيفة لا تمنح لأي شخص إلا بعد اختباره ومعرفة سلوكه وإدارته.
ثانياً: أن منح الوظيفة يجب أن لا يكون محاباة أو اثرة، وإنما يكون عن استحقاق ودراية.
ثالثاً: إن العمال في الحكومات السابقة كانوا شعباً من الجور وفي عهده يجب أن يكونوا أمثلة للنزاهة والشرف.

خامساً: أن يكون العمال من ذوي البيوتات الشريفة فإنهم يكونون بعيدين من اقتراف الإثم وما يخل بالكرامة.

سادساً: أن يوفر لهم المال فإنه ضمان لهم من أخذ الرشوة.
سابعاً: أن يجعل عليهم العيون والرقباء خشية انحرافهم عن الحق.
ثامناً: إذا بدت منهم خيانة فعلى الوالي أن يأخذهم بالعقاب الصارم. الخراج: الإجراءات مع العمال تضمن للأمة العدل، وتشيع فيها الإخلاص للحكم.

الخراج:

أما الخراج فهو شرايين اقتصاد الأمة حكومة وشعباً في عصورها الأولى، وقد أمر الإمام في عهده بمراقبته وتفقدته والاهتمام به، وهذا كلامه.

قال (عليه السلام): «وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله، فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله الحياة

الاقتصادية للأمة في تلك العصور منوط بالخراج الذي تأخذه الدولة من المزارعين، وقد أمر بتفقدته وتفقدتهم رعاية للمصلحة العامة».

عمران الأرض

و أولى الإمام المزيد من اهتمامه بعمران الأرض، وما تحتاجه من الماء وغيره، وقد ادلى بذلك بقوله:

«وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج لأن ذلك لا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلا قليلاً».

حكى هذا المقطع مدى اهتمام الإمام بعمارة الأرض وتوفير جميع الوسائل لإصلاحها لأنها مصدر الحياة الاقتصادية في الأمة.

وصيته بالمزارعين

اهتم الإمام بالمزارعين فأوصى برعايتهم والعناية بهم، وتصديقهم فيما يقولون في شأن الخراج، وإقضاء كل لون من ألوان الضغط عنهم، وهذا قوله:

قال (عليه السلام): «فإن شكوا - أي المزارعون - ثقله، أو علة، أو انقطاع شرب أو بالة أو إحالة أرض اغتمرها غرف، أو أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم، ولا يتقلن عليك شيء خففت به المؤونة عنهم، فإنه نخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك مع استجلابك حسن ثنائهم، وتبجحك باستفاضة العدل فيهم معتمد أفضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم، والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم في رفقك بهم، فربما حدث من الأمور ما إذا عولت فيه عليهم من بعد ما احتملوه طيبة أنفسهم فإن العمران محتمل ما حملته، وإنما يؤتى خراب الأرض من أعواز أهلها، وإنما يعوز أهلها لأشراف أنفس الولاية على الجمع - أي جمع الأموال وسوء ظنهم بالبقاء، وقلة انتفاعهم بالعبير..».

حكى هذا المقطع مدى اهتمام الإمام بتنمية الاقتصاد القومي الذي يمثله قطاع الفلاحين فقد أوصى بعمارة الأرض، وتوفير ما تحتاجه من المياه، وإصلاحها فيما إذا غمرت المياه وغير ذلك من وسائل الإصلاح، وقد فقد المسلمون هذه الرعاية أيام الحكم الأموي والعباسي، فقد شكوا والي مصر إلى عاهل الشام سوء حالة المزارعين وتخفيف الخراج عنهم فكتب إليه بعد التأنيب «احلب الدر فإذا انقطع فاحلب الدم» وقد اضطر المزارعون إلى هجر مزارعهم فراراً من ظلم الولاية وجورهم كما حكى هذا المقطع البر بالمزارعين والإحسان إليهم، ومراعاة حياتهم الاقتصادية بما لم يألفوا مثله في الحكومات السابقة.

الكتاب

وهم من أهم الموظفين في جهاز الدولة، فهم يتولون كتابة ما يصدر من الوالي من قرارات وشؤون اقتصادية وعسكرية، وغير ذلك مما يتعلق بأمور الدولة والمواطنين وقد أولاهم الإمام المزيد من الاهتمام وهذا نص حديثه.

قال (عليه السلام): «ثم انظر في حال كتابك، فول على أمورك خيرهم، وأخصص رسائلك التي تدخل فيها مكائلك وأسرارك بأجمعهم لوجود صالح الأخلاق ممن لا تبطره الكرامة فيجزئ بها عليك في خلاف لك بحضرة ملاً، ولا تقصر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمالك عليك وإصدار جواباتها على الصواب عنك فيما يأخذ لك، ويعطي منك، ولا يضعف عقداً اعتقده لك، ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور، فإن الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل، ثم لا يكون اختيارك إياهم على فراستك واستنافتك - أي ثقتك - وحسن الظن منك، فإن الرجال يتعرفون لفراسات الولاية بتصنعهم وحسن خدمتهم، وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء، ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك، فاعمد لأحسنهم كان في العمارة أثراً، وأعرفهم بالأمانة وجهاً فإن ذلك دليل على نصيحتك لله تعالى، ولمن وليت أمره، واجعل

لرأس كل أمر من أمورك رأساً منهم لا يقهره كبيرها، يتشتت عليه كثيرها ومهما كان في كتابك من عيب فتغابيت عنه ألزمته»، حكى هذا المقطع مدى أهمية الكتاب لأن قرارات الدولة، ومهام الأمور بأيديهم، ولا بد أن تتوفر فيهم الصفات الفاضلة من الأمانة والضبط، وعدم التهاون في أعمالهم وأن يكون اختبارهم وثيقاً، فلا يصح الاعتماد على الفراسة، وحسن الظن ولا على ما يبدونه من الخدمات لجلب مودة الوالي لأن ذلك ليس له أي وزن في ترشيحهم لهذه الوظيفة المهمة، فلا بد أن يكون الاختبار وثيقاً غير خاضع للطلبات الشخصية.

التجار وذوو الصناعات

يشكل القطاع من التجار وذوي الصناعات دوراً مهماً في إدارة الشؤون الاقتصادية في البلاد وقد أوصى الإمام برعايتهم والاهتمام بشؤونهم، وهذا قوله: «ثم استوصي بالتجار وذوي الصناعات، وأوصي بهم خيراً، المقيم منهم، والمضطرب بماله والمترفق ببذنه، فغنهم مواد المنافع، وأسباب المرافق، وجلابها من المباعد والمطارح في برك وبحرك، وسهلك وجبلك، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها، ولا يجترئون عليها، فإنهم شكم لا تخاف بائقته، وصلح لا تخشى غائلته، وتفقد أمورهم بحضرتك، وفي حواشي بلادك...». عرض الإمام (عليه السلام) إلى دور التجار في جلب ما تحتاج إليه الناس من المناطق البعيدة والأماكن النائية ليوفروا لهم ما يحتاجون إليه من ضروريات الحياة، والواجب على الوالي رعايتهم وتسهيل أمورهم.

مراقبة التجار

نظر الإمام بعمق إلى شؤون بعض التجار الذين يبلغ بهم الطمع إلى احتكار بعض السلع ومنعهم عنه، وهذا قوله: قال (عليه السلام): «وأعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً، وشحاً كبيراً واحتكاراً للمنافع وتحكماً في البياعات، وذلك باب مفرة للعامة، وعيب على الولاية، فامنع من الاحتكار فإن رسول الله صلى الله عليه وآله منع عنه، وليكن البيع بيعاً سمحاً لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع – المشتري – فمن فارق حكرة بعد نهيك إياه فنكل به، وعاقبه في غير إسراف...». عرض الإمام إلى مراقبة السوق خشية من الاحتكار الذي يفر بالعامة، وعلى الوالي أن يمنع المحتكر فإن أصر على احتكاره فيعاقبه من غير إسراف، الاحتكار يؤدي إلى شل الحركة الاقتصادية في البلاد ويلقي الناس في ضائقة اقتصادية.

الطبقة السفلى

وليس في تاريخ الإسلام وغيره مثل الإمام أمير المؤمنين في اهتمامه بالفقراء، فقد شاركهم في جشوبة العيش وخشونة اللباس، فهو أبو الفقراء، وصديق المحرومين وملاذ البائسين، وهذا نص حديثه في عهده:

«ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لاحيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزمنى فإن في هذه الطبقة قانعا ومعتراً، وأحفظ الله تعالى ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسماً من بيت مالك وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كل بلد، فإن لأقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكل قد استرعيت حقه فلا يشغلنك عنهم بطر، فإنك لا تعذر بتضييعك التافه لاحكامك الكثير المهم فلا تشخص طعمك عنهم ولا تصعر خدك لهم وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن لا تقتحمه العيون، وتحقره الرجال، ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع فليرفع إليك أمورهم، ثم اعمل فيهم بالأعذار إلى الله يوم تلقاه فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم، وكل فاعذر إلى الله تعالى في تأدية حقه إليه...».

أرأيتم هذا العطف والحنان على الفقراء والضعفاء، فقد احتضنهم الإمام وجعلهم من أهم مسؤولياته وواجباته إن رعاية الفقراء والبر بهم والإحسان إليهم عند الإمام جزء من رسالة الإسلام التي أكدت على محو الفقر وإزالة شبحه، ونشر السعة والرخاء بين المسلمين.

رعاية الأيتام والمتقدمين في السن

أكد الإمام في عهده على ضرورة تفقد الأيتام والطاعنين في السن من الذين لا حيلة لهم. قال (عليه السلام): «وتعهد أهل اليتيم وذوي الرقة في السن ممن لا حيلة له، ولا ينصب للمسألة نفسه، وذلك على الولاية ثقيل، والحق كله ثقيل، وقد يخففه الله تعالى على أقوام طلبوا العاقبة، فصبروا أنفسهم، ووثقوا بصدق موعود الله تعالى لهم...».

كان الإمام أباً عطوفاً للأيتام، وكان يجمعهم فيطعمهم بعسل، وكان شديد العناية بهم والرعاية لهم والعطف عليهم، وكان من ذاتياته وعظيم أخلاقه، وأثرت عنه وعن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) كوكبة من الأحاديث تحث على رعاية اليتيم والبر به، وتذكر ما أعد الحاجات من الأجر الجزيل للقائم بذلك.

تفريغ وقت لذوي الحاجات

ومن بنود عهد الإمام (عليه السلام) أنه حث على أن يجعل لذوي الحاجات وقتاً لينظر فيها وهذا قوله:

قال (عليه السلام): «وأجعل لذوي الحاجات منك قسماً تفرغ لهم فيه شخصك، وتجلس مجلساً عاماً فنتواضع فيه لله تعالى الذي خلقك، وتبعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك حتى يكلمك متكلمهم غير متعتع، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول في غير موطن: (لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متعتع) ثم احتمل الخرق منهم والعي ونح عنهم الضيق والإنصاف يبسط الله تعالى عليك بذلك أكناف رحمته، ويوجب لك ثواب طاعته، وأعط ما أعطيت هنيئاً وامنع في إجمال وأعدار...».

وكان خائف، أعدل عدل الإمام (عليه السلام) في أيام حكومته أنه يحين وقتاً للنظر في قضايا ذوي الحاجات، فكان يأخذ بحق الضعيف من القوي وبحق المظلوم من الظالم، وكذلك عهد إلى ولاته مثل ذلك، وقد أمر (عليه السلام) في عهده بتتحية الشرطة والجنود حتى يتكلم ذو الحاجة غير متعتع ولا خائف، وهذا منتهى العدل الذي أسسه رائد الحضارة والعدالة في الإسلام.

مباشرة الولي كلامه: الأمور

وكان من بنود عهد الإمام أن يتولى الولاية بعض القضايا بأنفسهم تحقيقاً للعدل وهذا نص كلامه: قال (عليه السلام): «ثم أمور من أمورك لا بد لك من مباشرتها، منها إجابة عمالك بما يعيا عنه كتابك، ومنها إصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك بما تخرج به صدور أعدائك، وأمض لكل يوم عمله، فإن لكل يوم ما فيه واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله تعالى أفضل تلك المواقيت، وأجزل تلك الأقسام وإن كانت كلها لله تعالى إذا صلحت فيها النية وسلمت منها الرعية».

حكى هذا المقطع أموراً يتعين على الوالي القيام بنفسه في مباشرتها منها.

إجابة العمال فيما إذا عجز الكتاب عن القيام بها، وهي إما أنها ترجع إلى الشؤون العامة. إلى مصلحة العمال تنفيذ كل عمل من أعمال الدولة بنفس اليوم من دون تأخير لأن التأخير يضر بالمصلحة العامة.

أن يخصص الوالي لنفسه وقتاً للاتصال بالله تعباً لإخلاص، ذه بعض النقاط في هذا المقطع.

إقامة الفرائض

وعهد الإمام لمالك أن يقيم فرائض الله تعالى بإخلاص، وإذا أقيمت صلاة الجماعة فعليه أن يلاحظ المصلين فلا يطيل في صلاته وإنما يصلي كما يصلي أضعف الناس، وهذا حديث الإمام:

«وليكن في خاصة ما أضعفهم، هي الله تعالى دينك إقامة فرائضه التي هي له خاصة، فأعط الله تعالى من بدنك في ليلتك ونهارك، ووف ما تقربت به إلى الله عز وجل من ذلك كاملاً غير مثلوم، ولا منقوص بالغاً من بدنك ما بلغ، وإذا قمت في صلاتك إلى الناس فلا تك منفراً ولا مضيقاً فإن في الناس من به العلة وله الحاجة، وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله حين وجهني إلى اليمن كيف أصلي بهم؟ فقال صل بهم كصلاة أضعفهم، وكن بالمؤمنين رحيماً...». شملت تعاليم الإمام (عليه السلام) للولاء الحث على الصلاة وكيفية أدائها جماعة، ولم يعرض لذلك من ولي أمور المسلمين قبله وبعده.

عدم الاحتجاب عن الرعية

وكان من وصايا الإمام لمالك أن لا يحتجب عن الرعية وأن يكون على اتصال دائم بهم فإن الاحتجاب له مضاعفاته السيئة التي تحدث عنها الإمام بقوله: «وأما بعد: فلا تطولن احتجابك عن رعيته، فإن احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق، وقلة بعلم الأمور، والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه فيصغر عندهم الكبير، ويعظم الصغير، ويقبح الحسن، ويحسن القبيح، ويشاب الحق بالباطل، وإنما الوالي بشر لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الأمور، وليست على الحق سمات، تعرف بها ضروب الصدق من الكذب، وإنما أنت أحد رجلين، إما امرؤ سخت نفسك بالبذل في الحق ففيم احتجابك عن واجب حتى تعطيه أو فعل كريم تسديه، أو مبتلى بالمنع فما أسرع كف الناس عن مسألتك إذا أيسوا من ذلك مع أن أكثر حاجات إليك مما لا مؤونة فيه عليك من شكاة مظلمة أو طلب إنصاف في معاملة...».

حكى هذا الخطاب ضرورة الانفتاح مع الشعب وعدم الاحتجاب عنه، فإن الوالي الذي يدافع عن شعبه ويكون بمعزل عنهم يعود بالأضرار البالغة عليه، والتي منها فتح أبواب المعارضة عليه، ونفمة المجتمع منه، وكرهيتهم لحكمه، وسلطانه.

بطانة الوالي وخاصته

حذر الإمام في عهده من إتباع بعض الذين يتخذهم الوالي خاصة له فإن فيهم تطاولاً وقلة انصاف، وعليه أن يحسم شرورهم وأطماعهم، ولا يقطعهم قطيعة أرض فيكون المهناً لهم والوزر عليه، وهذا كلامه:

قال (عليه السلام): «ثم إن للوالي خاصة وبطانة فيهمبطانتهم، و تطاول وقلة إنصاف في معاملة، فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال، ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وخاصتك قطيعة، ولا يطمعن منك في اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس في شرب أو عمل مشترك يحملون مؤونته على غيرهم فيكون مهناً ذلك لهم دونك، وعيبه عليك في الدنيا والآخرة.

لقد كان أمر الإمام حاسماً في شؤون خاصة الولاة وبطانتهم، فقد سد عليهم جميع ألوان الطمع والتلاعب بأموال الدولة وأضاف الإمام يأمر الولاة بإتباع الحق قائلاً: وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد، وكن في ذلك صابراً محتسباً واقعاً ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع، وابتغ عاقبتك بما يتقل عليك، فإن معية ذلك محمودة...».

إن الحق هو المنهج الواضح في سياسة الإمام وسيرته وليس للباطل أي التقاء به.

الرفق بالرعية

أكد الإمام في عهده على الرفق بالرعية ومراعاة عواطفها، وإذا ظننت به حيفاً فعلياً أن ينطلق إلى ساحتها، ويقدم لها الاعتذار، وهذا قوله:

«وإن ظننت الرعية بك حيفاً فاصحر لهم بعذرک، واعدل عنك ظنونهم باصحارك فإن في ذلك رياضة منك لنفسك ورفقاً برعيته، وأعداراً تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق...».

حكى هذا المقطع مدى العمق في سياسة الإمام (عليه السلام) في وسائل ارتباط الحكومة مع الشعب، وجعلهما جسداً واحداً.

الصلح مع العدو

إن الإسلام يدعو إلى السلم وتحريم سفك الدماء وإزالة جميع وسائل الخوف والإرهاب، وقد أكد الإمام (عليه السلام) على ضرورة الاستجابة إلى الصلح إذا دعا إليه العدو، وكان هذا أعماله وقوله

قال (عليه السلام): «ولا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك والله تعالى فيه رضا، فإن في الصلح دعة لجنودك، وراحة من همومك، وأمناً لبلادك، ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحك، فإن العدو ربما قارب ليتغفل، فخذ بالحزم، واتهم في ذلك حسن الظن، وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة فحط عهدك بالوفاء، وأرع ذمتك بالأمانة وأجعل نفسك جنة دون ما أعطيت فإنه ليس من فرائض الله تعالى شيء، الناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم وتشنت آراءهم من تعظيم الوفاء بالعهود، وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لما استولوا من عواقب الغدر، فلا تغدرن بذمتك، ولا تخيسن بعهدك ولا تختلن عدوك، فإنه لا يجترىء على الله تعالى إلا جاهل شقي، وقد جعل الله تعالى عهده وذمته أمناً أفضل بين العباد برحمته، وحريماً يسكنون إلى منعه، ويستقيضون إلى جداره، فلا إدغال - هو الإفساد - ولا مدالة - الخيانة - ولا خداع فيه، ولا تعقد عقداً تجوز فيه العطل، ولا تعولن على لحن قول بعد التأكيد والتوثق ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله تعالى إلى طلب انفساحه بغير الحق، فإن صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه، وفضل عاقبته، خير من غدر تخاف تبعته وأن تحيط بك من الله تعالى فيه طلبية، فلا تستقل فيها دنياك ولا آخرتك..».

حكى هذا الخطاب المناهج العسكرية، وهذه شذرات منها:

أولاً: أن الإمام أكد على ضرورة قبول الصلح إذا دعا إليه العدو، وذكر فوائده:

إن فيه راحة للجيش لأنه يستريح من الجهد العسكري.

ثانياً: أاحة للوالي من الهموم التي تنشأ من العمليات العسكرية.

في الصلح أمناً للبلاد وعدم تعرضها للأزمات.

ثانياً: على الوالي أن يراقب بيقظة العدو وبعد الصلح خشية أن يكون ذلك تصنعاً منه للكيد من المسلمين.

ثالثاً: إذا أبرم الوالي الصلح فعليه أن يحيط بالإسلام، بالوفاء والأمانة ولا يخيس بأي شيء منه فإن الوفاء بالعهد والوعد من صميم الإسلام، والغدر ونكث العهد يتجافى مع الإسلام فقد جعل الله تعالى الوفاء بالعهد حصناً وثيقاً من حصونه ليس لأحد أن يقتحمه.. هذه بعض البنود في هذا المقطع.

حرمة سفك الدماء

أكد الإمام في عهده على وجوب احترام الدماء وحرمة سفكها بغير حق، وهذا ما أعلنه الإمام وقال (عليه السلام) «إياك والدماء وسفكها بغير حلها، فإنه ليس شيء أدنى لنقمة ولا أعظم لتبعة، ولا أحرى بزوال نعمة، وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها والله تعالى سبحانه مبتدئ بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام، فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقله، ولا عذر لك عند الله تعالى ولا عندي في قتل العمد لأن فيه قود البدن وإن ابتليت بخطأ، وأفرط عليك سوطك أو سيفك أو يدك بالعقوبة فإن في الوكزة مما فوقها مقتلة، فلا تمحن بك نخوة سلطانك عن أن تؤدي إلى أولياء المقتول حقهم».

إن سفك القتلى، ير حق من أعظم الجرائم ومن أفحش الموبقات في الإسلام، فقد أعلن القرآن الكريم أن من قتل نفساً بغير حق فكأنما قتل الناس جميعاً وإطلاق النفس شامل لجميع أصناف

البشر من ذوي الأديان السماوية وغيرهم، كما أعلن القرآن أن من قتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه نار جهنم خالداً فيها، وقد شدد الإمام في عهده على ضرورة حفظ دماء المسلمين وحرمة سفكها، وحذر أن يقوى سلطان ولاته بإراقة الدماء، كما دية قتل العمد أن فيه ؟؟؟؟ وهو قتل القاتل، كما ذكر دية المقتول خطأ وهو الدية ولايته، ما يكون التحذير من سفك الدماء.

الإعجاب بالنفس

و أوصى الإمام في عهده بأن لا يعجب الوالي بنفسه وولايته، وأن لا يحب الإطراء وهذا حديثه: قال (عليه السلام): «وإياك والإعجاب بنفسك، والثقة بما يعجب منها وحب الإطراء فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين، وإياك والمن على رعبك بإحسانك أو التزيد فيما كان من فعلك، فإن المن يبطل الإحسان، والتزيد يذهب بنور الحق، والخلف يوجب المقت عند الله تعالى والناس، قال الله تعالى: «كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون» حكى هذا المقطع تحذير الإمام لواليه من أمرين، وهما – أولاً: أن يمن على رعبته بما يسديه من إحسان عليهم فإن ذلك واجب عليه ولا مجال للتبجح بأداء الواجب، وثانياً: أن يعدهم بالإحسان ثم يخالف ما وعده فإن ذلك مما يوجب مقت الله تعالى ومقت الناس».

العجلة في الأمور

حذر الإمام من العجلة بالأمر قبل أوانها فإن ذلك مما لا يليق بالوالي، وهذا حديثه: قال (عليه السلام): ((وإياك والعجلة بالأمر قبل أوانها أو التسقط – أي التهويل – فيها عند إمكانها، أو اللجاجة فيها إذا تكثرت، أو الوهن عنها إذا استوضحت فضع كل أمر موضعه)). لقد أوصى الإمام بعهده أن يضع الوالي كل شيء من أموره الاجتماعية أو السياسية في موضعه من دون عجلة فإنها تهبط بمستوى الوالي شعبياً فإنه يتم عن عدم توازنه في سلوكه.

الاستئثار

حذر الإمام (عليه السلام) الوالي من الاستئثار بما فيه الناس سواء ولنستمع إلى قوله: قال (عليه السلام): «وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة، والتغابي عما تعن به بما قد وضح للعيون، فإنه مأخوذ منك لغيرك، وعمّا قليل تنكشف عنك أغطية الأمور، وينتصف منك المظلوم، أم لك حمية أنفك، وسورة خدك، وغرب لسانك، واحترس من كل ذلك بكف البادرة، وتأخير السطوة حتى يسكن غضبك، فتملك الاختيار، ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك».

لقد عهد الإمام (عليه السلام) إلى واليه التحلي بمكارم الأخلاق، وليس له ادبياً أن يستأثر بما الناس فيه سواء، وإنما عليه أن يتركه لهم لينظروا إلى نزاهة الحكم، وشرف الوالي، لقد أوصاه الإمام بكل فضيلة تخلد له الذكر الحسن، وتكون له وسام شرف.

الإقتداء بالحكومات العادلة

وختم الإمام حديثه في عهده لمالك بهذه الوصية القيمة التي يسمو بها إلى أرقى درجات الكمال قائلاً:

«والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدمك من حكومة عادلة أو سنة فاضلة أو أثر عن نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم)، أو فريضة من كتاب الله تعالى فاقتدي بما شاهدت مما عملنا به، وتجتهد لنفسك في إتباع ما عهدته إليك من عهدي هذا، واستوثقت به من الحجة لنفسك عليك لكيلا تكون لك علة عند تسرع نفسك إلى هواها، وأنا أسأل الله تعالى بسعة رحمته، وعظيم قدرته على إعطاء كل رغبة أن يوفقني وإياك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه، والى خلقه مع حسن الثناء في العباد وجميل الأثر في البلاد، وتمام النعمة، وتضعيف

الكرامة، وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة، إنا إليه راجعون والسلام على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً كثيراً والسلام..».

وانتهى هذا العهد الذي يمثل العدل في السياسة والحكم بجميع رحابه ومكوناته وهو من هجرية، خلفته الإنسانية من تراث عالج فيه قضايا الحكم والإدارة بمنتهى الحكمة والدقة، في وقت لم يكن فيه المسلمون وغيرهم يعرفوا هذه الأنظمة الخلاقة وهي جزء من مواهب الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) وعبقرياته التي لا تحد وحسبه علواً أنه وصي رسول الله صلى الله عليه وآله وباب مدينة علمه، ومن كان منه بمنزلة هارون من موسى.

وقد فرغت من تأليف هذا الكتاب في الساعة الواحدة ليلاً من شهر صفر ٢٢ منه سنة ١٤٣٢ هجرية، وأنا في صحة لا تحمد سائلاً منه تعالى القبول إنه ولي ذلك والقادر عليه.

مقدمة لإعراب نهج البلاغة وبيان معانيه

الاستاذ الدكتور زهير غازي زاهد (كلية الفرقان الجامعة- بابل)

الإمام علي وخطب النهج

تحدث الجاحظ في رسالة الأوطان والبلدان، قائلاً: «الذي تهيأ وخصّ به آل أبي طالب من الغرائب والعجائب والفضائل ما لم نجد في أحد سواهم. وذلك أنّ أول هاشمي هاشميّ الأبوين كان في الدنيا ولدّ لأبي طالب»، كان عليّ أول هاشمي من أبوين هاشميين فاجتمعت له خلاصة صفات هذه الأسرة الكريمة التي عُرفَ بها أعلامها، وكانت ولادته في الكعبة فكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها وهو القائل: «ما أعرف أحداً من هذه الأمة عبد الله بعد نبينا غيري، عبدتُ الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة تسع سنين».

كانت ولادته في الكعبة كأنها إيدانٌ لعهد جديد لها وللعبادة فيها فقد فتح عينيه على الإسلام ونشأ في بيت الرسالة لم يفارق رسول الله حتى آخر أيامه. وكان مبكر النضج في القدرة على الفهم وتقدير الأحداث ووعي الحياة بتجاربها المختلفة هذا إلى جانب ما كان للرسول من توجيهه وتعليمه وتلقينه مختلف العلوم والتجارب، ومعايشته القرآن الكريم وبيت الوحي من أول نزوله حتى آخر ما نزل؛ لذلك كان الأكثر فقهاً والأكثر علماً والأكثر زهداً ثم الأكثر شجاعةً وفروسيةً والأكثر عدلاً كما كان الأول إسلاماً، قال عمر بن عبد العزيز: «أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب»، لذلك أقول ما قاله عز الدين بن أبي الحديد المعتزلي: «وما أقول في رجل أقرّ له أعداؤه وخصومه بالفضل ولم يمكنهم جحد مناقبه ولا كتمان فضائله، فقد علمت أنه استولى بنو أمية على سلطان الإسلام في شرق الأرض وغربها، واجتهدوا بكل حيلة اطفاء نوره، والتحريض عليه، ووضع المعاييب والمثالب له، ولعنوه على جميع المنابر وتوعدوا مادحيه، حتى حظروا أن يسمّى أحد باسمه، فما زاده ذلك إلا رفعةً وسمواً، وكان كالمسك كلما سُتّر انتشر عرّفه، وكما كُتِمَ تَضَوَّعَ نَشْرُه، وكالشمس لا تُسْتَرُّ بالراح وكضوء النهار إن حُجِبَتْ عنه عين واحدة أدركته عيون كثيرة».

لقد كان المجاهد الصادق مع الرسول منذ أيام الإسلام الأولى، والباذل حياته للدفاع عنه ونشر الإسلام، فكانت مواقفه مشهودة منذ نومه في فراش الرسول حين عزم المشركون على اغتياله، وسيفه معروف فعله منذ معركة بدر الأولى بعد الهجرة ثم أخذ ثم الخندق، ومواجهة أفرس العرب عمرو بن عبد ودّ، وقد وصفها النبي قائلاً: «لقد برز الإيمان كله إلى الشرك كله» لخطورتها آنذاك ثم تسليمه الراية في واقعة خيبر وقوله فيه: «لأدفعنّ الراية غداً إلى رجل كرار غير فرار يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» وتستمر مواقفه في الحرب والسلام مع النبي حتى وفاته.

وبعد وفاته كان الصابرين المحتسبين في أمر الخلافة، فلم يثر ما فيه تفرق السلميين، وظلت آراؤه الفقهية ومشورته حاضرة في كل معضلة، فكان مرجعاً لأبي بكر وعمر في شؤون الفتوى، بل كان مرجعاً لسائر الصحابة فهم قد سمعوا قول النبي: «أقضاكم علي»، ورويت للخليفة عمر فيه أقوال منها: «لا بارك الله في معضلة لا تحكم فيها يا أبا الحسن»، وقوله: «لولا علي لهلك عمر»، وبقي في عهد عثمان بن عفان ذلك الناصح في الأحداث التي واجهته حين انتقض أمره بسبب تحكيمه مروان بن الحكم والأمويين في أمور الخلافة وتحكمهم في الرعية، وتبذير المال على غير صالح المسلمين.

وعندما آل الأمر إليه أراد أن يعيد ما انحرف من الأمور إلى صوابها ويقم العدل والإسلام النبوي، فكان الحكم لديه إشاعة العدل بين الرعية وليس تسلطاً عليها وإنما نصرة الحق وخذلان الباطل، فالسلطة لديه أمانة يجب أن تدار على وفق شريعة الله، لذلك أول ما واجه المتحكمين في عهد عثمان من الأمويين والذين أثروا من غير وجه حق من القرشيين.

بقوله: «الذليل عندي عزيز حتى أخذ الحق له والقوي عندي ضعيف حتى أخذ الحق منه». لقد واجه من قريش ما واجه الرسول منهم في بداية دعوته، فقد قال في خروجه لقتال أصحاب الجمل في البصرة: «مالي ولقريش والله لقد قاتلتهم كافرين، ولأقاتلتهم مفتونين، وإنني لصاحبهم بالأمس كما أنا لصاحبهم اليوم».

وكان يوصي ولاته أن لا يتخذوا السلطة سوطا على الناس، وإنما يجب إشاعة العدل والمساواة بينهم. ففي وصيته لمالك الأستر قوله: «وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكوننّ عليهم سبعا ضاريا تغتتم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق»، وهذا القول وحده نظرية في العدل وسياسية المجتمع بأسمى عقلية متحضرة متنوّرة بنور الإسلام من منبعه.

فالحاكم لا يجوز له أن يحول البلاد إلى بستان يستغلها ويسرق أرزاقها ويحرم رعيته منها، وإنما عليه أن يشارك الأمة حياتها بكل ألوانها، لذلك كان يحسب حسابها لأحوال الناس ويفكر بطرق لإشاعة العدل فيهم.

فالدين لديه تفكير بإشاعة العدل قولا وعملا، قال في خطبة له: «أيها الناس إنني والله ما أحتكم على طاعة إلا وأسبقكم إليها، ولا أنهاكم عن معصية إلا وأتناهى قبلكم عنها»، والدين تفكير يقمح جماع الهوى والسيطرة على النفس.

قال: «أفنتع من نفسي بأن يقال: هذا أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر؟»، وقوله: «أببيت مبطانا وحولي بطون غرثي وأكباد حرّى؟»، وقوله: «ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جسعي إلى تخيير الأطمعة ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشعب».

لقد كان يكره الغدر، وحين أشيع بين الناس دهاء معاوية والوصول إلى ما يريد بأية وسيلة، قال يصف نفسه: «والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهة الغدر لكنت من أدهى الناس».

كان الإمام بهذه الروح والأخلاق السماوية السامية الإنسان الكامل إنسان المبادئ والقيم العليا. عاش يدافع عنها ويدعو إلى نشرها وتطبيقها حتى اغتالته يد الغدر والإثم في أثناء صلواته في مسجد الكوفة يوم الجمعة في السابع عشر من رمضان سنة ٤٠ من الهجرة.

لقد كان يخرج وليس له من يحرسه مؤمنا بحراسة الله لا حراسة الشرط والجند، لقد ظلت روحه الإنسانية ومبادئه خالدة لم يستطع عتاة الأرض من الحكام أن يطفئوا نورها، فنورها موصول بنور الله ونور شريعة الحق.

لقد ظل كلامه وخطبه وحكمه تشيع على ألسن الأدباء والعلماء تلك القيم، وقد جمعت في كتاب «نهج البلاغة» ظلت إلى جانب كلام الله يرفعان صوت القيم الإنسانية عبر العصور يتسلمها جيل عن جيل وعصر عن عصر، فهما الحجة على الأجيال والأمم.

نصوص نهج البلاغة

إن كلام الإمام علي وخطبه وحكمه كانت موضع اهتمام العلماء والأدباء منذ عهده، فكانوا يتذوقونها ويدونونها ويتأثرون بها بالرغم من الحرب الأموية عليه في حياته وبعد حياته، لم تستطع حرب طغاتهم أن تطفئ نور ذكره ولا أن تحجب كلماته عن التداول. فكان العلماء والأدباء يحفظونها ويتداولونها لتربية ملكة البلاغة لديهم. فكان عبد الحميد المقتول سنة ١٣٢ هـ كبير كتاب عصره وكتب آخر حكام الأمويين حين يسأل ما الذي خرّجه في البلاغة؟ فيجيب: حفظ كلام [علي].

وكان الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) بارع الفصاحة بليغ المواعظ كثير العلم «وجميع كلامه في الوعظ وذم الدنيا أو جلّه مأخوذ لفظا ومعنى من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فهو القدوة والغاية».

وقد نقل الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) جملة من نصوص خطبه الطوال وكثيرا من حكمه وأقواله في كتبه، وقد نقلها من كتب مجلدة. وكذا نقل المبرد (ت ٢٨٥هـ) في كتابه الكامل مجموعة من خطبه وأقواله، وبعض كلامه ذكره في كتابه المقتضب.

وذكر المسعودي (ت ٣٤٦هـ): «والذي حفظ الناس عنه من خطبه في سائر مقاماته أربعمائة ونيف وثمانين خطبة، يوردها على البيهية، وتداول الناس عنه قولاً وعملاً».

وقد جمع الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ) ما توصل إليه موثقاً من كلامه وخطبه وحكمه القصار في كتاب سماه «نهج البلاغة» اشتمل على ثلثمائة خطبة ومئة رسالة وخمسمائة حكمة.

لقد كان عنوان «نهج البلاغة» وضعه الشريف الرضي بحق، فهو نهج للبلاغة نفسها التي تصدر عنها مناهج البلغاء، وقد وصفه أصدق وصف في مقدمته بقوله: «الكلام الذي عليه مسحة من العلم الإلهي وفيه عبقة من الكلام النبوي»، وهذا أبلغ وصف لكلام الإمام الذي يمتد من القرآن الكريم متصلاً بكلام النبي مستوعباً طاقات الإمام الفكرية والثقافية وعلمه الذي اكتسبه من البيت النبوي، ومن تجارب الحياة.

وقد وصل نهج البلاغة من مراتب الكمال حدا قيلت فيه عبارة مشهورة ومتداولة بأنه كلام دون مستوى كلام الخالق وفوق مستوى كلام المخلوق باستثناء كلام النبي .

لقد كان في كلامه وخطبه متنوع الأغراض من دون تكلف ولا تصنع إنما كان يرتجل الخطبة ارتجالاً، فإذا هي معبرة أصدق تعبير، وكان مستوى الكلام لديه واحداً ليس فيه اختلاف ومن العبقرية أن كان أسلوبه في كتابته مثل كلامه مرتجلاً وأكبر الظن أن هذا الأسلوب الفطري في الكلام المنتظم المتناسك كان في ذهن الجاحظ حين تحدث عن بلاغة الخطيب إذ يصرف همه إلى الكلام «تأتيه المعاني أرسالا وتنتال عليه الألفاظ انثيالاً». وذلك ما وصف ابن أبي الحديد كلامه قائلاً: «وجدته كله ماء واحداً ونفساً واحداً وأسلوباً واحداً».

لقد ظهرت قدرته في الحديث بأي موضوع شاء قد اقتضاه المقام فكان كلامه محكم الصياغة حاضر البيهية يخرج كلامه من أعماقه صادقاً ويؤديه منسجماً وموضوعاً.

قد تكلم في الزهد فكان أزهى الناس، وتكلم في وصف الطبيعة ومظاهرها وفي خلق السماوات والأرضين وفلسفة خلقها وغاية خلقها وخصائص خالقها الذي «ليس كمثله شيء»، وتحدث عن طبائع البشر وحب الدنيا الذي يبعدهم عن السبيل الذي رسمه الإسلام لهم، وقد أبدع في وصف خفايا المخلوقات وإبداع خلقها وأطوار الإنسان وحالاته ومشاعره والتزامه في حياته ثم خلق النملة والخفاش والطاووس... وغيرها.

نحن لا نجد كتاباً قد استوعب كل هذا الكم من فنون المعرفة، فهو نهج للفقهاء ونهج للمتكلمين والفلاسفة والأدباء والسياسيين العدول، فكل إنسان يجد فيه ما يغذي فكره ومسيرته لأنه موسوعة معارف وكتاب دين ودنيا.

إنه أول نص ظهر من رحم القرآن الكريم، النص الذي نجد فيه روح القرآن وأساليبه ومناهج تفكيره قد استوعبت ما فيه من حكمة وأحكام وفقه وأساليب إبداع وتساوق مع آياته ذكراً حيناً وشرحاً أحياناً، يتناص مع مضمونها.

ويمكن أن نعدّه المعبر عن الخطاب الإسلامي والثقافة النبوية، أعطى للحضارة الإسلامية شكلها ومضمونها أنتجه فكر واع وقدرة فائقة بخصائص فنية وإبداع نادر.

فالإمام علي نشأ في بيت الرسالة قبل نزول الوحي وبعده وكانت حياته مع حياة الرسول صلوات الله عليه وآله ممتزجة، وكان قد حفظ ما نزل من الوحي على النبي منذ بدئه ووعاه وعمل به معه، وهو الحافظ للقرآن، وقائل المشركين للإيمان به وبتنزيله، وهو من أوائل كتبة الوحي المخلصين ثم إنه جمع القرآن بعد وفاة الرسول الكريم على أنه كان مجموعاً في وسائل الكتابة آنذاك في بيت الرسالة، وليس غريباً أن تتعدد فيه أقوال النبي صلوات الله عليه وآله صريحة بأنه امتداد للرسالة غضة وامتداد لخصائص صاحبها فيخطبه: «يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى»، وبمناسبة أخرى بقوله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»، وحين برز

لعمر بن عبد ودّ يصفه داعياً له بأنه برز الإيمان كله إلى الشرك كليه، وقوله مخاطباً: «لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق».

فاذا عرفنا هذا ووعينا عرفنا مدى وعيه وتعبيره عن أسرار النص القرآني ووصف غوامضها في كلامه وخطبه في (نهج البلاغة). فهما نصان متأخيان لكن الأول نتاج وحي رباني والآخر نتاج فكر وتجربة حياة في بيت ذلك الوحي.

لقد نهض كلامه وخطبه لإعادة الخطاب الإسلامي بعدما اهتز بظهور طبقة ضخمت ثرواتها بغير ما أمر به الإسلام من العدل والمساواة مع استغلال السلطة واستغلال المجتمع والتسلط عليه، فلم تكن نصوص خطب نهج البلاغة وأقوال الإمام علي خطب حاكم لمحكومين، وإنما كانت بسطاً عملياً لنهج القرآن الكريم وتعليمات الرسول العظيم.

لقد جاهد لتجديد خطاب الإسلام النبوي في وجه روح البداوة التي أيقظها التعصب، ولترسيخ قيم الحضارة الإسلامية والتزامها منهج حياة وتفكير وتأمل، لذا واجه الخطاب العلوي كثيراً من العسر في فهمه حدّ الحروب وإراقة الدماء، وبالرغم من كل المصاعب والعقبات ظل الخطاب العلوي باذلاً كل غال للحفاظ على القيم النبوية، كما ظل تأثيره يتفاعل على امتداد العصور، ولولا هذا الامتداد النبوي في الخطاب العلوي والتضحية لتثبيته لبلغ الانحراف مداه ولما كان تمييز بين الحق والباطل.

لقد كان خطاباً لإيقاظ الأفكار وتحريضا لهم ونورا يضيء الآفاق المعتمة.

خصائصه التركيبية

لقد مر بنا أصدق وصف للشريف الرضي لكلام الإمام علي في مقدمة النهج قائلاً: «الكلام الذي عليه مسحة من العلم الإلهي وفيه عبقة من الكلام النبوي»، لذلك نحن لا نفصل في حديثنا النص عن مبدعه كما يفصل بعض المناهج وإنما النص هنا ومبدعه كيان واحد كاللفظ والمعنى فهما متلازمان.

وقراءة نهج البلاغة تثير آفاقاً فكرية وبنوية في الصوت والمفردة والعبارة يمتد فيها البحث والأمثلة. أليس كلامه نبذة اخضرت في بيت النبوة وسقيت من كوثرها واحتضنت كتابها حتى تشبعت من علومها وأسرار تعبيرها؟

لذلك وصف بأنه فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق.

سنبين جملة من الظواهر اللغوية هنا وبعدها الأسلوبية ونختم ببيان سبب اختيارنا لانجاز عمل في اعرابه وبيان معانيه إلى جانب شروحه بطبعاته الكثيرة.

المستوى الصوتي في التركيب:

يتضح هذا المستوى في تناسق المقاطع اللغوية من الحركات والسكنات للحروف في الكلمة الواحدة أو في تناسقها في سياق العبارة مع غيرها، وهذا التناسق سمّي حديثاً بالإيقاع.

وهو ما كان النقاد العرب والبلاغيون ما يصفونه بمصطلحات مثل السلاسة والعذوبة والحلاوة والطلاوة كما هو في قول الوليد بن المغيرة حين سمع الرسول صلوات الله عليه قرأ آيات من القرآن الكريم انبهر منها فعاد إلى قومه قائلاً في الكلام الذي سمعه: «إنّ له لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة وإنّ أسفله لمُعْذِق، وإنّ أعلاه لمثمر» فالإيقاع نستطيع تحديده انه تتابع المقاطع اللغوية وانسجامها وايحاؤها بنظام من موسيقى الكلام، وهو ما عبر عنه ابراهيم الموصلي بقوله: «من الأشياء أشياء تدركها المعرفة ولا تحيط بها الصفة».

كان النقاد العرب يصفون المستوى الصوتي وأثره في نصوص المبدعين دون تسميته وقد تفنن عبد القاهر الجرجاني في الحديث عن اعجاز القرآن وبديع نظمه. وقارئ نصوص نهج البلاغة قراءة فنية يحس بهذا التناغم الإيقاعي في مفرداته وفي سياقها، وهو إيقاع توازن لا إيقاع وزن. فايقاع التوازن تتصف به النصوص النثرية العالية في تناسق مقاطعها اللغوية وترتيب مفرداتها في التركيب. أما إيقاع الوزن فهو الإيقاع الذي يتصف به الشعر.

وفرق ما بين الإيقاعين: أن الأول تتابع وتناسق وتوازن في مقاطعه، وليس شرطاً أن يتوحد هذا التتابع وإنما يتنوع بإيقاعاته في المفردة أو بتمائله في نهايات الجمل بسجعاتها. أما إيقاع الوزن في الشعر فيستمر في كل بيت من القصيدة وإن انتهى كل بيت بقافية موحدة، لكن الأبيات الأخرى يستمر التتابع نفسه دون تغيير وإلا انكسر الوزن.

فهو «كلام يستغرق التلفظ به مُدداً من الزمن متساوية الكمية» هذا في شعرنا القديم، أما في الشعر الحديث فمنه ما يلتزم بوحدة الإيقاع دون وحدة القافية، ومنه ما سمّي بالقصيدة الإيقاعية (قصيدة النثر) وهو ما يزال عائماً بين الشعر والنثر.

نجد أحياناً إيقاع التوازي في سياق الكلام مع إيقاع التوازن في سجعته النهائية. فالتوازي هو تساوي الجمل وتشابه سجعتها. أما التوازن فالإيقاع مع توازن سجعاتها كما في قوله في ابتداء خلق السموات والأرض: «الله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحصى نعمائه العادون، ولا يؤدي حقه المجتهدون، الذي لا يدركه بُعدُ الهمم، ولا يناله غرضُ الفطن، الذي ليس لصفته حدٌ محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود.».

فالجمل الأولى تنتهي بسجعات متوازية (القائلون، العادون، المجتهدون) كما أن أطوالها متوازنة ومتوازية. ثم تأتي سجعات متوازنة أي مقاطعها اللغوية متساوية (الهمم، الفطن) ثم يعود إلى السجعات المتوازية.

هذا الاتساق الموسيقي يعطي للنص سلاسة في القراءة، وتأثيراً في التلقي. كذلك نجده يقدم ما حقه التأخير ليتسق السجع ويخفّ السياق، فيقدم شبه الجملة على متعلقها لأهميته: «أنشأ الخلق انشاءً، وابتدأه ابتداءً بلا روية أجالها ولا تجربة استفادها..» وقوله في موضع آخر: «وعلى كتاب الله تعرض الأمثال، وبما في الصدور تجازي العباد» وقوله: «بهم سارت أعلامه وقام لواؤه.» وأحياناً يتقدم شبه الجملة مع الضمير العائد على متأخر للاتساق في قوله: «وجرت على أذالها السنن».

ونجد تناسق الإيقاع أحياناً يكون باستخدام الأصوات استخداماً موحياً، وهي حالات نادرة في اصغائه لجوهر اللغة، كتكراره الشيء في قوله لأصحابه في ساحة صفيين: «وكأني أنظر إليكم تكشون كشيش الضباب، لا تأخذون حقاً ولا تمنعون ضباً»، فتكرار الشين أربع مرات في فعل ومصدره المؤكد يوحي بالأصوات والضجيج غير المجدي.

وقوله في حثهم على الجهاد فسكتوا: «ثم أخرج في كتيبة اتبع أخرى، أتقلقل تقلقل القُدح في الجفير الفارغ»، فتكرار القاف يوحي بمحاكات الحدث الذي هو في صدره.

وكقوله في خطبة له لما بويج في المدينة: «..ألا وان بليتكم قد عادت كهيتها يوم بعث الله نبيّه، والذي بعثه بالحق لئبليّن بلبلة ولئغرّبليّن غرّبة..» فتكرار الباء مع نون التوكيد تجعل اللسان يضطرب في نطقها يحاكي الخلط والاضطراب الواقع فيهم. وأحياناً يكون التناسق بتكرار الصيغ وتتابعها كما في قوله ينصح أصحابه ويذكر من يحب: «قومٌ والله ميامين الرأي، مراجيح الحلم، مقاويل بالحق، متاريك للبعي. مضوا قدماً على الطريقة، وأوجفوا على المحجة..»

وكتكراره نداء الدعاء في الاستسقاء وتكرار النون المشددة تحاكي أنين المتألمين: «اللهم قد انصاحت جبالنا واغبرت أرضنا.. اللهم فارح أنين الآتة، وحنين الحاتة، اللهم فارحم حيرتها في مذاهبها.. اللهم خرجنا إليك حين اعتكرت علينا حدابير السنين» وكلمة «حدابير» لها رنين يوحي بقسوة السنين.

وتكراره النداء التعجبي في خطبته: «فيا عجباً عجباً -والله- يमित القلب ويجلبُ الهم»، هذا النوع من العبارات وتكرار مقاطعها وإيقاعاتها في تركيبها نراه هنا وفي القرآن الكريم له دلالات موحية بمعان غير المعاني المعجمية، والنصان متعانقان في أساليبيهما، فالأول وحي إلهي والآخر نشأ وتشعب بثقافة وروح ذلك الوحي.

المستوى التركيبي:

الجملة في النظام النحوي مكونة من ركنين هما: فعل واسم في الجملة الفعلية، واسمان في الجملة الاسمية قرينتهما الاسناد، وقد يربط أحد الركنين حرف، ولكن في العربية تراكيب لا تدخل في هذا التقسيم إلا بتأويل وتقدير بعيدين، نحو تركيب النداء والذي يتكون من حرف، واسم، وعبارة القسم، وعبارة الخالفة (اسم الفعل) والمصدر المنصوب، وألفاظ التنزيه. وإن تقسيم النحويين للجملة كان على وفق تركيبها، لكن البلاغيين قسموها بحسب وظيفتها إلى الخبر والانشاء. فالخبر يشمل الجملة المثبتة والمؤكد والمنفية. أما الإنشاء فيشمل الأمر والنهي والاستفهام والشرط والنداء والتعجب... مما استوعبته سياقات الاستعمال. ينبغي لنا أن ننظر في دراسة الجملة إلى الاستعمال وسياقاته التي تتعلق بالوجه البلاغية. فنجد مدى تأثير الأدوات في تعدد أنماطها، فقد يتعدد النمط الواحد، وقد تتعدد دلالة الأداة الواحدة، وكل ذلك ذو أثر في صورة الجملة ودلالاتها، كتعدد دلالة الاستفهام والشرط والنداء والتعجب وغيرها من الأساليب، وقد شعر البلاغيون في دراساتهم أن الجملة لا تبقى على دلالتها في تركيبها الأصلي وإنما قد تُنقل دلالة التركيب إلى دلالات أخرى على وفق سياق الاستعمال، فالسياق هو أكبر القرائن في تحديد المعنى، فقد جاءت اشارات في دراساتهم ومباحثهم لذلك ما سماه ابن جني بـ «شجاعة العربية» وما عرض له عبد القاهر الجرجاني في فكرة النظم التي جعلها مدار اعجاز القرآن الكريم، ولكن لم يزد النحويون على أقسام الجملة التي جاءت في كتاب سيبويه.

فاذا عرفنا أننا إزاء كلام هو امتداد للخطاب القرآني، والأسلوب العلوي الذي كان كلامه نهجاً لأصحاب الفكر والفقه والكلام والفلسفة والحكمة والأدب والبلاغة، وجب أن نتدبر صوراً من أساليب التعبير في كلامه في النفي والتوكيد والتقديم والتأخير والاستفهام والشرط والنداء والتعجب وما فات النحويين من تركيب الجملة العربية وتقسيمها تقسيماً يوافق أساليب العربية وتراكيبها، لإهمالهم التوسع في الافادة من كلام كبار البلغاء وعلى رأسهم النبي، وكلام الامام علي، وكان بين أيديهم. سنجد الأدوات تتعدد وظائفها ويعدل بها من أسلوب إلى آخر إذا كانت قرينة السياق توحى بذلك وهذا التعدد في وظائف الأدوات وأنماط الجمل جعل العربية تتمدد للتعبير عن المعاني غير المتناهية بهذه الأدوات المحدودة في اللغة. هذا إلى جانب الاتساع والمجاز الذي وسع من آفاق التعبير، فجعلها تستوعب كل ما يريد الفكر التعبير عنه كما هو في نهج البلاغة، لذلك كله ينبغي لنا أن نعيد النظر في قسمين من الجمل لتضاف إلى ما ذكره هما: الجملة الوصفية والجملة المكتفية. ونعند بتمام المعنى وفهمه حكماً، لأن الاسناد لم يكن الحكم الفارق للجملة، فهناك جمل فيها اسناد لا تستقل بالمعنى نحو: صلة الموصول وجملة الخبر وجملة الوصف، كما أن هناك عبارات ليس فيها اسناد وإنما تفهم دلالتها من سياقها كعبارات القسم والنداء والتعجب، وجاءت في نهج البلاغة بمختلف صورها ودلالاتها.

الجملة الوصفية:

استعمل الوصف (اسم الفاعل والمفعول والصفة المشبهة) استعمال الفعل. والنحويون أشاروا لذلك لكنهم لم يعدوا تركيبه نوعاً من الجملة غير تقسيم الجملة الى اسمية وفعلية، ووضعوا شروطاً لإعماله: أن يسبقه استفهام أو نفي أو نداء أو (ال) الوصلية، نحو: أقارئ زيد كتاباً؟ واختلفوا في إعرابها. فهم يعربون (زيد) مبتدأ مؤخر و(قارئ) خبر مقدم فالجملة اسمية أو يعربون (قارئ) مبتدأ و (زيد) فاعل سد مسد الخبر، وفي هذه الحال يكون في الجملة مسنداً إليه اثنان، وهم يقرّون أنّ اسم الفاعل والمفعول يستعمل استعمال الفعل المضارع. وبناء فاعل ومفعول صيغتان يقبلان علامات الاسم، التنوين والاضافة واتصالهما بـ (أل)، والكوفيون عدّوهما القسم الثالث من الأفعال هو الفعل الدائم بعد الماضي والمضارع ولم يشترطوا لاكتفائه عن الخبر وقوعه بعد الاستفهام والنفي.

وبناء فاعل يتضمن معنى الحدث والموصوف به لكنه لا يتضمن معنى الزمن كالفعل إلا أنه في استعماله يدل سياقه على الحال والاستقبال، ويعمل إذا كان منوناً فاذا كان معناه ماضياً لم يكادوا يقولون إلا بالاضافة. وهذا قول البصريين والكوفيين لكن الاستعمال القرآني خالف ذلك فجاء به منوناً دالاً على الماضي نحو قوله: (.. وكتبهم بأسط ذراعيه بالوصيد) وقوله تعالى: (ولا أنتم عابدون ما أعبد. ولا أنا عابدٌ ما عبدتم)، وهذا يدل على أن صيغة (فاعل) يدل المنون منها على معنى المضى.

ويتفق النحويون على اختلاف مذاهبهم على أن صيغة (فاعل) و(مفعول) يتضمن معنى الحدث أما الزمن فدلالتهما عليه بقرينة إما لفظية نحو أمس أو غداً وإما حالية، كأن تقال الجملة في أثناء وقوع الحدث فيكون المقام هو القرينة. وفي هذه الحال يعرب الوصف في الجملة (أقائم محمد) الهمزة للاستفهام، وقائم صيغة فاعل استعملت استعمال الفعل، (محمد) فاعل. والجملة وصفية وهي قسم ثالث للجملة.

وقد جاء هذا الاستعمال في نهج البلاغة كثيراً، ففي الخطبة الأولى جاء قوله في أطوار الملائكة: «ومنهم الثابتة في الأرض السفلى أقدامهم، والمارقة من السماء العليا أعناقهم، والخارجة من الأقطار أركائهم، والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم، ناكسةً دونه أبصارهم، متلفعون تحته بأجنحتهم، مضروبة بينهم وبين من دونهم حُجُب العزة..»، ومن كلام له: «ولكن محجوبٌ عنكم ما قد عاينوا، وقريب ما يطرح الحجاب»، وقوله في استنفار الناس للجهاد: «والله إنَّ امرأً يمكنُ عدوّه من نفسه يعرُقُ لحمه ويهشِمُ عظمه.. لعظيم عجزه، ضعيفٌ ما ضمّت عليه جوانحُ صدره».

هذا النوع الآخر من الوصفية إنَّ الوصف يقع في موضع إعراب لكنه استعمل استعمال الفعل فعبارة (لعظيم عجزه) خبر (إنّ) مؤلف من الوصف وفاعله. ومن هذا الاستعمال قوله «في القرآن وأحكامه الشرعية»: «كتاب ربكم فيكم، مبيناً حاله وحرامه.. مفسراً مجمله ومبيناً غوامضه، بين مأخوذ ميثاق علمه.. وبين مُثَبَّتٍ في الكتاب فرضه..»

الجملة المكتفية:

قد يؤدي التركيب المعنى في سياقه من دون الحاجة إلى تقدير أو تأويل فقد يذكر المبتدأ من دون ذكر الخبر أو الخبر فقط أو تركيب اضافي أو كنائي أو كلمة تنزيه ودعاء أو مصدر منصوب أو خالفة أو ما يسمى بالنحو باب الاغراء والتحذير والاختصاص.. كل ذلك يؤلف جملاً مكتفية بالمذكور، لأدائها المعنى، وكما ذكرتُ أنّ أداء المعنى في سياقه يكفي لكونه جملة.

فالنحويون حين قسموا الجملة إلى اسمية من مبتدأ وخبر، وفعلية من فعل وفاعل، جعل الاسناد يربط بين طرفيها منذ الخليل في كتاب سيبويه، لكن «الكتاب» لم يفرق بين الجملة والكلام فهما لديه مترادفان فالكلام ما قام برأسه مستقلاً بمعناه.

وكذلك ابن جنّي رادف بينهما قائلاً: «أما الكلام فكل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه، وهو الذي يسميه النحويون الجمل نحو: زيد أخوك، وقام محمد وضرب سعيد.. وصه ومه ورويد وحاء وعاء في الأصوات.. وأفّ وأوه، فكل لفظ استقل وجُيِّت منه ثمرة معناه فهو كلام».

وكذا ابن يعرب قال: «الكلام عند النحويين عبارة عن كل لفظ استقل بنفسه مفيد لمعناه ويسمى جملة».

فمن لم يؤكد على الاسناد في الجملة واكتفى بإفادة المعنى كان ينظر إلى النداء، لأنه من حرف واسم، فهو يخلو من الإسناد ومن أكد على الإسناد كان في دائرة التأويل والتقدير.

لقد ورد ذكر الجملة المكتفية لدى بعض النحويين القدماء. قال الفراء في معنى الآية: (بسم الله مجراها ومرساها): «إن شئت جعلت (بسم الله) ابتداء مكتفياً بنفسه كقول القائل عند الذبيحة أو عند ابتداء المأكل وشبهه (بسم الله)».

وكذلك ذكر الاكتفاء عن ذكر المرفوع بعد (نعم وبئس) اذا اتصلا بالموصولات (الذي أو ما أو من). وذكر الاكتفاء ابن ولاد في ذكره الفعل حلف وأقسم نحو: حلفت على زيد لا أكلمه، «وإن شئت قلت: حلفت على زيد، ولم تأت بجواب، لأن حلفت جملة مكتفى بها..».

واعتمد الدكتور المخزومي إفادة المعنى في تحديد الجملة قائلاً: «والجملة في أقصر صورها هي أقل قدر من الكلام يفيد السامع معنى مستقلاً بنفسه، ليس لازماً أن تحتوي على العناصر المطلوبة كلها، وقد تخلو الجملة من المسند اليه لفظاً، أو من المسند لوضوحه وسهولة تقديره كخلوها من المسند اليه في نحو قول المستهل: «الهللَ والله» «أو من المسند في نحو قولك: خرجت فاذا السبع..».

وقد درس الدكتور احمد عبد الستار الجواري الجملة القرآنية فوجد كثيراً ما تستغني عن طرف فيها فيكون الاكتفاء بالمذكور واستشهد بجملة من الآيات.

وجاء في كتاب «اللغة» لفندريس قوله: «بالجمل حصلنا لغتنا، وبالجمل نتكلم، وبالجمل نفكر أيضاً.. والجملة تقبل بمرورتها أداء أكثر العبارات تنوعاً، فهي عنصر مطاط، وبعض الجمل يتكون من كلمة واحدة: (تعال) و(لا) و(والأسفاه) و(صه)، وكل واحدة من هذه الكلمات تؤدي معنى كاملاً يكتفي بنفسه».

أما برجستراسر فقد فرق بين الجملة والكلام قائلاً: «ومن الكلام ما ليس بجملة بل هو كلمات مفردة أو تركيبات وصفية أو اضافية أو عطفية غير اسنادية مثال ذلك: النداء، فان (يا حسن) ليس بجملة ولا قسم من جملة وهو مع ذلك كلام ويشبه الجملة في أنه مستقل بنفسه لا يحتاج إلى غيره مُظهِراً كان أو مقدراً،... وأنواع أشباه الجمل على اختلافها قد تقرب في بعض الأحيان إلى الجمل الكاملة، وذلك يكون على وجهين: إما بإعمالها عملاً كعمل الأفعال نحو: دونك أخاك، أو بعطف اثنين منها بعضها على بعض نحو: اياك والأسد، فهي من جهة المعنى مساوية لجملة كاملة».

نخرج من دراستنا الجملة العربية بما يأتي:

انها ترادف الكلام كما ذكرت عند سيبويه وابن جني وابن يعش. الفرق بين المصطلحين أن الكلام يفيد المعنى مستقلاً بنفسه، والجملة فيها اسناد قد تكون كلاماً مفيد المعنى وقد لا تفيد المعنى مع الاسناد كصلة الموصول وجملة الشرط وغيرها.

الجملة قدر من الكلام يفيد السامع معنى مستقلاً بنفسه وليس لازماً أن تحتوي العناصر كلها وانما تكتفي بالمذكور منها في أداء المعنى. وهذا ما نذهب اليه.

لقد جاء من التراكيب المكتفية المفيدة مع عدم الاسناد الكثير في «نهج البلاغة» وكل منها يؤدي معناه في سياقه فهو من الجمل المكتفية التي ينبغي أن تدرس في كلامه. من ذلك ما جاء في تراكيب القسم المختلفة: «أما والله» لتأكيد الحدث، «فَمَنَى الناسَ -لعمركم- بخبط وشماس» لتأكيد أسفه على ما وقع، «بلى -والله- لقد سمعوا» لتأكيد تساؤل النفس في أخذ حق، «أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة» قسم كنائي وصفي، «والذي بعثه بالحق»، هذه وغيرها كلها جمل مكتفية.

وجاءت بصور أخرى نحو: المصدر المنسوب (فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً، حين صرتم غرضاً يرمى..)، وقوله: (أقولاً بغير علم، وغفلة من غير ورع، وطمعاً من غير حق!)، صورة النداء في قوله: (يا أشباه الرجال ولا رجال).

صور الإغراء والتحذير في قوله: (كتاب الله ربكم فيكم)، وقوله في سفارته لعثمان: (فالله الله في نفسك..).

صورة الخبر، الجملة الأولى والأخيرة في قوله: (أعاليلٌ بأضاليل، وسألتموني التطويل، دفاع ذي الدين المطول)، وكذا قوله في خطبة له في المدينة: (ألا وان التقوى مطايا دُئل، حُمِلَ عليها أهلها، وأعطوا أزمَّتْها فأوردتهم الجبَّة، حقٌّ وباطلٌ، ولكل أهلٌ، فلئن أمرَ الباطل لقديماً فَعَلَ، ولئن قلَّ الحق فلربما ولَعَلَ)، وكذا قوله: (قومٌ والله ميامينُ الرأي، مراجيحُ الحلم، مقاويل

بالحق)، وقوله باستعمال الخالفة والكناية: (هيهات بعد اللتيا والتي)، وكذا استعمال الخالفة في حال الضجر: (أف لكم، لقد سئمتُ عتابكم)، وفي حال التحسّر: (أه من قلة الزاد وطول الطريق)، وقوله: (أوه على اخواني الذين تلأوا القرآن، وتدبروا الفرض فأقلموه)، وقوله في لوم المخاطبين باستعمال الخافض وأداة الاستفهام: (ولكن بمن؟ وإلى من؟ أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي، كناكش الشوكة بالشوكة، وهو يعلم ضلعها معها).

هذه كلها وأمثاله كثيرة في نصوص نهج البلاغة يمكن أن تدرس دراسة مطولة جمل مكتفية تفهم من سياقاتها. لا تحتاج إلى تقديرات تذهب روعة أساليبها.

المستوى الأسلوبى:

إذا اختلف في الإمام المختلفون فهم لا يختلفون في قدرته البلاغية الفائقة التي تبدع الكلام في حينه ومناسبته، إذ هو يلقي كلامه محكما بأسلوب يضيئه المجاز بألوانه، يصدر عن صدقه وإيمانه، وتجاربه التي عرفت الحياة وطبائعها وخفاياها. فهو امتداد للخطاب النبوي، لذلك كان وعيه عسيراً على الكثير من معاصريه الذين أسرتهم المصالح والعصبيات، فكلامه لا يخطئه من يسمعه أن يشير إليه، بدلالات سياقية تفتح للسامع آفاق المعاني في التأمل، وألوان المعرفة، فخطابه يمتاز ببنية اللغة وعمق الفكرة والاجتهاد في التوجيه.

لقد حاول بعض رواة الأخبار أن ينسب خطبة له إلى معاوية للتقرب، فاكشفها أبو عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) بحسه النقدي الدقيق قائلاً: «وفي هذه الخطبة أبقاك الله ضرّوب من العجب: منها أن الكلام لا يشبه السبب الذي من أجله دعاهم معاوية، ومنها أن هذا المذهب من تصنيف الناس وفي الأخبار عما هم عليه من القهر والإذلال، ومن التقية والخوف أشبه بكلام علي ومعانيه منه بحال معاوية، ومنها أننا نجد معاوية في حال من الحالات يسلك في كلامه مسلك الزهاد، ولا يذهب مذاهب العباد.. والله أعلم بأصحاب الأخبار وبكثير منهم». وكذلك عقب الشريف الرضي على هذه الخطبة وقد أثبتتها إلى الإمام في نهج البلاغة قائلاً: «وهذه الخطبة ربما نسبها من لا علم له إلى معاوية وهي من كلام أمير المؤمنين الذي لا يُشك فيه. وأشار إلى ذكر الجاحظ متهما الرواة.

لقد امتاز كلام الإمام وخطبه بخصائص لغوية وبدلالات مقصدية وبنظم سياقية اختص بها، وبذلك كان كلامه دالاً على شخصه فهو امتداد لخصائص الثقافة النبوية، وهنا يتوحد الدال والمدلول كما يتوحد النص ومنتجه فلا نستطيع الفصل بينهما. يتمثل خطابه بتتابع الصور وحركة التراكيب، وشبكة علاقات الكلمات فيه مولداً للدلالات الراسمة لصورها، والناطقة بأصواتها وأنساقها، فتظهر عمق تجربته، وخلق صورته حتى تحس عند قراءته بهزة وحركة فكر لهول ما يصفه من أحداث، والاستغراق في التفكير والتأمل لعمق ما يصفه من خلق الكون وغاياته ووصف مخلوقاته، وكلامه في الزهد بالدنيا ومغرياتها وغير ذلك من الأغراض.

يبلغ أسلوبه قمة الجمال وقوة التأثير حين تنور عاطفته وتجيّش مشاعره في مواقفه، فتحضر تجاربه وأحداث الحياة التي مارسها وتمرّس فيها، فاذا بالكلام يتدفق من أعماقه وصدق مشاعره تدفقاً، ويمتاز أسلوبه في هذا الموقف بقوة الحجة، وتدرج الحديث في تعبير مؤثر، فيستعمل التكرار للتقريب والتأثير، ويختار الألفاظ والمترادفات أو المقابلات المناسبة، وتتداخل فيه أساليب الخبر والإنشاء من النفي والتوكيد والاستفهام والشرط والتعجب والأمر والنهي، فتظهر على أحسن صورها، وفي أفضل دلالاتها وسياقاتها.

هذا الأسلوب المعبر عن فكر وقدرة وتجربة نادرة هو الذي أنطق الشريف الرضي بوصف كلامه بأنه «الكلام الذي عليه مسحة من العلم الإلهي، وفيه عبقة من الكلام النبوي»، هذا أبلغ وصف لكلام الإمام، فهو الامتداد المتواصل من عمق الثقافة القرآنية وكلام النبي ممتزجاً بقدراته الإبداعية.

أكتفي بذكر بعض خصائصه بحسب ما تتسع له مسافة البحث، لأخلص إلى أنماط التركيب اللغوي لديه.

تناغم الأساليب وتداخل وظائفها وتراكيبها:

نقرأ في النص الواحد تعانق أجزاءه، وتلوين فواصله، فلا يشعر المتلقي بانفصال دلالة بعضها، وإنما هي مركبة تركيباً فنياً متراسماً ومتكاملاً في أفكاره وصوره، فهي تتنامى وتتكامل عباراتٍ يكمل بعضها بعضاً وكأنها قطعة واحدة.

ففي خطبة له يذكر فيها خلق السماء والأرض: «أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، بشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير صفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه..».

وهكذا يتسلسل الكلام بجمل خبرية في البداية، ثم تحول إلى الجمل الشرطية من (فَمَنْ وصف الله..). ودلالات الجمل المذكورة توحيد الله تعالى، ثم يدخل في الشرط أسئلة الفلسفة (ومن قال: فيم؟ فقد ضمّته، ومن قال علام، فقد أخلى منه) ويستمر بجمل مكنتية خبرية مبتدأتها مفهومة (موجود لا عن عدم، مع كل شي لا بمزايلة، فاعل بمعنى الحركات والآلة..).

هذا التنوع في أساليب التعبير من خصائص كلامه فهو العارف بأساليب كلام العرب وأساليب القرآن الكريم مع ما تبدعه قدرته وذكاؤه من أساليب وصور في التعبير. وهذا التنوع في أطوال الجمل، وفي سجعاتها وتراكيبها يجعل من كلامه قمة الإبداع خصوصاً حين يكون متوهج العاطفة في مواقفه.

وقد تتابع الجمل الاسمية بالعطف وسطها استثناء تتابعاً يوحى بدلائل مع تناسقها في سياقها نحو قوله «كل مسمّى بالوحدة غيره قليل، وكل عزيز غيره ذليل، وكل قويّ غيره ضعيف، وكل مالك غيره مملوك، وكل عالم غيره متعلم..».

جمل متعاطفة، كل منها تقابل نقيضها يتوسطها استثناء، هذا التتابع يجعل المتلقي يردد تكملة كل جملة مع الخطيب في أثناء خطبته، وهو أسلوب يمتاز بالشعرية بجذب المتلقي السامع فيرصد أواخر الجمل.

يمكن أن نتخذ كثيراً من خطبه وكلامه في هذا المجال من تداخل الأساليب، وتشابك وظائف تراكيبها، وتعانقها في كلامه.

ننظر في واحدة منها نموذجاً وهي المعروفة بـ (الشقشقية).

جاءت الخطبة بلغة فنية عالية عبّر بها عن حزن وهم احتمله بالصبر لكنه عبّر عنه هنا بصوت هادر وصراحتة الصادمة، فجاءت لغته تحكي اللحظات التي استحضر فيها كل آلامه منذ أن انتقل النبي إلى جوار ربه، فإذا قرأناها قراءة سياقية نصّية أدركنا أبعاد بنيتها.

فالخطبة قصة تاريخية صاغها بلغة فنية مؤثرة، وهي تتألف من أربعة مشاهد متكاملة مترابطة، بدأ أولها بجملتين كل جملة بتوكيدين: أولهما بالقسم ولام التوكيد، ثم عطف عليها أخرى بتوكيدين أيضاً أراد بهما أن يثبت حقه المغتصب، مع عظيم قدره وعلو همته وسلوكه العلوي الذي غايته الحفاظ على وحدة الأمة، وتلك دلالة تكررت في خطبه وأقواله: «أما والله لقد تقمّصها فلان، وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحي» إنّه لقسم طالما كرره في خطبه للتعبير عن موقف لا ريب فيه، فحقه لا يمكن تجاهله، و(فلان) المكني عنه عالم بذلك وعارف بصاحبه الذي لا يرقى إليه الطير لعلو شأنه، ومع ذلك انحنى على جرحه واحتمل البلوى متغاضياً معبراً بكنائيات شعرية التعبير «فسدلتُ دونها ثوباً، وطويت عنها كشحاً» في تلك اللحظات طفق يتأمل، هما موقفان بالغا الصعوبة لا بد من أحدهما: بين أن يصلو لحقه مع قلة الناصر أو أن يصبر «على طخية عمياء» صورة مجازية معبرة عن شدة ظلامها. وصفها بعبارة مجسّدة «يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير» لكنه اختار الصبر «فرايت الصبر

على هاتا أحجى» فهو منهجه في حياته النهي عن الفتنة، واتباع العقل ويصل إليه ما دام به الحفاظ على كيان هو أكبر المشاركين في بنائه مع رسول الرحمة.

وبعد أن مضى (فلان) لسبيله لم يتغير الموقف من حقه، فوقف متعجباً: «بيناً هو يستقبلها بحياته، إذ عقدها لآخر بعد وفاته». يبدأ هنا المشهد الثاني بالنداء التعجبي «يا عجباً» وبالعبارة الشرطية الظرفية وجوابها بـ (إذ) وتقديم الضمير (هو) على الفعل للتخصيص والتوكيد.

وتقديم الضمير للتخصيص من أساليب القرآن الكريم نحو قوله تعالى (كلا انها كلمة هو قائلها) ٢٣: المؤمنون، ثم أعقبه بعبارة تعجب أخرى «لشدّما تشطّرا ضرعيها» فالخلافه ذات ضرع حجز كل منهما شطره ارتثاً. فسيرها «الأخر في حوزة خشنا» قبليّ فيها الناس «بخبطِ وشماس» بتخبط ونفار. وقد أكدّه بعبارة القسم «لعمر الله». وعبارات هذا المقطع في وصف هذه المرحلة من الفصاحة المحكمة في مبناها والدلالة في معناها، فعباراتها ينبغي أن تكون في ضمن معجم للتراكيب في «نهج البلاغة» كما تكون لمفرداته وغريبه معجم أيضاً. «سيراها في حوزة خشنا، يغلظ كلامها ويخشن مسها ويكثر العثار فيها» وقبلها «أن محلى منها محلّ القطب من الرحي، ينحدر عني السيل ولا يرقى إلى الطير، فسدت دونها ثوباً، وطويت عنها كشحاً» فلا مزيد لمستزيد على هذه العبارات وغيرها كثير في شدة وصفها، واستخدام التشبيه النابع من بيئته «فصاحبها كراكب الصعبة إن أشنق لها خرّم وغنّ أسلس لها تقحّم» فراكب الصعبة من الإبل يصعب قيادها يحار ركبها، هل يشدّ زمامها فيخرم أنفها أو يرخيه فتهلكه...

وفي هذه الحال «مئيّ الناس لعمر الله بخبط وشماس» استمر صابراً على شدة المحنة وهنا ينتهي المشهد الثاني ويبدأ الثالث «حتى إذا مضى لسبيله جعلها في جماعة زعم أني أحدهم، فيا لله وللشورى»، نلاحظ استعمال الروابط (حتى) و(إذا) التي هي هنا أقرب إلى الزمنية بأسلوب الشرط ثم الفعل (زعم) كيف يقف ساخراً ثم عبارة النداء التعجبي على صورة الاستغاثة «فياالله وللشورى» ثم سؤال التعجب والاستغراب «متى اعترض الريب فيّ مع الأول منهم حتى صرتُ أقرنُ إلى هذه النظائر؟!» وفي هذا السؤال تبرز صور الأحداث منذ نشأته الأولى مع رسول الله وخوضه الأحداث لإقامة صرح الإسلام، وموقف قریش من الرسول أول الأمر ثم صوت رسول الله وأحاديثه وأقواله فيه «يا علي لا يحبك إلّا مؤمن ولا يبغضك إلّا منافق» و«أنت مئيّ بمنزلة هارون من موسى» والآن هو أحد جماعة الشورى، وجماعة الشورى مال كل إلى ما يخصّه، فمنهم من كان يكنّ له الحقد فمال عنه ومنهم من فضلّ صهره مع الميل إلى «هن وهن» كئي بها عن أغراض أخرى هي المصالح الخاصة وما جنوه وكدسوه من المال والعقار، فكانت نتيجة الشورى هي المشهد الثالث وما كان فيه من تحكّم بني أمية في أمور الخلافة فهم «بنو أبيه» استغلّوا ضعفه وعاطفته فتحكّموا بتوزيع المال والجاه والسيطرة على مقدرات الرعية حتى دارت الأيام عليه بسبب ما فرط في أمر الخلافة، وحكّم من حرفها عن خدمة الرعية إلى «أن انتكث عليه قتله وأجهز عليه عمله» فانتهى المشهد بهذه العبارات المجازية الكنائية، ليبدأ المشهد الرابع.

توجه الناس نحو عليّ لمبايعته بالخلافة، ينتالون عليه من كل جانب فتأمل الحال، فما كان له إلّا قبولها فهي تكليف «لقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم» ثم ليصلح ما حدث من انحراف في الحكم عن الحق، لكنه لم يسلم من رؤوس الفتنة، فقال متعجباً «فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة، ومرقت أخرى، وقسط آخرون» ثم تساءل باستغراب متعجباً «كأنهم لم يسمعوا الله يقول: (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض..)» ويجيب مع القسم «بلى، والله سمعوها ووعوها ولكنهم حلّيت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجها» ثم ختمها بقسم شديد «أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة.. لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفة عنز» فتعدّد جواب لولا ثلاث مرات دليل على شدة غيظه وآخرها أبان تفاهة الدنيا لديه.

هذه الخطبة تكاملت لغة ودلالة. وجدناها تتنامى بمشاهدها. بدأت بالقسم والتأكيد وانتهت به، وتكرر القسم بصور مختلفة أربع مرات كما تكررت صور التعجب أيضاً خمس مرات واستعمل الاستفهام بصورتيه: بالأداة «متى اعترض الريب في...» وبالتنغيم «وكأنهم لم يسمعوا كلام الله..»

واستعمل عبارات المفاجأة التي صارت مثلاً للأدباء:

بينما هو يستقلها.. إذ عقدها لآخر

فما راعني إلّا والناس كعرف الضبع

فلما نهضتُ بالأمر نكثت طائفة...

وتلاحقت تراكيبها، أحدها يعانق الآخر فتخرج متماسكة بلغة المجاز بأنواعه الكناية والتشبيه والاستعارة ثم الاستشهاد بالآية التي تثبت الحجة.

ولما قطع الخطبة رجل من أهل السواد بسؤاله سكت الإمام، وتمنى عبد الله بن عباس عليه الأطراد والاستمرار فأجابه «هيهات يا ابن عباس تلك شقشقة هدرت ثم قرّت»، إذ انقطعت لحظات الإبداع التي يستحضر فيها إمكاناته العقلية والثقافية وكل ما في وعيه من الأحداث لذلك فهي هدرت ثم قرّت.

الإيجاز وتركيز المعنى:

يكون هذا في مجموعة الأمثال والحكم والعبارات الوعظية في الزهد التي تركها، ولا تفوقها أقوال إلّا حُكَم الأنبياء «ويزيد عليها أنها أبدع في التعبير وأوفر نصيباً من ذوق الجمال» ومنها ما يمكن أن يُؤلف معجماً لتراكيب نهج البلاغة باعتبار نصوصه هي ما استوعبت الثقافة الإسلامية النبوية، وقد كانت بعد القرآن الكريم وكلام النبي في بلاغتها وأساليب تعبيرها، وسأقوم بمحاولة تجريب تتسع في مقبل الأيام إن شاء الله.

«وجرت على أدلها السنن» أي جرت على وجوها وفيها عود الضمير على متأخر.

«أنا لكم وزيراً خيراً لكم مني أميراً» وقوع الحال من جملة اسمية وهو نصح بأسلوب الخبر.

«أتأمروني أن أطلب النصر بالجور في من ولّيت عليه؟» سؤال إنكاري فيه حكمة وعدل.

«يها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة» تركيب فيه استعارة تمثيلية بديعة.

«زعم انه بايع بيده ولم يبائع بقلبه، فقد أقرّ بالبيعة وأدعى الوليجة».

قاله في الزبير حين بايعه وهو يعرف ما بقلبه من دخيلة.

«آه من قلة الزاد وطول الطريق وبعد السفر» قالها في طلاقة الدنيا في مناجاته.

«الحلم عشيرة» عبارة تغني من كتاب في إيجازها.

«كل وعاء يضيق بما جعل فيه إلّا وعاء العلم فهو يتسع» حب العلم أهم خصائصه.

«فاتقوا الله عباد الله، وفروا إلى الله من الله، وامضوا في الذي نهجه لكم!!» زهد ونصح يضيء الحياة.

«العلم يحرسك وأنت تحرس المال» حكمة عارف محب للعلم.

«لا رأي لمن لا يطاع» حكمة تعبر عن تجربة حياة عميقة.

«ما مُتّع غني إلا بما جاع به فقير» حكمة توحى بالتوازن في فكره وحياته.

إن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق لا تقنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه، ولا تكشف الظلماء إلا به وصف عميق لعارف بكتاب الله.

ويمكن أن نضع مجموع الحكم التي في آخر نهج البلاغة وشروحه في هذا المعجم ونضيف إليه ما نستخرجه من كلامه ونصوص خطبه وما يصدر منه من عبارات تلقائية تعبر عن عمق تجاربه في الحياة وعلمه بحقائقها ومعرفته بسلوك البشر وغرائزهم.

لنأخذ خطبته الأولى في المدينة مثلاً لما جاء فيها من تركيز المعنى وشحن التركيب بالدلالة وإشارات موحية.

كانت هذه الخطبة في وقت مضطرب وأجواء الفتنة بعد مقتل الخليفة يراها الإمام ، فكان موقفه صعباً والناس من حوله يتدافعون لمبايعته وهو عارف بوجود من لا يسره اختياره ومواقفهم منذ وفاة الرسول ، لذلك كان في خطبته عبارات منذ البدء أقرب إلى الكنايات الكلامية وفيها من لغة المجازات سياقات يتسع تأويلها ولها وظائفها اللغوية عند فهمها ووعياها.

كانت عبارات البدء أمرية بتوكيدين: النون الثقيلة والحصر بـ (إلّا): «ألا لا يُرعىنَ مُرْعَ إلّا على نفسه» وبعدها جملة مفتوحة للتأويل ولشدة تكثيف دلالاتها «شُعِلَ مَنْ الجَنَّةِ والنارُ أمامه» وأغنت عن فاعلها (نائب الفاعل) جملة اسمية سبقها اسم موصول، ثم توالت عبارات موجزة تخفي دلالات: «ساع مجتهد ينجو، وطالب يرجو، ومقصر في النار.. هلك من ادّعى وردي من اقتحم». كأنه يشير إلى حالات وأحداث سبقت هذه اللحظات التي هو فيها، ومواقف عاناها.

فالجملتان الأخيرتان تخفيان تاريخاً من التطاهر والادعاء بما ليس للمدعي فأهلكه ادعاؤه، وكذلك المقترح لما ليس من شأنه، ثم تأتي عبارات وكأنها تعليمات وأوامر يصدرها لمجتمع هائج، تُدفعه العواطف من دون توضيح أو تفصيل: «استتروا في بيوتكم، وأصلحوا ذات بينكم، والتوبة من ورائكم» ثم بدأت اشارات بما بعدها بعضها حكمة مجرب «من أبدى صفحة للحق هلك» وبهذا يصف موقفه في قصده الحق، فعانى من الأمور ما عاناها، فأخذ يصف الموقف منه ومن حقه وتراثه المسلوب، ثم جاءت عبارات شديدة التركيز والإيجاز: (أنظروا، وإن عرفتم فأزروا، حق وباطل ولكل أهل، ولئن أمر الباطل لقديماً فَعَلْ، ولئن قلّ الحق لربما ولعل، وقلما أدبر شئ فأقبل»، هذه عبارات متلاحقة شديدة الإيجاز قابلة للتأويل، وكأنها كنايات وبعضها كنايات فعلاً نحو «ولئن قلّ الحق لربما ولعل» و«قلما أدبر شئ فأقبل» وبعده وصف بصورة عبارة شرطية سبقت بما يدل على القسم جاء جوابه مؤكداً أغنى عن جواب الشرط «ولئن رَجَعْتَ اليكم أموركم إنكم سعداء»، كأنه يقدم لهم مفاتيح الكلام تتقدم خاطرة تخطر للأولياء العارفين وهو في مقدمتهم «وإني لأخشى أن تكونوا في فترة» ينهيها بذكر منهجه بعبارة مؤكدة بالحصر، بعد تقليب الأمور وعرض الحقائق «وما علينا إلّا الاجتهاد». هذه من خصائص أسلوبه في كلامه، لذلك كان ينبغي لواعي قواعد الجملة وأقسامها استيعاب أساليب الفصاحة في مواطنها وأهمها القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام الفصحاء من العرب وعلى رأسهم كلام الإمام علي الذي جمع في نهج البلاغة.

التركيب الأسلوبية وأنماطها في نهج البلاغة

تحتاج هذه الأنماط الأسلوبية في التركيب في نهج البلاغة إلى دراسة وافية، يوضح فيها ما جاء في دراسات البلاغيين، وما يحتاج إليه من دراسة أسلوبية حديثة تظهر ما في التركيبيات البلاغية في نهج البلاغة من ابداعات وسنذكر هنا نماذج من أنماط التركيب ما تكمل به فكرة البحث:

تركيب الاستفهام:

هو السؤال وهو أسلوب تعبيرى يكون بأدوات: حروف وكنايات ولم يستعمل في النصوص البلاغية العالية على الأصل إلا نادراً نحو سؤالهم إياه : (كم بين الأرض والسماء؟ قال: دعوة مستجابة..) وأداة الاستفهام (كم)، وينقل إلى دلالات أخرى مجازية في النصوص الأدبية أذكر نماذج منها:

الانكار، نحو قوله: «أبعد إيماني بالله وجهادي مع رسول الله أشهد على نفسي بالكفر».

النفي نحو: «هل تحس به (ملك الموت) إذا دخل منزلاً؟ أم هل تراه إذا توفي أحداً؟».

التحسر: في قوله: «أين العقول المستصبحة بمصابيح الهدى؟ والأبصار اللامحة إلى منار التقوى؟ أين القلوب التي وهبت لله؟».

التعجب واللوم: «أي دار بعد داركم تمنعون؟ ومع أي إمام بعدي تقاتلون؟ ما بالكم؟ ما دواكم؟ ما طبكم؟ القوم رجال أمثالكم».

اللوم في قوله: «أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً؟ وبالذل من العز خلفاً؟».

في قوله: «وكيف يراعي النبأ من أصمته الصيحة» ويفهم منه معنى الشرط أيضاً.

ويأتي بصورة الخبر نحو قوله: «يغار عليكم ولا تُغيرون وتُعزّون ولا تُعزّون ويُعصى الله وترضون».

تركيب الشرط:

تركيب يتألف من أداة الشرط وجملة الشرط وجملة الجزاء. فقد يذكر تاماً بجزأيه، وقد يحذف الجواب أو يتقدم الأداة والشرط لأغراض ومعان أيضاً. أذكر أمثلة مما ورد في نصوص نهج البلاغة:

الحيرة والتأزم في قوله في خطبته: «فصاحبها كراكب الصعبة إن أشنق لها خرم وإن أسلس لها تقم...» () فالأداة (إن) و (أشنق) جملة الشرط و (خرم) جوابه.

اللوم ، قوله لعمر بن العاص : «لو اعتبرت بما مضى حَفِظْتَ ما بقي» المعاناة والتأنيب من تماهل المخاطبين في قوله من خطبة يحثهم على الجهاد: «فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم: هذه حَمارة القيظ. أمهلنا ينسلخ عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم: هذه صبارة القرّ أمهلنا ينسلخ عنا البرد، كل هذا فرارا من الحر والقرّ، فإذا كنتم من الحر والقرّ تفرون فأنتم والله من السيف أفر».

النصح في قوله : «أيها الناس، إنه لا يستغني الرجل -وإن كان ذا مال- عن عترته... وهم أعظم الناس من ورائه، وألمهم لشعثه، وأعظمهم عند نازلة إذا نزلت به».

هنا جملتا شرط: أولاهما اكتنف بها الجواب الشرط وأداته، والثانية تقدم الجواب فيها، فهما على غير صورة الأصل للاستغناء عن الجواب في موضعه.

وكذا قوله: «ومن يقبض يده عن عشيرته فإنما يُقبض منه عنهم يد واحدة ويُقبض منهم عنه أيد كثيرة».

التعجب في قوله : «فإن أفلّ يقولوا حرص على الملك، وإن أسكت يقولوا جزع من الموت».

التقريع في قوله: «ومن فاز بكم فاز - والله - بالسهم الأخيبي».

الحكمة في قوله: «إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره ، وإذا أدبرت سلبتة محاسن نفسه».

استعمال (كلما) للشرط أكثر من مرة منه قوله: «الحمد لله كلما وقب ليل وغسق، والحمد لله كلما لاح نجم وحقق».

إخبار بصورة الشرط للوم في قوله: «فإذا كنتم من الحر والقرّ تفرون فأنتم - والله - من السيف أفر».

تركيب النداء:

أشهر أدواته (يا) يراد بها التنبيه - وكثيراً ما يستغنى عن الأداة مع أيّ خاصة.

أخلاقه وصدقه في قوله: «أيها الناس، أي - والله - ما أحثكم على طاعة إلا وأسبقكم إليها، ولا أنهاكم عن معصية إلا وأتناهى قبلكم عنها» .

النصح والوعظ في قوله: «معاشر المسلمين استشعروا الخشية وتجليبوا السكينة».

اللوم في قوله : «أيها الناس المجتمعة أبدانهم المختلفة أهواؤهم».

التقريع ووصف ما هم به من توان في قوله: «يا أشباه الرجال ولا رجال».

الدعاء في قوله: «اللهم فارحم أنين الآتة، وحنين الحائة، اللهم فارحم حيرتها في مذاهبها...».

تركيب التعجب:

للتعجب صيغتان قياسيتان هما: (ما أفعله وأفعل به) وللتعجب صور سماعية واستعمالية كثيرة سنذكر منها مما ورد في نصوص نهج البلاغة .

مما جاء في الوعظ على صيغة (ما أفعله) قوله : «ما أسرع الساعات في اليوم! وأسرع الأيام في الشهر! وأسرع الشهور في السنة! وأسرع السنين في العمر!».

التعظيم في قوله من خطبة له: «سبحانك ما أعظم شأنك! سبحانك ما أعظم ما نرى من خلقك!».

صورة النداء التعجبي في قوله: «فيا عجباً، بينا هو يستقبلها..».

وكذا قوله : «يا خيبة الداعي! من دعا! وإلام أجيب!؟» .
صورة الاستغاثة في قوله: «فيا لله وللشورى!».
وكذا في قوله: «فيالها أمثلاً صائبة، ومواعظ شافية».
بصورة الاستفهام قوله: «متى اعترض الريب في مع الأول منهم حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر».
وفي جملة خبرية يعقبها استفهام تعجبي قوله : «لله أبوهم! وهل أحدٌ منهم أشدّ مراساً وأقدم فيها مقاماً مني!؟».
وقوله في رسالة إلى الزبير: «عرفتني في الحجاز وأنكرتني في العراق، فما حد مما بدا!؟».
تركيب الأمر:
يكون بصيغة الأمر أو لام الأمر تسبق الفعل نحو قوله للوعظ: «فاتقوا الله - عباد الله - وفرّوا إلى الله من الله وامضوا في الذي نهجه لكم وكذا تخفّفوا تلتحقوا».
الاحتجاج في قوله : «قلّياتٍ عليها بأمر يُعْرَفُ وإلا فليُذخَلْ فيما خرج منه».
النهي: يكون ب (لا) التي هي أداة النهي، نحو قوله لعثمان في سفارته له: «فلا تكوننّ لمروان سيّقةً (يُسوّقك حيث يشاء)».
النصح في قوله: «ألا لا يَعدَلنَّ أحدكم عن القِرابة يرى بها الخصاصة أن يسدّها» النهي مع الحكمة في قوله : «لا تقتلوا الخوارج بعدي ، فليس من طلب الحقّ فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه».

الامام علي وعلم النحو:

إنّ المتتبع للأخبار التي تتعلق بنشأة النحو وأسبابه في المصادر القديمة التي تعرّضت لذلك يغرق في مجموعة من الأقوال المتخالفة، فهي متخالفة في تخصيص أول واضع للنحو، فمرة نجده الامام علي وأخرى أبا الأسود الدؤلي (ت ٦٩هـ) صاحب الامام علي وأخرى يحيى بن يعمر (ت ١٢٩هـ) أو نصر بن عاصم (ت ٨٩هـ)، ثم نجدها تضطرب في أسباب وضعه فهي مرة بإشارة الامام علي إلى أبي الأسود في أمر فساد العربية بسبب اختلاط العرب بالأعاجم، وهذا القول هو أقوى الأقوال - وأخرى سماع أبي الأسود الدؤلي لمن قرأ آية لحن في إعرابها أو سمع ابنته وهي تخط بين أسلوب الاستفهام والتعجب.
وإذا تتبعنا قضية اللحن والمواقف التي صدرت فيها أقوال ضاقت به وجدنا أقواها من خلافات في قراءة النص القرآني، هذا النص الذي كانت عناية الرسول الكريم بحفظه وتدوينه وإحاطته بكل وسائل العناية الدقيقة لتبعده عن الخطأ والتحريف، فشدّة عنايته به دعت إلى أن يدعو الصحابة أول الأمر أن لا يدوتوا سواه معه كي لا يختلط به .
وبعد عهد الرسول أعيد تدوين القرآن وتوحيده ووزعت نسخ منه على الأمصار مكة والبصرة والكوفة والشام وواحدة في المدينة، وكان رسمه خالياً من رموز الحركات وما يميّز بين الحروف المتشابهة.
لقد أصبحت مشكلة رسم كتابة القرآن الكريم والتفكير في حلها ملحّة في خلافة الإمام علي، فليس غريباً أن يتشاور الإمام علي وأبو الأسود وغيره من العلماء في حل هذه المشكلة، فأبو الأسود كان على رأس العلماء الذين أطلوا التفكير في مشكلة الرسم القرآني خصوصاً بعد وفاة الامام علي.
روي عن الامام علي قوله: «إني تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء يعني الأعاجم. فهو لم يقل هذا الكلام لولا ما شغل فكره من أمر لغة القرآن وصحة قراءته ، فكان ذكاًؤه ومعرفته الواسعة لأنماط التفكير وأساليب العربية التي وعها وحفظه القرآن الكريم، إذ كان من أوائل كتاب الوحي وجامع القرآن بعد وفاة حبيبه عليه الصلاة والسلام ، وشدّة التزامه في نشر الثقافة النبوية ونشره العدل النبوي في سياسة المجتمع لإصلاحه تنبه لضرورة إصلاح الفساد اللساني أيضاً فقد امتلك أدوات العلم والفقه والبلاغة معاً.

قال العقاد: «ليس الامام علي أول من كتب الرسائل وألقى العظات وأطال الخطب على المنابر في الأمة الإسلامية ، ولكنه أول من عالج هذه الفنون معالجة أديب، وأول من أضفى عليها صبغة الانشاء الذي يُقتدى به في الأساليب، لأن الذين سبقوه كانوا يصوغون كلامهم صياغة مبلّغين لا صياغة منشئين، ويقصدون إلى أداء ما أرادوه ولا يقصدون إلى فن الأداء..» ، لذلك كله لا نرى أحداً أجدر منه في التفكير بلغة القرآن الكريم ومحاولة الإشارة إلى أسس إصلاح السنيّة العرب بعد أن شكوا أبو الأسود شيوع اللحن في حضرته بعد الانتهاء من وقعة الجمل في البصرة. وكان أبو الأسود عالماً شاعراً وقاضياً للبصرة في عهده(). ولقد مرت الإشارة إلى أنه كان أبا للفقهاء على اختلاف مذاهبهم ولأصحاب الكلام ولأصحاب الفلسفة وأصحاب اللسان من الخطباء والمتكلمين والشعراء .

قال جمال الدين القفطي (ت ٦٤٦هـ) في أول من وضع النحو: «الجمهور من أهل الرواية على أن أول من وضع النحو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - قال أبو الأسود الدؤلي رحمه الله: «دخلت على أمير المؤمنين علي - فرأيت مطرقاً مفكراً فقلت : فيم تفكر يا أمير المؤمنين؟ فقال: سمعت ببلدكم لحناً فأردت أن أضع كتاباً في أصول العربية فقلت له: إن فعلت هذا أبقيت فينا هذه اللغة العربية، ثم أتيت بعد أيام فألقى إلي صحيفة فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم. الكلام كله اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمّى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمّى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل».

ثم قال: «تتبعه وزد فيه ما وقع لك. واعلم أن الأشياء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر. وانما يتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بمضمر ولا ظاهر» فجمعت أشياء وعرضتها عليه، فكان من ذلك حروف النصب ، فذكرت منها : إن وأنّ وليت ولعل وكان ولم أذكر لكنّ فقال: لم تركتها؟ فقلت: لم أحسبها منها . فقال : بل هي منها فزدها فيها . هذا هو الأشهر في أمر ابتداء النحو.

وقد ذكر أبو القاسم الزجاجي (ت ٣٣٧هـ) هذا التقسيم قائلاً: وقد روي لنا أن أول من قال ذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه أعني قوله : الكلام اسم وفعل وحرف ونقلها أبو الأسود الدؤلي عنه.

وأكد ذلك أبو الفرج محمد بن أبي اسحاق النديم (ت ٣٨٠هـ) قائلاً: «زعم أكثر العلماء أن النحو أخذ عن أبي الأسود الدؤلي وان أبا الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه» وقال أبو جعفر بن رستم الطبري: انما سمّي النحو نحواً لأن أبا الأسود الدؤلي قال لعلي وقد ألقى إليه شيئاً في أصول النحو قال أبو الأسود فاستأذنته أن أصنع نحو ما صنع قسّمى ذلك نحواً.

وكان أبو الأسود ضنيناً بما أخذه عن الامام علي لا يطلع عليه أحداً. وذكر النديم سبباً يدل على أن أبا الأسود أول من وضع في النحو كلاماً. ذكر حكاية رجل من أهل الكوفة كان مغرمًا بجمع الخطوط القديمة قد ترك قمطراً عند محمد بن الحسين صديقه فيه أوراق وكتب قديمة اطلع عليها النديم بعد معرفته له قال: «فرأيتها وقلبتّها فرأيت عجباً» رأيت في جملتها مصحفاً بخط خالد بن أبي الهيثاج صاحب علي ، ورأيت عدة أمانات وعهد بخط أمير المؤمنين علي ، ورأيت ما يدل على أن النحو عن أبي الأسود وهي أربعة أوراق من ورق الصيني بخط يحيى بن يعمر. وروى القفطي أنه رأى بمصر في زمن الطلب بأيدي الوراقين جزءاً فيه أبواب من النحو يجتمعون إنها تقدمت علي بن أبي طالب التي أخذها عنه أبو الأسود الدؤلي.

نستنتج من هذه الأخبار وغيرها كثير أن أبا الأسود كان على رأس العلماء الذين أطالوا التفكير في مشكلة الرسم القرآني والعربية بعامة وكانت لديه نتائج وحلول لهذه المشكلة لكنه كان مشغولاً بقضايا السياسة والقضاء في أثناء خلافة الامام علي فظل محتفظاً بملاحظاته التي أخذها عن الامام علي في تقسيم الكلم وما أشار به عليه مع ما تهيأ له من أفكار من استقرائه وتجاربه. وذكرت أنه كان ضنيناً بما أخذ عن أمير المؤمنين علي لا يُطلع عليه أحداً لكنه بعد

مقتل الامام علي وقيام الحكم الأموي تفرغ إلى العلم لإظهار ما كان يخفيه لضرورة ثم انه اهتدى لوضع رموز حركات الإعراب، وهي أول عمل وضعه وحلّ مشكلة الرسم القرآني، ومنها كانت مصطلحات النحو الأولى من قوله للكاتب الذي اتخذه من عبد القيس وطلب إليه أن يضع النقط على وفق قراءته القرآن قائلاً: «إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه فإن ضمنت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف وإن كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف فإن أتبعته شيئاً من ذلك غنة فاجعل مكان النقطة نقطتين».

لقد اتخذت مصطلحات الضمة والفتحة والكسرة أو الخفضة والتنوين من قول ابي الأسود المذكور، وأكمل العمل بعده نصر بن عاصم (ت ٨٩هـ) تلميذه بوضعه نقط الاعجام الذي يميز بين الحروف المتشابهة، وبهذين العاملين حلت مشكلة الرسم القرآني وفي عهد الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) أبدل نقط أبي الأسود بالحركات المعهودة أخذها من أصوات اللين الفتحة من الألف والكسرة من الياء والضمة من الواو.

لقد استمرت أجيال من العلماء بعد أبي الأسود وتلامذته في تطوير ما بدأ واضع رسومه الأولى الامام علي ، وقد نفذها وأشاعها تلميذه وصاحبه أبو الأسود حتى أصبح علماً له أصوله وأبوابه في (الكتاب) الذي صدر عنه النحويون في مختلف مذاهبهم. فالبدائية في الوضع هي أصعب المراحل في كل علم، لكنها سهلت على يد من كان أقضى أهل زمانه كما وصفه النبي وأعلمهم بالفقه والشريعة كما كان له السبق في أصول الكلام والفلسفة وكان لعلمه الواسع أثر في أصحاب المذاهب، وكان واسع المعرفة بأساليب العربية التي وعها من الثقافة النبوية والقرآنية منذ صباه، وكان له إبداع في التطبيق وإبداع في أساليب الفن اللغوية في كلامه كما كان له السبق في الإشارة إلى وضع ما يصلح الخلل اللساني الذي ظهر و أخذ يشيع في المجتمع الإسلامي، للحفاظ على لغة القرآن الكريم.

إن قارئ نهج البلاغة يجد فيه كل أسباب الفصاحة والبلاغة في تفصيله وإيجازه وفي تركيبه وأساليبه تجاوزه النحويون في أثناء وضعهم أصول النحو بعد ظهور ملامحه للأسباب التي جعلتهم يستشهدون بكلام يجانب الاعراب ولا يكثرون النظر في الحديث النبوي وكلام سيد الفصحاء بسبب السياسة الأموية المنحرفة عن العدالة والحق .

ففي الوقت الذي استضاء به الفقهاء وأصحاب الكلام وأصحاب الفلسفة والزهاد والمتصوفة كما كان ذا أثر في المذاهب على اختلافها ونهجاً للأدباء تجاوزه النحويون كما تجاوزوا الحديث الشريف إلا نادراً في الإفادة والاستشهاد.

ولئن نهدنا لإعرابه وبيان معانيه لهو كان الدافع الأول لأبي الأسود الدولي قاضيه على البصرة لإبداع أولى بنيات النحو، والتفكير بوضع رموز الاعراب وهو ما سمي بنقط الاعراب الذي انطلق منه التفسير اللغوي للقرآن الكريم وكان أساساً للنحويين وأقاموا النحو على أسس مفاهيمه نرجو منه تعالى السداد والتوفيق.

نهج البلاغة في أسانيد العلماء الرواة

الاستاذ الدكتور صالح مهدي عباس (جامعة بغداد- مركز أحياء التراث العلمي العربي)

احتلت بعض المؤلفات العربية في مختلف العلوم والمعارف مكانة سامية في التراث الفكري الإسلامي، ونالت شهرة واسعة، وذاع صيتها في الآفاق الإسلامية، وراجت راجا كبيرا في حياة مؤلفيها، وتوافر العلماء عليها شرحا وتهذيبا وتعليقا واستدراكا، وتسابق النساخ والوراقون إلى نسخها وتكثير أعدادها، لأهميتها، ولرغبة العلماء في اقتنائها والعناية التامة بها لما لها من شأن عظيم في حياتهم العلمية والعملية، حيث أغنتهم عن الرجوع إلى عدد كبير من المؤلفات المختصة في موضوع كل كتاب منها، ولكثرة هذه المؤلفات، نذكر منها:

- الكتاب - في النحو - لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر المعروف بسيبويه (ت ١٨٠هـ).
- الفصيح في اللغة - لأبي العباس أحمد بن يحيى الكوفي المعروف بثعلب (ت ٢٩١هـ).
- ديوان المتنبي - لأبي الطيب أحمد بن الحسين الجعفي المعروف بالمتنبي (ت ٣٥٤هـ).
- صحاح اللغة وتاج العربية - لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣هـ).
- القانون في الطب - للشيخ الرئيس أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا (ت ٤٢٨هـ).
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - في التفسير - لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ).

- الشاطبية - في القراءات القرآنية - لأبي القاسم بن فيّره الشاطبي الأندلسي (ت ٥٩٠هـ).
- الألفية - في النحو - للعلامة جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الجياتي (ت ٦٧٢هـ).
- شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام - للشيخ أبي القاسم جعفر بن الحسن سعيد الهذلي المحقق الحلبي (ت ٦٧٦هـ).

- الكواكب الدرية في مدح خير البرية - قصيدة البردة في مدح رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) - لشرف الدين محمد بن سعيد البوصيري (ت ٦٩٤هـ).

ونهج البلاغة واحد من هذه المؤلفات الشهيرة، جمعه السيد الشريف الرضي أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى الموسوي العلوي (ت ٤٠٦هـ) من مختلف كلام مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، المشتمل على «الخطب الرائعة، والرسائل الجامعة، والوصايا النافعة، في أداء محكم، ومعنى واضح، ولفظ عذب سائغ، وإذا هذا الكلام يملأ السهل والجبل، وينتقل في البدو والحضر، يرويه على كثرتة الرواة ويحفظه العلماء والدارسون»^١.
والذي حفظ الناس عن الإمام علي (عليه السلام) من خطبه في سائر مقاماته أربع مئة خطبة وثيقة وثمانون خطبة، يوردها على البديهة، تداول عنه الناس ذلك قولاً وعملاً^٢.

وقال الإمام محمد عبده (رحمه الله): «ذلك الكتاب الجليل هو جملة ما اختاره السيد الشريف (رحمه الله) من كلام سيدنا ومولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)، جمع متفرقه، وسمّاه بهذا الاسم «نهج البلاغة» ولا أعلم اسماً أليق بالدلالة على معناه منه، وليس بوسعي أن أصف هذا الكتاب بأزيد مما دلّ عليه اسمه، ولا أن أتى بشيء في بيان مزيتته فوق ما أتى به صاحب الأختيار»^٣.

لقد اعتنى المسلمون عناية كبيرة بكلام أمير المؤمنين (عليه السلام) فحفظوه في صدورهم ورروه على سنتهم، وتناقله الرواة والإخباريون، وحفلت به كتب التاريخ والأدب والحديث على كثرتها، حتى أفردته العلماء والأدباء والخطباء بكتب مستقلة، أو ضمن مؤلفاتهم المبسوطه، كان منهم:

١ . ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، مقدمة المحقق الأستاذ محمد أبي الفضل إبراهيم، ٥/١.

٢ . المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر - ٤٣١/٢.

٣ . الإمام محمد عبده، نهج البلاغة: ٤.

أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي الكوفي (ت ١٥٧هـ).
أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب ابن الكلبي (ت ٢٠٤هـ).
أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ).
نصر بن مزاحم بن سيار المنقري (ت ٢١٢هـ).
أبو الحسن علي بن محمد المدائني (ت ٢٣٥هـ).
أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المعتزلي البصري (ت ٢٥٥هـ).
أبو عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ).
أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦هـ).
أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي (ت ٤٥٤هـ).
أمين الدين ابو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨هـ).
رشيد الدين محمد بن محمد بن الوطواط (ت ٥٧٣هـ).
عز الدين عبد الحميد بن هبة الله ابن ابي الحديد المدائني (ت ٦٥٥هـ).
وأفضل هذه المؤلفات وأكملها، وأحسنها ترتيباً، وأعظمها شأنًا، هو ما قام به السيد الشريف
الرضي من جمع مختار كلام الإمام علي (عليه السلام) في الكتاب الذائع الصيت «نهج
البلاغة» وقد وصفه بقوله: «ورأيت كلامه (عليه السلام) يدور على أقطاب ثلاثة، أولها:
الخطب والأوامر، وثانيها: الكتب والرسائل، وثالثها: الحكم والمواعظ، فأجمعت بتوفيق الله
سبحانه على الابتداء باختيار محاسن الخطب، ثم محاسن الكتب، ثم محاسن الحكم والأدب
مُفرداً لكل صنف من ذلك باباً، ومفصلاً فيه أوراقي...»^١.
انتشر نهج البلاغة بين الناس، وذاع صيته في البلاد الإسلامية، وتصدر العلماء لتدريسه وقرائه
على تلاميذهم في حلقات الدرس والسماع، وفي المجالس العلمية والأدبية، فثارت الشكوك من
بعض المناوئين والحاقدين في صحة نسبة الكتاب إلى الإمام علي (عليه السلام)، وان الذي
جمعه الشريف المرتضى وليس الشريف رضي؟! وإلى غير ذلك من الأقاويل؟ فانبرى بالرد
على هذه الأقاويل جملة من العلماء، وكان منهم العالم الفاضل ابن أبي الحديد المعتزلي في كتابه
«شرح نهج البلاغة» حيث قال: «كثير من ارباب الهوى يقولون: إن كثيراً من نهج البلاغة كلام
محدث صنعه قوم من فصحاء الشيعة، وربما عزوا بعضه إلى رضي أبي الحسن أو غيره؛
وهؤلاء أعمت العصبية أعينهم فضلوا عن النهج الواضح، وركبوا بُنيّات الطريق، ضلالاً وقلة
معرفة بأساليب الكلام.
وأنا أوضح لك بكلام مختصر ما في هذا الخاطر من الغلط فأقول: لا يخلوا إما أن يكون كل نهج
البلاغة مصنوعاً أو بعضه.
والأول: باطل بالضرورة؛ لأننا نعلم بالتواتر صحة إسناد بعضه إلى أمير المؤمنين (عليه
السلام)، وقد نقل المحدثون - كلهم أو جلهم - والمؤرخون كثيراً منه، وليسوا من الشيعة لينسبوا
إلى غرض في ذلك.
والثاني: يدلّ على ما قلناه؛ لأن من أنس بالكلام والخطابة، وشدا طرفاً من علم البيان، وصار
له ذوق في هذا الباب؛ لا بد أن يفرق بين الكلام الركيك والفصيح، وبين الفصيح والأفصح،
وبين الأصل والمولد. وإذا وقف على كراس واحد يتضمن كلاماً لجماعة من الخطباء أو لأثنين
منهم فقط، فلا بد أن يفرق بين الكلامين، ويميز بين الطريقتين؛ ألا ترى أننا مع معرفتنا بالشعر
ونقده؛ لو تصفحنا ديوان أبي تمام فوجدناه قد كتب في أثنائه قصائد أو قصيدة واحدة لغيره
لعرفنا بالذوق مباينتها لشعر أبي تمام نفسه وطريقته ومذهبه في القريض؛ ألا ترى أن العلماء
بهذا الشأن حذفوا من شعره قصائد كثيرة منحولة إليه، لمباينتها لمذهبه في الشعر! وكذلك
حذفوا من شعر أبي نواس كثيراً لما ظهر أنه ليس من الفاظه ولا من شعره، وكذلك غيرهما
من الشعراء؛ ولم يعتمدوا في ذلك إلا على الذوق خاصة.

١ . ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٤/١.

وأنت إذا تأملت نهج البلاغة وجدته كله ماء واحداً، ونفساً واحداً، وأسلوباً واحداً؛ كالجسم البسيط الذي ليس بعض من أبعاضه مخالفاً لباقي الأبعاض في الماهية؛ وكالقرآن العزيز، أوله كوسطه، وأوسطه كآخره؛ وكل سورة منه، وكل آية مماثلة في المأخذ والمذهب والفن والطريق والنظم لباقي الآيات والسور، ولو كان بعض نهج البلاغة منحولاً، وبعضه صحيحاً، لم يكن ذلك كذلك؛ فقد ظهر لك للنيل من نهج البلاغة بالبرهان الواضح ضلال من زعم أن هذا الكتاب أو بعضه منحول إلى أمير المؤمنين (عليه السلام).

واعلم أن قائل هذا القول يطرق على نفسه ما لا يقبل له به؛ لأننا متى فتحنا هذا الباب، وسلطنا الشكوك على أنفسنا في هذا النحو، لم نثق بصحة كلام منقول عن رسول الله صلى الله عليه وآله أبداً، وساغ لطاعن أن يطعن ويقول: هذا الخبر منحول؛ وهذا الكلام مصنوع؛ وكذا ما نقل عن أبي بكر وعمر من الكلام والخطب والمواعظ والآداب وغير ذلك، وكل أمر جعله هذا الطاعن مستندا له فيما يرويه عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة الراشدين والصحابة والتابعين والشعراء والمترسلين والخطباء؛ فلناصرى أمير المؤمنين (عليه السلام) أن يستندوا إلى مثله فيما يروونه عنه من نهج البلاغة وغيره؛ وهذا واضح^١.

وعلى الرغم من هذه الحملة المضادة وإثارة الشكوك حوله! انتشرت رواية نهج البلاغة على عهد السيد الشريف الرضي (رحمه الله) في الأفق الإسلامية، ورجب الناس في سماع كلام أمير المؤمنين (عليه السلام)، والإطلاع على كنوز اللغة والعلم والمعرفة التي جادت بها قريحة الإمام (عليه السلام) وتضمنها هذا الكتاب، ومن ثم قويت عزيمة عدد من من هؤلاء السامعين لنهج البلاغة على انتساح نسخة منه للتزود من علومها ولحفظها والرجوع إليها عند الحاجة، حتى كثرت نسخ نهج البلاغة في مشارق الأرض ومغاربها.

ولذلك أقبل جملة من العلماء الأفاضل من ذوي الخبرة والاختصاص على شرح نهج البلاغة وبيان مقاصده، وكشف معانيه بأوضح أسلوب وأيسر عبارة، وتتنوعت هذه الشروح تبعاً لتنوع آراء الشراح ومناهج بحثهم حتى زادت شروحه على التسعين شرحاً، فضلاً عن شروح عهد الإمام علي (عليه السلام) لواليه على مصر مالك الأشتر (رضي الله عنه) وهذا العهد جزء من نهج البلاغة، وقد أوصاه الأمام بالترفق بأهل مصر، وحسن معاملتهم، والعطف عليهم. ولكثرة شروح هذا النهج، ولعدم امكانية ذكرها جميعاً في هذا البحث، سأقتصر على ذكر بعض منها:

أعلام نهج البلاغة - للسيد علي بن ناصر، المعاصر للسيد الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ).
منهاج البراعة شرح نهج البلاغة - لأبي الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسن، قطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣هـ).

شرح نهج البلاغة - لفخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر الرازي صاحب التفسير المشهور (ت ٦٠٦هـ).

شرح نهج البلاغة - لأبي الفضل يحيى بن حميد بن ظافر المعروف بابن أبي طي الحلبي (ت ٦٣٠هـ).

شرح نهج البلاغة - لرضي الدين الحسن بن محمد بن الحسن الصغاني الحنفي (ت ٦٥٠هـ).
شرح نهج البلاغة - للعالم عز الدين عبد الحميد بن هبة الله بن أبي الحديد المدائني المعتزلي (ت ٦٥٦هـ).

شرح نهج البلاغة - للسيد الشريف رضي الدين علي بن موسى بن جعفر بن طاووس الحسني الحلبي (ت ٦٤٤هـ).

شرح نهج البلاغة - للشيخ تاج الدين علي بن انجب البغدادي الشهير بابن الساعي (ت ٦٧٤هـ).
شروح نهج البلاغة - ثلاثة شروح - للعلامة كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت ٦٨٠هـ).

١ . نفسه: ١٠/١٢٨-١٢٩.

شرح نهج البلاغة - لجمال الدين الحسن بن يوسف بن المطهر الشهير بالعلامة الحلي (ت ٧٢٦هـ).

شرح نهج البلاغة - للعلامة سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني الشافعي (ت ٧٩٣هـ).

منهج الفصاحة في شرح نهج البلاغة - للشيخ جلال الدين الحسين بن شرف الدين عبد الحق المعروف بالإلهي (ت ٩٥٠هـ).

شرح نهج البلاغة - للشيخ بهاء الدين محمد بن الحسين بن عبد الصمد الحارثي العاملي (ت ١٠٣١هـ).

شرح نهج البلاغة - للشيخ الفاضل حسين بن شهاب الدين بن الحسين العاملي الكركي (ت ١٠٧٦هـ).

الحواشي الصافية والموازن الوافية - للسيد الشريف نعمة الله الجزائري (ت ١١١٢هـ).

ارشاد المؤمنين الى معرفة نهج البلاغة المبين - للشيخ الجليل يحيى بن ابراهيم الجعا، كان حياً سنة ١٢٦٢هـ).

ومن شروح عهد الإمام علي (عليه السلام) لمالك الأشتر (رضي الله عنه)، نذكر منها:

التحفة السليمانية - للسيد ماجد البحراني (ت ١٠٩٧هـ).

اساس السياسة في تأسيس الرياسة - للشيخ سلطان محمد (ت ١٣٥٤هـ).

عهد الأشتر - للشيخ الجليل محمد مهدي شمس الدين.

عهد أمير المؤمنين إلى القادة - عهد الأشتر - للشيخ عباس نور الدين التوفري، طبع عام ٢٠٠٠م.

لقد وجد العلماء والأدباء وأهل البلاغة والفصاحة وطلاب العلم في (نهج البلاغة) ما يشدهم إليه لغة وبلاغة وعقيدة وفكراً وتاريخاً وأخلاقاً... وأصبح له شأن كبير في عالم العلم والمعرفة، فكان مادة الدرس في مجالس العلماء ومحاضرات الشيوخ منذ عصر السيد الشريف الرضي محمد بن الحسين بن موسى العلوي الموسوي (ت ٤٠٦هـ) الذي تصدر بنفسه لتدريس (نهج البلاغة) وتسميعة لطلابه وخاصة جلسائه، فسمعه منه مباشرة الجم الغفير من أعيان القرن الخامس الهجري، وهم الرعيل الأول من طلاب السيد الشريف الرضي ومعاصريه والمحبين لسماع كلام أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وكان منهم: القاضي الشيخ أبو المعالي أحمد بن علي بن قدامة، قاضي الأنبار (ت ٤٨٦هـ).

الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أحمد بن الحسين الخزاعي النيسابوري (ت ٤٤٥هـ).

الشيخ أبو نصر عبد الكريم بن محمد الديباجي الهاروني وسبط بشر الحافي.

شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ).

العالم الجليل الشيخ أبو عبد الله محمد بن علي الطلواني.

ومن أعيان العلماء الرواة لنهج البلاغة في القرن السادس الهجري، ما يأتي:

شمس الإسلام أبو القاسم زيد بن محمد بن الحسين بن فنْدُق البيهقي (ت ٥١٧هـ).

جمال الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن أحمد بن محمد الشيباني المعروف بابن الأخوة البغدادي (ت ٥٤٨هـ).

ظهير الدين فريد خراسان أبو الحسن علي بن زيد بن محمد بن الحسين بن فنْدُق البيهقي (ت ٥٦٥هـ).

١ - مجموعة من فهراس الكتب والمخطوطات، ومنها الذريعة إلى تصانيف الشيعة، والكراس الذي أصدره ديوان الوقف الشيعي - عهد مالك الأشتر في ندوته المقامة عام ٢٠١٠م، وخاتمة مستدرک الوسائل في ترجمة السيد الشريف الرضي، وغيرها.

٢ - فضلاً عما جاء في الهامش السادس: طبقات أعلام الشيعة - للعلامة أغا بزرك الطهراني: الناييس في القرن الخامس، والثقات العيون في سادس القرون، والأنوار الساطعة في المائة السابعة، والحقائق الراهنة في المائة الثامنة، وكشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة، وهديّة العارفين أسماء المصنفين وأثار المؤلفين للشيخ محمد أمين البغدادي، واتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر للشوكاني، والإجازة الكبيرة للمرعشي، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، وغيرها.

- الشيخ الجليل أبو الحسن علي بن محمد بن علي الشعيري.
 رشيد الدين أبو جعفر محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني (ت ٥٨٨هـ).
 ومن أعيان العلماء الرواة لنهج البلاغة في القرن السابع الهجري:
 السيد الشريف جمال الدين أحمد بن موسى بن جعفر بن طاووس الحسني (ت ٦٧٣هـ).
 العلامة الجليل الأشرف بن الأغر بن هاشم المشهور بتاج العلى العلوي الحسني (ت ٦١٠هـ).
 نجم الدين أبو القاسم جعفر بن الحسن بن سعيد الهذلي المعروف بالمحقق الحلبي (ت ٦٧٦هـ).
 السيد الشريف محيي الدين محمد بن عبد الله بن علي بن زهرة الحسيني الحلبي.
 العلامة كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني اللغوي (ت ٦٧هـ).
 ومن أعيان العلماء الرواة لنهج البلاغة في القرن الثامن الهجري:
 جمال الدين أبو منصور الحسن بن يوسف بن المطهر المعروف بالعلامة الحلبي (ت ٧٢٦هـ).
 السيد الشريف شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي المعالي الموسوي (ت ٧٦٠هـ).
 فخر الدين أبو طالب محمد بن الحسن بن يوسف بن المطهر الحلبي (ت ٧٧٨هـ).
 الشيخ الفاضل محمد بن علي بن الحسين بن علي بن اسحاق السراب شاهوري (كان حي سنة ٧٣١هـ).
 العالم الجليل الشهيد الأول محمد بن محمد بن مكي بن حامد العاملي (ت ٧٨٦هـ).
 ومن أعيان العلماء الرواة لنهج البلاغة في القرن التاسع الهجري (٨٠١-٩٠٠هـ).
 شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن فهد الأسدي الحلبي (ت ٨٤١هـ).
 السيد الشريف أو العطايا عبد الله بن يحيى بن المهدي بن القاسم العلوي الزيدي
 اليمني (ت ٨٧٣هـ).
 الشيخ الجليل أبو الحسن علي بن محمد بن يونس البياضي النباطي العاملي (ت ٨٧٧هـ).
 الإمام الواثق المطهر بن محمد بن يحيى اليمني (ت ٨٠٢هـ).
 الشيخ الفاضل ناصر بن إبراهيم البويهني الأحساني (ت ٨٥٢هـ).
 ومن أعيان العلماء الرواة لنهج البلاغة في القرن العاشر الهجري (٩٠١ - ١٠٠٠هـ).
 السيد الشريف صارم الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن الهادي الوزير الحسني اليمني
 (ت ٩١٤هـ).
 السيد الشريف أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إبراهيم الوزير الحسني اليمني (ت ٩٨٥هـ).
 الشيخ الجليل أحمد بن نعمة الله بن أحمد بن خاتون العاملي (ت ٩٨٨هـ).
 العلامة الشهيد الثاني زين الدين بن علي بن أحمد الشامي العاملي (ت ٩٦٦هـ).
 الشيخ الفاضل علي بن الحسين بن علي بن عبد العالي الكركي (ت ٩٤٠هـ).
 ومن أعيان العلماء الرواة لنهج البلاغة في القرن الحادي عشر الهجري (١٠٠١ - ١١٠٠هـ).
 ١- القاضي صفي الدين أحمد بن سعد الدين بن الحسين بن محمد المسوري الزيدي
 (ت ١٠٧٩هـ).
 ٢- العلامة القاضي أحمد بن صالح بن محمد بن علي المعروف بابن أبي الرجال اليمني
 (ت ١٠٩٢هـ).
 ٣- الشيخ الجليل حسين بن جمال الدين محمد الخوانساري (كان حيًا ١٠٦٤هـ).
 ٤- السيد أمير الدين بن عبد الله بن نهشل الزيدي اليمني (ت ١٠٢٩هـ).
 ٥- الشيخ الفاضل محمد بن أحمد بن نعمة الله بن خاتون العاملي (كان حيًا سنة ١٠٠٨هـ).
 ومن أعيان العلماء الرواة لنهج البلاغة في القرن الثاني عشر الهجري (١١٠١-١٢٠٠هـ).
 ١- الشيخ العلامة أحمد بن عبد الرحمن الشامي اليمني (ت ١١٧٢هـ).
 ٢- السيد الشريف أحمد بن يوسف بن الحسين بن الحسن اليمني (ت ١١٩١هـ).
 ٣- الشيخ حامد بن حسن شاكر الصنعاني اليمني (ت ١١٧٣هـ).
 ٤- السيد العلامة الحسين بن أحمد بن صلاح بن أحمد المعروف بزبارة (ت ١١٤١هـ).

- ٥- الشيخ الفقيه الحافظ محمد بن الحسن بن علي بن محمد المعروف بالحر العاملي (ت ١١٠٤هـ).
- ومن أعيان العلماء الرواة لنهج البلاغة في القرن الثالث عشر الهجري (١٢٠١-١٣٠٠هـ).
- ١- الشيخ القاضي أحمد بن محمد بن علي الشوكاني اليمني (ت ١٢٨٤هـ).
- ٢- السيد الشريف الإمام عبد القادر بن أحمد بن عبد القادر الحسني اليمني (ت ١٢٠٧هـ).
- ٣- السيد العلامة علي بن ابراهيم بن علي بن ابراهيم بن عامر الشهيد اليمني (ت ١٢٠٧هـ).
- ٤- العلامة القاضي محمد علي بن محمد الشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ).
- ٥- العلامة السيد محمد تقي بن السيد مؤمن بن السيد محمد تقي الحسيني القزويني (ت ١٢٧٠هـ).
- ومن أعيان العلماء الرواة لنهج البلاغة في القرن الرابع عشر الهجري (١٣٠١-١٤٠٠هـ).
- الشيخ القاضي حسين بن علي العمري الصنعاني (ت ١٣٦١هـ).
- السيد الحافظ عبد الكريم بن عبد الله أبي طالب الحسني اليمني (ت ١٣٠٩هـ).
- الشيخ الفاضل عبد الواسع بن يحيى الواسعي اليمني (كان حياً سنة ١٣٥٥هـ).
- العلامة الجليل الشيخ محمد محسن المعروف بأغا بزرك الطهراني (ت ١٣٨٩هـ).
- العلامة الجليل الأديب محمد بن محمد بن يحيى زبارة اليمني (كان حياً سنة ١٣٥٥هـ).
- ومن أعيان العلماء الرواة لنهج البلاغة في القرن الخامس الهجري (١٤٠١-١٥٠٠هـ).
- ١- السيد الشريف العلامة شهاب الدين بن محمود المرعشي النجفي (ت ١٤١١هـ).
- ٢- ولده السيد الشريف محمود بن السيد شهاب الدين بن السيد محمود المرعشي النجفي (ما يزال حياً يرزق حفظه الله)

جامع نهج البلاغة

هو أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى العلوي الموسوي المعروف بالشريف الرضي^١. ولد السيد الشريف الرضي ببغداد سنة ٣٥٩هـ. وكان أبوه يتولى نقابة الطالبين والحكم فيها أجمعين، والنظر في المظالم، والحج بالناس، ثم ردت هذه الأعمال إليه في سنة ٣٨٠هـ بعد وفاة والده، أتى عليه الثعالبى قاتلاً: «ابتدأ بقول الشعر بعد أن جاوز العشر سنين بقليل، وهو اليوم ابرع أبناء الزمان، وانجب سادات العراق، يتحلى مع محتده الشريف ومفخره المنيف بأدب ظاهر، وفضل باهر، وحظ من جميع المحاسن وافر، هو أشعر الطالبين من مضى منهم ومن غير، على كثرة شعرائهم المفلقين، ولو قلت أنه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق». ومناقبه كثيرة وفضائله أكثر من أن تحصى، ازدانت بها صفحات الكتب والدواوين منذ نشأته إلى يوم الناس هذا، وأثنى عليه الأديباء والمؤرخون والكتاب ثناء عطرا ووصفوه بكل جميل، وشهرته تغني عن الإطناب ومؤلفاته راجت في حياته، وانتشرت في المدن الإسلامية كان منها: «تلخيص البيان في مجازان القرآن» و«حقائق التأويل في متشابه التنزيل» وخصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) و«ديوان شعره» و«رسائل الشريف الرضي» و«المجازات النبوية» و«مجازات الآثار النبوية» و«نهج البلاغة» وهذه المؤلفات كلها مطبوعة متداولة.

توفي السيد الشريف الرضي (رحمه الله) يوم الأحد السادس من محرم الحرام سنة ست وأربعمائة ودفن في داره بمسجد الأنباريين بالكرخ، ثم نقل إلى مشهد الحسين (عليه السلام) بكربلاء ودفن عند أبيه، وقد حضر جنازته الوزير فخر الملك، وجميع الأشراف والأعيان والقضاة، وكان يوماً مشهوداً.

١ . ترجمته في الثعالبى، يتيم الدهر: ١٣٦/٣، والخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٢/٤٦٢، وابن خلكان، وفيات الأعيان: ٤/١٦٤، وابن عنبه، عمدة الطالب: ٢٠٤، وابن معصوم، الدرجات الرفيعة: ٤٦٦-٤٦٨، والبحراني، لؤلؤة البحرين: ٣٢٢-٣٢٩، والنوري، خاتمة مستدرک الوسائل: ٣/١٩٢-٢١٠، وأغا بزرك الطهراني، النابس في القرن الخامس: ١٦٤-١٦٥.

طرق أسانيد روايات نهج البلاغة

ابتدأ السيد الشريف الرضي (رضوان الله تعالى عليه) تأليف كتاب في خصائص الأئمة المعصوميين (عليهم السلام)، وأكمل منه خصائص أمير المؤمنين (عليه السلام)، وحالت الأيام دون إتمام هذا الكتاب، وألحق بخصائص أمير المؤمنين (عليه السلام) فصلا يتضمن محاسن ما نقل عنه (عليه السلام) من الكلام القصير في المواعظ والحكم والأمثال والآداب، فاستحسن جماعة من اصدقائه هذا العمل معجبين به، وسألوه أن يؤلف كتابا يحتوي على كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) في جميع فنونه ومنتشعات غصونه من خطب وكتب وحكم ومواعظ وادب، فاجابهم إلى ذلك، فكان «نهج البلاغة» بما اشتمل عليه من محاسن كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) من الخطب والكتب والحكم والأدب.^١

احتل نهج البلاغة مكانته الرفيعة بين الكتب المشهورة المتداولة بين العلماء والناس وقد ترك هذا الكتاب أثرا جميلا في نفوس الدارسين والباحثين على السواء، وانتشرت روايته حتى بلغت كثيرا من المدن الإسلامية في شرق الدنيا وغربها، وتصدر لقراءته وسماعه جملة من العلماء الأفاضل كان في مقدمتهم جامع نهج البلاغة السيد الشريف الرضي (رضوان الله عليه) وقد تحلق حوله طلابه وأصدقائه والمحبون لسماع نهج البلاغة، فكان أول شيخ تصدر لاسماع نهج البلاغة، فأخذ عنه طلابه، وعنه وعن طلابه - الذين سنذكرهم - انتشرت رواية نهج البلاغة في الأفاق حتى يومنا هذا.

وبالنظر لكثرة طرق الرواية وأسانيد العلماء الرواة لنهج البلاغة اقتصرنا على أربعة طرق في أزمنة مختلفة، لبيان تواصل رواية هذا الكتاب الجليل أكثر من ألف عام في حلقات الدرس والسماع والمدارس والحوزات العلمية، وهي:

الطريق الأول: رواية الشيخ الجليل جمال الدين الحسن بن يوسف بن المطهر العلامة الحلي (ت ٧٢٦هـ).

الطريق الثاني: رواية الشيخ الفاضل الأديب محمد بن الحسن بن علي بن محمد الحر العاملي (ت ١١٠٤هـ).

الطريق الثالث: رواية القاضي العلامة محمد بن علي بن عبد الله الشوكاني الصنعاني (ت ١٢٥٠هـ).

الطريق الرابع: رواية السيد شهاب الدين أبي المعالي محمد الحسين المرعشي النجفي (ت ١٤١١هـ).

الطريق الأول: رواية الشيخ جمال الدين الحسن بن يوسف بن المطهر الحر العاملي.

١- جمال الدين أبو منصور الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر المعروف بالعلامة الحلي^٢ (ت ٧٢٦هـ).

لقد اشتهر بالعلامة الحلي، ولم يتفق لأحد من علماء الإمامية أن لقب ب(العلامة) على الإطلاق غيره، وإذا ما أطلق مجردا علم أن المراد منه هو جمال الدين الحسن بن يوسف بن المطهر الحلي.

نشأ في مدينة الحلة ودرس في حلقة خاله الشيخ نجم الدين أبي القاسم جعفر بن الحسن المعروف بالمحقق الحلي، وقد أخذ عنه الفقه وجميع ما صنفه وقرأه. ودرس الفقه على الشيخ مفيد الدين محمد بن علي بن جهم (جهيم) الأسدي، وأخذ عن السيدين الجليلين رضي الدين علي بن موسى بن طاووس وأخيه جمال الدين أحمد، ودرس عليهما الفقه والحديث والآداب، وأخذ عن العلامة الفيلسوف نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن الطوسي، العلوم العقلية، وعن غيره من العلماء.

١ . ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٨٣/١

٢ . ترجمته في: ابن أبي داود الحلي، الرجال: ١١٩، والذهبي، سير أعلام النبلاء: ٤٧٤/١٧، والصفدي، أعيان العصر: ٢/ ٢٩٢-٢٩٣، والوافي بالوفيات: ٨٥/١٣، وابن حجر، الدرر الكامنة: ٤٩/٢، و٧١، وصالح مهدي عباس، شخصية العلامة الحلي الأدبية واللغوية من أسانيد مسموعاته ومروياته عن شيوخه: ٧-١.

أثنى عليه ابن داود بقوله: «شيخ الطائفة، وعلامة وقته، وصاحب التحقيق والتدقيق، كثير التصانيف، انتهت رئاسة الإمامة إليه في المعقول والمنقول...».

له مؤلفات جلييلة في عجة فنون زادت على العشرين ومئة مؤلفا في العلوم العقلية والنقلية، منها: «تبصرة المتعلمين في أحكام الدين» و«قواعد الأحكام في معرفة الحلال والحرام» و«تهذيب طرق الوصول إلى علم الأصول» و«النهج الوضاح في الأسانيد والصحاح» و«نهج الإيمان في تفسير القرآن» و«المطالب العلية في علم العربية» و«خلاصة الأقوال في معرفة الرجال» و«النور المشرق في علم المنطق» وغيرها.

٢- عن والده سعيد الدين أبي المظفر يوسف بن علي بن المطهر الحلي (كان حيا سنة ٦٦٥هـ)^١.

كان موصوفا بسعة الأطلاع والعلم والفضل والفقاهه وطول الباع بالكلام وأصول فضلا عن الجلالة والكمال، وكان فقيها محققا مدرسا عظيم الشأن. وكان هو والشيخ مفيد الدين محمد بن علي بن جهيم الحلي أعلم فقهاء الحلة وعلماؤها في عصرهما بعلمي الكلام وأصول الفقه، وله عدة مصنفات في الأصول والحديث والفقه رواها عنه حفيده فخر الدين أبو طالب محمد بن الحسن بن يوسف بن المطهر.

٣- عن السيد جمال الدين أبي الفضائل أحمد بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس العلوي الحسني (ت ٦٧٣هـ)^٢.

السيد الكبير السعيد الزاهد العابد الورع. كان عالما فاضلا صالحا زاهدا عابدا ورعا فقيها محدثا مدققا، ثقة شاعرا، جليل القدر، عظيم الشأن. وكان مجتهدا واسع العلم إماما في الفقه وأصوليين وأدب والرجال ومن أروع فضلاء أهل زمانه وأقنهم وأثبتهم وأجلهم حقق الرجال والرواية والتفسير تحقيقا لامزيد عليه.

روى عنه العلامة الحلي الحسن بن يوسف بن المطهر جميع مصنفاته ومروياته ومقروءاته. له مؤلفات جلييلة زادت على الثمانين مجلدا منها: «بشرى المحققين» في الفقه، و«شواهد القرآن» و«بناء المقالة العلوية في نقض الرسالة العثمانية» و«المسائل في أصول الدين» و«عين العبرة في غبن العترة» و«زهرة الرياض في المواعظ» و«الأزهار في شرح لامية مهيار» وغيرها.

٤- عن نجم الدين أبي القاسم جعفر بن الحسن بن يحيى بن سعيد المعروف بالمحقق الحلي (ت ٦٧٦هـ)^٣.

اشتغل بالدراسة وتحصيل العلم على عدد من العلماء منهم والده الشيخ حسن بن يحيى بن سعيد الهذلي، والسيد فخار بن معد الموسوي، ونجيب الدين محمد بن نما الحلي وغيرهم، حتى وصف بالمحقق المدقق، واحد عصره، ألسن أهل زمانه وأقومهم بالحجة وأسرعهم استحضارا، وحاله في الفضل والعلم والثقة والجلالة والفصاحة والشعر والأدب، وجمع العلوم والفضائل والمحاسن أشهر من أن تذكر، وكان عظيم الشأن، جليل القدر، رفيع المنزلة، لانظير له في زمانه.

كان له حلقة درس أبرز طلابه فيها ابن أخته العلامة الحلي الذي روى عنه جميع مصنفاته ومروياته - له مؤلفات نبيلة كان منها: «شرائع الإسلام في مسائل الأحلال والحرام» و«كتاب المسلك في أصول الدين» و«كتاب المعارج في أصول الفقه» و«كاتب المنطق» و«المسائل الغرية» و«المعتبر في شرح المختصر» وهو مختصر شرائع الإسلام، وغيرها.

١ - ترجمته في: ابن داود الحلي، الرجال: ١٢٠، والتستري، مجالس المؤمنين: ٥٧١/١، وعبد الله أفندي، رياض العلماء: ١٣٠، والخوانساري، روضات الجنات: ١٧٦.

٢ - ترجمته في: ابن داود الحلي، الرجال: ٤٥، والخوانساري، روضات الجنات: ١٩، وعبد الله أفندي، رياض العلماء: ١٣٠، والحر العاملي، تذكرة المتبحرين: ٤٦١.

٣ - ترجمته في: ابن داود الحلي، الرجال: ٨٣، والبحراني، لؤلؤة البحرين: ١٥٠، والخوانساري، روضات الجنات: ١٤٩، والقمي، الفوائد الرضوية: ٦٤.

- وثلاثتهم (أعني: والده سديد الدين يوسف، وجمال الدين بن طاووس، ونجم الدين جعفر المحقق الحلي).

٥- عن السيد شمس الدين أبي علي فخار بن معد بن فخار بن أحمد العلوي الموسوي الحائري (ت ٦٣٠هـ).

كان عالماً فاضلاً أديباً محدثاً، فقيهاً رجالياً نساباً راويةً شاعراً، وكان من عظماء وقته بحيث لم يخل منه سند من أسانيد علمائنا المحدثين.

روى عنه والده السيد الجليل معد، ومحمد بن أحمد بن إدريس الحلي، صاحب كتاب السرائر، والفقهاء أبي الفضل شاذان بن جبريل القمي، والنقيب أبي منصور الحسن بن معية العلوي الحسني، والسيد أحمد بن محمد الموسوي، وغيرهم.

وروى عنه الشيخ سديد الدين يوسف بن المطهر، والسيد جمال الدين أحمد بن طاووس، والشيخ نجم الدين جعفر بن الحسن المحقق الحلي، ولده السيد جلال الدين عبد الحميد بن فخار الموسوي، والشيخ شمس الدين محمد بن أحمد بن صالح السبيبي القسيني، وغيرهم.

له كتاب «الحجة على الذاهب إلى تكفير أبي طالب» وهو كتاب لطيف نافع جامع في فنه، ردّ فيه على ابن أبي الحديد المعتزلي مؤلف «شرح نهج البلاغة» الذي توقف في إسلام أبي طالب (رضي الله عنه).

٦- عن الشيخ الجليل الثقة سديد الدين أبي الفضل شاذان بن جبرئيل بن اسماعيل بن أبي طالب القمي^٢، نزيل المدينة المنورة دار هجرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

كان عالماً فاضلاً فقيهاً عظيم الشأن جليل القدر، صاحب المؤلفات البديعة التي منها: «إزاحة العلة في معرفة القبلة» و«تحفة المؤلف الناظم وعمدة المكلف الصائم» و«الروضة في فضائل أمير المؤمنين (عليه السلام)» وغيرها.

روى عن والده جبرئيل بن إسماعيل القمي، وعماد الدين أبي القاسم الطبري، والشيخ أبي الحسن محمد بن محمد البصروي، والسيد أحمد بن محمد الموسوي، وغيرهم.

روى عنه الشيخ محمد بن جعفر المشهدي، والسيد شمس الدين فخار بن معد الوسوي. كان حياً في أواخر سنة ٥٩٣هـ، ولعله تجاوز القرن السادس الهجري.

٧- عن السيد أحمد بن محمد الموسوي^٣.

كان عالماً فاضلاً جليلاً وهو السيد المُسَيّد الذي يروي عن القاضي أبي المعالي أحمد بن علي بن قدامة، يروي عنه تلميذه أبو الفضل شاذان بن جبرئيل القمي، وهو من أعلام القرن السادس الهجري.

٨- عن الشيخ الجليل القاضي أحمد بن علي بن قدامة (ت ٤٨٦هـ).

كان قاضي الأنبار فاضلاً جليلاً فقيهاً، له معرفة بالشعر، وكان أديباً. وهو من تلاميذ الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان العكبري وقرأ عليه «الإرشاد إلى معرفة حجج الله على العباد» سنة ٤١١هـ. ويروي أيضاً عن السيد الشريفي الرضي والمرتضى رحمهما الله تعالى.

روى عنه القاضي عماد الدين الحسن بن محمد بن أحمد الإستريادي قاضي الري، والسيد نجم الدين حموة بن أبي الأغر الحسيني، والسيد أحمد بن محمد الموسوي، وغيرهم.

١ - ترجمته في: الحر العاملي، أمل الأمل: ٢/٢١٤، والبحراني، لؤلؤة البحرين: ٢٨٠-٢٨٢، والنوري، خاتمة مستدرک الوسائل: ٢/٣٣٢-٣٣٣

٢ - ترجمته في: الحر العاملي، أمل الأمل: ٢/١٣٠، والنوري، خاتمة مستدرک الوسائل: ٣/٣٣-٣٤، واغابزرك الطهراني، الثقات العيون: ١٢٨.

٣ - ترجمته في: الحر العاملي، أمل الأمل: ٢/٧٢، والنوري، خاتمة مستدرک الوسائل: ٣/٣٩-٤٠، والمرعشي، الإجازة الكبيرة: ٣٨٣.

٤ - ترجمته في: الأنباري، نزهة الألباء: ٢٧٠، وابن شهر آشوب، المناقب: ١/١٢، والبحر العاملي، أمل الأمل: ٢/١٩-٢٠، والنوري، خاتمة مستدرک الوسائل: ٣/٩٧-٩٨، واغابزرك الطهراني، النابيس: ٢١، والمرعشي، الإجازة الكبيرة: ٣٩٧.

٩- عن جامع «نهج البلاغة» السيد الشريف الرضي أبي الحسن محمد بن الحسين بن موسى العلوي الموسوي (ت ٤٠٦ هـ).

الطريق الثاني: رواية الشيخ الأديب محمد بن الحسن الحر العاملي (ت ١١٠ هـ).
العالم الحافظ الأديب محمد بن الحسن بن علي بن محمد بن الحسين الحر العاملي.
آل الحر بيت علم قديم، وأسرة من الأسر العلمية العريقة في جبل عامل بلبنان.
وينتهي نسبها إلى الشهيد الحر بن يزيد الرياحي (رضوان الله عليه) في واقعة الطف مع سيد الشهداء الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام).

أخذ الحر العاملي عن شيوخ العلم، وكبار الكثير العلماء في عصره، وروى الكثير عن شيوخ الرواية والحديث في زمانه، كان من أبرزهم والده الشيخ حسن بن علي بن محمد الحر العاملي وقرأ عليه العربية والفقه، وعمّه الشيخ محمد بن علي بن محمد الحر العاملي أخذ عنه الفقه، والشيخ حسين بن الحسن بن يونس الظهيري العاملي أخذ عنه الفقه والحديث والعربية، وغيرهم.

كان شيخ المحدثين وأفضل المتبحرين، وهو العالم الفقيه النبيه المحدث المتبحر الورع الثقة الجليل، أبو المكارم والفضائل، صاحب المصنفات المفيدة، التي زادت على الخمسين مؤلفاً منها: «وسائل الشيعة» و«إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات» و«بهية الهداية» و«الجواهر السنوية في الأحاديث القدسية» و«أمل الآمال» و«تواتر القرآن» وغيرها.
توفي رحمه الله في اليوم الحادي والعشرين من شهر رمضان سنة أربع ومائة وألف.

٢- عن الشيخ الجليل الفقيه أبي عبد الله حسين بن الحسن بن يونس بن يوسف بن محمد بن ظهير الدين الظهيري العاملي.^١

قال الحر العاملي: «شيخنا، كان فاضلاً عالماً ثقة صالحاً زاهداً عابداً ورعاً فقيهاً ماهراً شاعراً. قرأ عنده أكثر فضلاء المعاصرين، بل جماعة من المشايخ السابقين عليهم، وأكثر تلامذته صاروا فضلاء علماء ببركة أنفاسه، قرأت عنده جملة من كتب العربية والفقه وغيرهما من الفنون، ومما قرأت عنده أكثر كتاب «المختلّف». وألف رسائل متعددة، وكتاباً في الحديث، وكتاباً في العبادات والدعاء، له شعر قليل. وهو أول من أجازني. وكان ساكناً في جبع ومات بها رحمه الله وهو أول من أجاز الحر العاملي كتابة ومشافهة سنة إحدى وخمسين وألف.

٣- عن الشيخ الفاضل نجيب الدين علي بن محمد بن مكي بن عيسى بن حسن العاملي الجبعي.^٢
كان عالماً فاضلاً فقيهاً محدثاً محققاً مدققاً شاعراً أديباً، جليل القدر. قرأ على الشيخ ابن الشهيد الثاني، والشيخ بهاء الدين محمد بن الحسين بن عبد الصمد الحارثي، وغيرهما. كان كثير التنقل والترحال فدخل الحجاز واليمن والهند والعراق. وكان حسن الخط والحفظ. له «شرح الرسائل و الإثني عشرية» وجمع «ديوان الشيخ حسن ابن الشهيد الثاني». وروى عن أبيه، وجده. وله شعر رائق.

أجاز للسيد عز الدين حسين بن حيدر الحسيني الكركي في الثامن عشر من شهر محرم الحرام سنة عشر بعد الألف من الهجرة الشريفة.

٤- عن الشيخ الجليل بهاء الدين محمد بن الحسين بن عبد الصمد بن محمد الحارثي الهمداني العاملي الجبعي.^٣

كان هذا الشيخ علماً فهماً، محققاً دقيق النظر، جامعاً لجميع العلوم، حسن التقرير، جيد التحرير، بديع التصنيف، أنيق التأليف.

١ . ترجمته في: البحراني، لؤلؤة البحرين: ٦١-٦٤، والحر العاملي، أمل الآمل: ١/١٤١-١٥٤، القمي، الكنى والألقاب: ١٥٨/٢، العاملي، أعيان الشيعة: ٤٤/٥٢-٦٤، كحالة، معجم المؤلفين: ٩/٢٠٤.

٢ . ترجمته في: الحر العاملي، أمل الآمل: ٧٠/١.

٣ . ترجمته في: الحر العاملي، أمل الآمل: ١٣٠/١-١٣٣، والمجلسي، بحار الأنوار: الإجازات: ٢٧٥/٢٥-٢٧٦.

٤ . ترجمته في: الحر العاملي، أمل الآمل: ١٥٥/١-١٦٠، والمجبي، خلاصة الأثر: ٣/٤٤٠، والبحراني، لؤلؤة البحرين: ١٦-٢٣، والمرعشي، الإجازة الكبيرة: ٣٣٧.

لأثنى عليه الشيخ محمد المحبي قائلًا: «صاحب التصانيف والتحقيقات وهو أحق من كل حقيق بذكر أخباره ونشر مزاياه، واتحاف العالم بفضائله وبدائعه، وكان أمة مستقلة في الأخذ بأطراف العلوم، والتضلع بدقائق الفنون، وما أضن الزمان سمح بمثله، ولا جاد بنده، وبالجملة فلم تتشرف الأسماع بأعجب من أخباره».

له مؤلفات جليلة نبيلة منها: «الحبل المتين في إحكام أحكام الدين» جمع فيه الأحاديث الصحاح والحسان والموثقات وشرحها شرحًا لطيفًا. و«العروة الوثقى» في تفسير القرآن و«الزبدة في الأصول»، و«رسالة في المواريث» و«الصمدية في النحو» و«التهذيب في النحو» و«شرح الصحيفة الموسوم بحقائق الصالحين» و«الخلاصة في الحساب» وغير ذلك. توفي رحمه الله لاثنتي عشرة ليلة خلت من شوال سنة إحدى وثلاثين بعد الألف، وكانت وفاته بأصبهان، ثم نقل ودفن في المشهد الرضوي على مشرفه السلام.

٥- عن والده الشيخ الفاضل عز الدين حسين بن عبد الصمد بن محمد الحارثي الهمداني العاملي الجبعي^١.

كان عالماً ماهراً محققاً مدققاً متبحراً جامعاً أديباً منشئاً شاعراً عظيم الشأن، جليل القدر، ثقة، من فضلاء تلامذة الشيخ الشهيد الثاني. وكان كثير الترحال إلى البلاد الإسلامية فرحل إلى خراسان، وأقام بهراة مدة ثمانين سنين لوعظ أهل هراة وإرشادهم، والقيام بإفادة العلوم الدينية وإجراء الأحكام الشرعية فيها، وقد توجه إلى حضرته الطلبة، بل العلماء والفقهاء من الأطراف والأكناف من أهل إيران وتوران لأجل مقابلة الحديث وأخذ العلوم الدينية، وتحقيق المعارف الشرعية.

له مؤلفات مفيدة منها: «كتاب الأربعين حديثاً» و«رسالة في الرد على أهل الوسواس سماها العقد الحسيني» و«حاشية الإرشاد» و«تحفة أهل الإيمان» و«العقد الطمائي» وغير ذلك. توفي رحمه الله لثمان خلون من شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وتسعمائة عن ست وستين سنة تقريباً.

٦- عن الشيخ الجليل زين الدين بن علي بن أحمد بن محمد بن جمال الدين بن تقي الدين بن صالح العاملي الجبعي المعروف بالشهيد الثاني^٢.

كان من أعيان العلماء، وأعظم الفضلاء، وهو عالم عامل، محقق مدقق، زاهد مجاهد، ومحاسنه أكثر من أن تحصى. ختم القرآن وهو ابن تسع سنين، وقرأ على والده فنون العلوم العربية والفقهاء، وبعد وفاة والده سنة ٩٢٥ هـ اشتغل على الشيخ علي بن عبد العالي الميسي، ثم ارتحل إلى دمشق فاشتغل على الشيخ محمد بن مكي بن عيسى العاملي الشامي، وعلى الشيخ أحمد بن جابر الأندلسي، وعلى كثير من علماء زمانه، الذين أخذ عنهم الفقه والحديث والعربية والأصول.....

له مؤلفات جليلة منها: «منية المرید في آداب المفيد والمستفيد» و«كتاب المسالك» و«شرح الألفية في النحو» و«مسكن الفؤاد عند فقد الأحبة والأولاد» و«كشف الريبة في أحكام الغيبة» و«منار القاصدين في أسرار معالم الدين» و«غنية القاصدين في اصطلاحات المحدثين» و«الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية» وغير ذلك.

توفي رحمه الله شهيداً سنة ست وستين وتسعمائة في قصة طويلة ذكرتها كتب التراجم.

٧- عن الشيخ الجليل نور الدين علي بن عبد العالي العاملي الميسي^٣.

١ . ترجمته في: الحر العاملي، أمل الآمل: ١/٧٤-٧٧، والحرائي، لؤلؤة البحرين: ٢٣-٢٨، والنوري، خاتمة مستدرک الوسائل: ٢/٢٣٢-٢٣٤، والمرعشي، الإجازة الكبيرة: ٣٣٧.

٢ . ترجمته في: الحر العاملي، أمل الآمل: ١/٨٥-٩١، والحرائي، لؤلؤة البحرين: ٢٨-٣٦، والنوري، خاتمة مستدرک الوسائل: ٢/٢٣٥-٣٥٥، والمرعشي، الإجازة الكبيرة: ٣٣٨.

٣ . ترجمته في: الحر العاملي، أمل الآمل: ١/١٢٣، والبحرائي، لؤلؤة البحرين، ١٧٠، وعبد الله أفندي، رياض العلماء: ٤/١٢١، والنوري، خاتمة المستدرک: ٢/٢٧٢-٢٧٤، والمرعشي، الإجازة الكبيرة: ٣٣٧، و٤٦٢.

الإمام الأعظم، شيخ فضلاء الزمان، ومربي العلماء الأعيان، الشيخ الجليل الفاضل المحقق العابد الزاهد الورع التقي. كان عالما متبحرا محققا مدققا جامعا كاملا، جليل القدر، عظيم الشأن فريدا في عصره.

روى عنه الشيخ الجليل الشهيد الثاني زين الدين بن علي العاملي بغير واسطة، وروى عنه بواسطة السيد حسن بن جعفر بن فخر الدين الأعرج الحسيني.

له مصنفات جلية منها: «شرح رسالة صيغ العقود والإيقاعات» و«شرح الجعفرية» وغيرهما.

توفي رحمه الله ليلة الأربعاء الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة، ودفن ليلة الخميس بجبل صديق النبي. وظهرت له كرامات كثيرة قبل موته وبعده.

٨- عن الشيخ الجليل شمس الدين محمد بن محمد بن داود المؤذن العاملي الجزيني^١. كان عاملا فاضلا جليلا شاعرا. يروي عن الشيخ ضياء الدين علي بن الشهيد الأول محمد بن مكي العاملي عن أبيه.

قال الحر العاملي: «وقد رأيت كتابا بخطه فيه عدة رسائل منها: عين العبرة في غبن العترة، للسيد أحمد بن طاووس، ورسالة ما قيل فيمن عانق محبوبته مرتديا بالسيف، للسيد المرتضى، وغير ذلك. ورأيت فيه بخطه حديثا عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أن رجلا قال له: «علمني دعاء جامعاً موجزاً! فقال له: الحمد لله على كل نعمة، وأسأل الله من كل خير، وأعوذ بالله من كل شر، واستغفر الله من كل ذنب».

٩- عن الشيخ الجليل ضياء الدين علي ابن الشهيد الأول محمد بن مكي العاملي الجزيني^٢. كان فاضلا محققا صالحا ورعا، جليل القدر، ثقة، فقيها عارفا بالعلوم العربية، بصيرا بالعلوم الشرعية.

روى عنه أبيه الشهيد السعيد محمد بن مكي العاملي، وعن بعض مشايخه، روى عنه الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن داود المؤذن العاملي، وغيره.

١٠- عن والده الشهيد الأول السعيد شمس الدين محمد بن مكي بن محمد بن حامد العاملي الجزيني^٣.

كان عالما ماهرا فقهيا مجتهدا، متبحرا في العقليات والنقليات، زاهدا عابدا ورعا فريدا دهره، فضله أشهر من أن يذكر، ونبله أعظم من أن ينكر. وكان شاعرا أديبا منشئا، عديم النظر في زمانه.

أكثر من الرواية عن شيوخه وارتحل لطلب العلم إلى مكة والمدينة وبغداد ومصر ودمشق وبيت المقدس ومدينة الخليل (عليه السلام) ومن تأمل في مدة عمره الشريف، وسفره إلى تلك البلاد، وتصانيفه الرائقة في الفنون الشرعية، وتبحره في الفنون العربية والأشعار والقصاص النافعة، يعلم أنه من الذين اختارهم الله تعالى لتكميل عباده وعمارة بلاده، وأن كل ما قيل أو يقال في حقه فهو دون مقامه ومرتبته.

له مؤلفات جلية منها: «الدروس الشرعية في فقه الإمامية» و«غاية المراد في شرح بكت الإرشاد» و«البيان في الفقه» و«اللمعة دمشقية» و«كتاب الأربعين حديثا» و«خلاصة الإعتبار في الحج والأعتبار» وغيرها.

قتل رحمه الله شهيدا بالسيف حريقا بعده بالنار، يوم الخميس تاسع جمادى الأولى سنة ست وثمانين وسبعمائة بدمشق.

١ - ترجمته في: الحر العاملي، أمل الآمل: ١٧٩/١، والبحراني، لؤلؤة البحرين: ١٧١-١٧٢، وعبد الله أفندي، رياض العلماء: ٣٢٨/٤، والنوري، خاتمة المستدرک: ٢٧٣/٢، والخوانساري، روضات الجنات: ٦٢٢.

٢ - ترجمته في: الحر العاملي، أمل الآمل: ١٣٤/١، والنوري، خاتمة المستدرک: ٢٧٣/٢-٢٧٤.

٣ - ترجمته في: الحر العاملي، أمل الآمل: ٢٣٥/١، والبحراني، لؤلؤة البحرين: ١٤٣-١٤٨، والنوري، خاتمة المستدرک: ٣٠٢/٢-٣١١، والخوانساري، روضات الجنات: ٦١٧-٦٢٢، واغابزرك الطهراني: الحقائق الراهنة: ٢٠٥-٢٥٧، والمرعشي، الإجازة الكبيرة: ٤٣٩-٤٤٠.

١١- عن السيد الفقيه شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي المعالي جعفر بن علي العلوي الحسيني الموسوي^١.

الفقيه المحقق، الأديب الأريب، الصالح الحافظ المتقن. وهو السيد الكبير المعظم الفاضل، الحامل لكتاب الله، شرف العترة الطاهرة مفخرة الأسرة النبوية.

روى عن خاله السيد محمد بن الحسن بن محمد بن أبي الرضا العلوي، وعن الشيخ العلامة كمال الدين علي بن شرف الدين الحسين بن حماد الليثي الواسطي، والشيخ نجيب الدين يحيى بن سعد الهذلي الحلبي، وغيرهم.

توفي رحمه الله في شهر رمضان سنة تسع وستين وسبع مائة.

١٢- عن الشيخ العام نجيب الدين أبي زكريا يحيى بن أحمد بن يحيى بن الحسن بن سعيد الهذلي الحلبي^٢.

الإمام العلامة الورع القدوة، كان جامعاً لفتون العلوم الأدبية والفقهية والأصولية، وكان أروع الفضلاء وأزهدهم، ومن العلماء الفقهاء المتبحرين.

روى عن والده عن جده يحيى، عن فخار بن معد الموسوي، والمحقق الحلبي وهو ابن عمه، والسيد محمد بن عبد الله بن زهرة الحلبي، ومحمد بن جعفر بن هبة الله بن نما روى عنه العلامة الحسن بن يوسف بن المطهر الحلبي، وولده محمد بن يحيى بن أحمد، والحسين بن أردشير بن محمد الطبري، والسيد شمس الدين محمد بن أبي المعالي، وعلي بن الحسين بن حماد الليثي الواسطي، وغيرهم.

له المؤلفات الجليلة منها: «الجامع للشرايع» و«نزهة الناظر في الأشباه والنظائر» و«المدخل في أصول الفقه» وغيرها.

توفي رحمه الله ليلة عرفة من ذي الحجة سنة تسع وثمانين وست مائة، ودفن بالحلة وقبره مشهور معروف.

١٣- عن السيد الإمام العالم محيي الدين أبي حامد محمد بن أبي القاسم عبد الله بن علي بن زهرة الحسيني الحلبي^٣.

العالم النحرير المعظم، والفاضل الجليل روى عن عمه أبي المكارم حمزة بن علي بن زهرة، محمد بن أسعد الجواني، ورشيد الدين محمد بن علي بن شهر آشوب، ومحمد بن أحمد الصوفي، وغيرهم، وتصدر للرواية فسمع منه السيد رضي الدين علي بن موسى بن طاووس، نجيب الدين يحيى بن أحمد بن يحيى الهذلي الحلبي، ونجم الدين جعفر بن الحسن المحقق الحلبي، وغيرهم.

ألف «كتاب الأربعين» في حقوق الأخوان، ونقل منه الشهيد الثاني رسالة الصادق (عليه السلام) غلى النجاشي والي الأحواز، وأودعها في كتابه «كشف الريبة».

قال شمس الدين الذهبي: «روى عن عمه أبي المكارم حمزة بن علي، وعنه مجد الدين العديمي وقال: «مات في جمادى الأولى سنة ست وعشرين وست مائة، وله ستون سنة. وكان فقيهاً يُعدُّ من علمائهم».

ويظهر من النص: أن ولادته سنة ست وستين وخمس مائة وإن قراءته لكتاب «المقنعة» للشيخ المفيد، على عمه أبي المكارم حمزة بن علي في سنة أربع وثمانين وخمس مائة، ولم يكن يبلغ العشرين من عمره، صحيحه لا ريب فيها.

١٤- عن الشيخ الجليل العالم رشيد الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن شهر آشوب بن أبي نصر السروي المازندراني^٤.

١ . ترجمته في: النوري، خاتمة المستدرک: ٣٤٦/٢-٣٤٨، وأغابزرك الطهراني، الحقائق الراهنة: ١٧٧-١٧٨.
٢ . ترجمته في: الحر العاملي، أمل الأمل: ٣٤٦/٢-٣٤٨، والبحراني، لؤلؤة البحرين: ٢٥٢-٢٥٣، والنوري، خاتمة المستدرک: ٤١٤/٢-٤١٦، والمرعشي، الإجازة الكبيرة: ٤٦٦/١.
٣ . ترجمته في: الحر العاملي، أمل الأمل: ٢٨٠/٢، والنوري، خاتمة المستدرک: ٨-٧/٣، والذهبي، تاريخ الإسلام: ٢٢١-٢٤١/٢٣٠.

الفقيه المحدث، والمفسر المحقق، والأديب البارِع، والجامع لفنون الفضائل، وأفضل الأوائل، محيي آثار المناقب والفضائل.

كان عالماً فاضلاً، ثقة، عارفاً بالرجال والأخبار، أديباً شاعراً جامعاً للمحاسن، متقدماً في علم القرآن واللغة والنحو، وكان واسع العلم كثير العبادة والتهجد والخشوع.

روى عن جده شهر آشوب عن الشيخ أبي جعفر الطوسي، وروى عن محمد وعلي ابني عبد الصمد النيسابوري، والشيخ أبي منصور أحمد بن علي بن أي طالب الطبرسي، والسيد أبي الصمصام ذي الفقار بن معبد الحسني، والسيد المنتهى بن أبي زيد الحسيني الجرجاني، وغيرهم. له المؤلفات الجليّة منها: «مناقب آل أبي طالب» و«المخزون والمكنون في عيون الفنون» و«الفصول في النحو» و«أسباب نزول القرآن» و«ومتشابه القرآن» و«الأعلام والطرائق في الحدود والحقائق» وغيرها.

توفي رحمه الله في الثاني والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسائة، عن مائة سنة إلا عشرة أشهر، ودفن في سفح جبل جوشن في مدينة حلب.

١٥- عن السيد الجليل عماد الدين أبي الصمصام ذي الفقار بن محمد بن معبد بن الحسن بن أحمد بن إسماعيل العلوي الحسني المروزي^٢.

عالم دين، سيد جليل، يروي عن السيد لأجل الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، والشيخ محمد بن علي الحلواني، والشيخ أبي العباس أحمد بن علي النجاشي صاحب كتاب «الرجال» وغيرهم.

كان جليل القدر، ذا شأن عظيم وسعى جهده في بث أحاديث أجداده الكرام عليهم السلام، قلما خلت إجازة من روايته لسعة علمه ودرايته، والثقة بورعه وديانته. وكان فقيهاً عالماً متكلماً ضريراً.

توفي رحمه الله في حدود سنة عشرين وخمسائة عن عمر يزيد على المائة وعشر سنين.

١٦- عن الشيخ الجليل أبي عبد الله محمد بن علي الحلواني^٣.

شيخ جليل، وعالم فاضل، يروي عن السيد الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي، وأخيه السيد الشريف الرضي محمد بن الحسين الموسوي، روى عنه السيد عماد الدين أبو الصمصام ذو الفقار بن محمد بن معبد الحسني المروزي.

يحتمل أن تكون وفاته رحمه الله بعد الستين وأربعمائة.

١٧- عن السيد الشريف الرضي جامع كتاب «نهج البلاغة»

الطريق الثالث: رواية القاضي محمد علي الشوكاني الصنعاني (ت ١٢٥٠هـ).

- طريق الرواية اليمينية من كتاب «إتحاف الأكابر بأسانيد الدفاتر» للشيخ محمد بن علي الشوكاني اليميني.

١- الشيخ الجليل محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني الصنعاني (ت ١٢٥٠هـ)؛

نشأ بصنعاء فقرأ القرآن على جماعة من المعلمين وختمه على الفقيه حسن بن عبد الله الهبل، وجوّده على جماعة من مشايخ القرآن بصنعاء. وحفظ كتباً كثيرة منها: «الأزهار» للإمام المهدي و«مختصر الفرائض» للعصيفري، و«ملحة الأعراب» للحريري، و«الكافية» و«الشافية» كلاهما لأبوت الحاجب، و«التلخيص» للقريني، وغيرها.

كان كثير الإشتغال بمطالعة كتب التواريخ ومجاميع الأدب، ثم شرع في الطلب فقرأ على والده، وعلى السيد العلامة عبد الرحمن بن قاسم المداني، والعلامة أحمد بن عامر الحدائي،

١ . ترجمته في: الحر العاملي، أمل لأمل: ٢٨٥/٢-٢٨٦، والبحراني لؤلؤة البحرين: ٣٤٠-٣٤١، والنوري، خاتمة المستدرک: ٧٠-٥٦/٣، والصفدي، الوافي بالوفيات: ١٦٤/٤.

٢ . ترجمته في: الحر العاملي، أمل لأمل: ١١٦/٢، والنوري، خاتمة المستدرک: ١١٤-١١٦، وعمدة الطالب: ١١٥.

٣ . ترجمته في المرعشي، الإجازة الكبيرة: ٤٠٠، والناسيس في القرن الخامس: ١٧٣، والنوري، خاتمة المستدرک: ١١٥/٣.

٤ . ترجمته في: الشوكاني، البدر الطالع: ٢/ ٢٢٥-٢١٤.

والعلامة أحمد بن محمد بن الحرّازي، وبه انتفع بالفقه وعليه تخرج وطالت ملازمته له نحو ثلاث عشر درسا، منها ما يأخذه عن مشايخه، ومنها ما يأخذه عنه تلاميذه، واستمر على ذلك مدة.

وقد درس في فنون متعددة منها: التفسير والحديث والأصول والنحو والصرف والمعاني والبيان والمنطق والفقه والجدل والعروض.

وكان فقيها لأهل مدينة صنعاء. وصنف التصانيف المفيدة من مطولات ومختصرات منها: «نيل الأوطار شرح المنتقى من الأخبار» في أربع مجلدات، و«الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعية» و«الإعلام بالمشايخ الأعلام والتلامذة الكرام» و«البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» و«بغية الأريب من مغني اللبيب» و«تشنيف السمع بإبطال أدلة الجمع» وغيرها.

توفي رحمه الله ليلة الأربعاء لثلاث بقين من جمادى الآخرة سنة خمس مائة ومائتين بعد الألف، وصلى عليه بالجامع الكبير بصنعاء، ودفن بمقبرة خزيمة المشهورة بصنعاء عن سبع وسبعين سنة تقريبا.

٢- عن شيخه السيد العلامة علي بن إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن أحمد بن عامر الشهيد (ت ١٢٠٧ هـ).

قرأ بقرية شهارة على أهل العلم، ثم ارتحل إلى كوكبان وقرأ على من به من العلماء كالسيد عيسى بن محمد بن الحسين، ثم ارتحل إلى صنعاء وقرأ على السيد العلامة أحمد بن محمد بن إسحاق، والقاضي أحمد بن صالح بن أبي الرجال، وغيرهما.

وكان إماما في جميع العلوم محققا لكل فن، ذا سكينة ووقار، وقل أن يوجد له نظير في ذلك، غير متعلق بالمناصب الدنيوية التي هي منشأ العداوة إما لحسد أو غيره. أخذ عنه الطلبة في فنون متعددة وكانوا يقصدونه في الغالب إلى بيته، وله في الشعر يد طويلة وقصائده الطنانة موجودة في أيدي الناس. ولم يشتغل بالتأليف مع أنه أهل له.

توفي رحمه الله في اليوم السابع والعشرين من شهر رمضان سنة سبع ومائتين وألف.

٣- عن الشيخ العلامة حامد بن حسن شاكر الصنعائي اليميني.

نشأ بصنعاء وأخذ عن جماعة من أكابر العلماء فيها كالسيد العلامة صلاح بن الحسين الأخفش، والسيد العلامة هاشم بن يحيى الشامي، والسيد العلامة أحمد بن عبد الرحمن الشامي، وغيرهم. وأكب على علم الحديث حتى فاق فيه، وشارك في سائر الفنون مشاركة قوية، وانتفع به الناس في الوعظ، وكتبه مضبوطة غاية الضبط، ولا يضبط إلا عن بصيرة حتى صارت مرجعا بعد موته. وله مؤلفات دالة على سعة حفظه للحديث واتفق له هذا العلم، منها: «الإنموذج اللطيف في حديث أمر معاذ بالتخفيف».

توفي رحمه الله فجأة في سنة بضع وسبعين بعد المائة والألف.

٤- عن السيد أحمد بن يوسف بن الحسين بن الحسن ابن الإمام القاسم.

نشأ بصنعاء وأخذ عن علمائها، وكان عارفا بعدة فنون، فهو العلامة المحقق المحدث البارع في علم السنة المشهور بحفظها وحفظ رجالها، وله يد طويلة في علم الأدب وقصائد طنانة، وله «تخريج لمجموع الإمام زيد بن علي رضي الله عنه» نفيس يدل على باعه في علم الرواية. وكان مشهورا بدمائة الأخلاق والتواضع والاحتمال والصبر وسكون الطبع والوقار.

توفي رحمه الله في أواخر شهر جمادى الآخرة سنة ١١٩١ هـ.

٥- عن العلامة السيد إبراهيم بن القاسم بن المؤيد بالله محمد بن القاسم الحسيني الشهاري اليميني.

١ . ترجمته في: الشوكاني، البدر الطالع: ١/٤١٦-٤٢٠.

٢ . ترجمته في: الشوكاني، البدر الطالع: ١/١٨٨-١٨٩.

٣ . ترجمته في: الشوكاني، البدر الطالع: ١/١٢٨-١٣٠.

٤ . ترجمته في: الشوكاني، البدر الطالع: ١/٢٢-٢٣.

العلامة الحافظ المؤرخ مصنف كتاب «طبقات الزيدية» وهو كتاب لم يؤلف مثله في بابه، جمع فيه أسماء الرواة الذين في كتب الأئمة الزيدية فأوعى ولم يشذ عنه أحد، ودل على تمكنه من هذا الفن وتبحره وسعة اطلاعه، وقوة باعه، واستوفى جميع طبقاتهم إلى زمانه، فذكر رجال عصره ومشايخ قطره. ورتبه على حروف المعجم، واسم كتابه «نسمات الأسحار في طبقات رواة كتب الفقه والأخبار» نفذ العلامة السيد إبراهيم إلى مدينة تعز حاكما فيها من جهة الإمام المنصور بن المتوكل، وذلك في أيام المولى أحمد بن المتوكل، ولم يزل حاكما بها حتى توفي فيها

توفي رحمه الله بمدينة تعز، وقبره فيها، سنة ثلاث وأربعين بعد المائة وألف.

٦- عن العلامة السيد الحسين بن أحمد بن صلاح بن أحمد بن الحسين بن علي المعروف بزيارة العلوي الحسني.^١

رحا إلى صنعاء وأخذ عن العلامة الحسين بن محمد المغربي وأخيه الحسن بن محمد، والعلامة علي بن يحيى البرطي، والعلامة زيد بن محمد، وسائر أعيان ذلك الزمان. وبرع في جميع المعارف، وله عناية كاملة بأسانيد مسموعاته، وغيرها. وكان يوصف بكمال العرفان والحفظ، أتعب نفسه حتى فاق الأقران، وحقق في النحو والصرف والبيان والأصوليين والفقه والحديث والتفسير، وكتب كثيرا بخطه الحسن، واعتنى بالرواية، وضبط الرجال والأسانيد.

توفي رحمه الله سنة إحدى وأربعين بعد المائة وألف.

٧- عن القاضي العلامة أحمد بن صالح بن محمد بن علي بن محمد بن سليمان المعروف بابن أبي الرجال اليمني.^٢

أخذ عن جماعة من أعيان العلماء منهم: الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم بن محمد، والسيد إبراهيم بن محمد بن محمد بن أحمد بن عز الدين المؤيدي، والسيد عز الدين بن دريب، والسيد الرئيس محمد بن الحسن ابن الإمام القاسم، والقاضي أحمد بن سعد الدين، وغيرهم. روى عنه السيد العلامة الحسين بن أحمد بن زيارة وأخذ عنه عدة علوم.

وبرع في كثير من المعارف، وهو صاحب كتاب «مطلع البدور ومجمع البحور» ترجم فيه لأعيان الزيدية، فجاء كتابا حافلا، ولولا كمال عنايته واتساع اطلاعه لما تيسر له جمع هذا الكتاب. زكان من العلماء المشاركين في عدة فنون، وله أبحاث ورسائل نفيسة ممتعة، ونظمه ونثره في رتبة متوسطة.

توفي رحمه الله ليلة الثلاثاء خامس ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وألف.

٨- عن القاضي صفي الدين أحمد بن سعد الدين بن الحسين بن محمد بن علي بن غانم بن يوسف المسوري الزيدي اليمني.^٣

القاضي الأديب الفاضل المترسل البليغ المنشئ العارف، شارك في الفنون وتميز في كثير منها، وحرر رسائل وفتاوى، واتصل في أول عمره بالإمام القاسم بن محمد (عليه السلام)، وأخذ عنه، وكتب لديه وكان يؤثره، ثم اتصل بعد ذلك بولده الإمام المؤيد بالله فارتفعت درجته لديه، وصار أكثر الأمور منوطا به. وكان القاضي أحمد بن صالح بن أبي الرجال من جملة تلاميذه، وأخذ عنه الكثير وأنتى عليه في كتابه «مطلع البدور» ووصفه بأوصاف فخيمة، وله شهرة كبيرة بالديار اليمنية.

توفي رحمه الله يوم الثلاثاء سادس عشر شهر محرم سنة تسع وسبعين وألف.

٩- عن الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن الرشيد العلوي الحسني اليمني.^٤

١ . ترجمته في: الشوكاني، البدر الطالع: ٢١٦/١-٢١٧.

٢ . ترجمته في: الشوكاني، البدر الطالع: ٥٩/١-٦١.

٣ . ترجمته في: الشوكاني، البدر الطالع: ٥٨/١-٥٩.

٤ . ترجمته في: الشوكاني، البدر الطالع: ٢٣٨/٢-٢٤٠.

أخذ العلم عن علماء اليمن المشهورين ومنهم والده الإمام القاسم بن محمد، وبرع في عدة علوم، ودرس وأفتى واشتهر فضله وزهده وورعه وعفته وحسن تدبيره. ولما مات والده أجمع العلماء عليه وبايعوه وذلك في سنة ١٢٠٩ هـ. وعُرف بلبين الجانب وحسن الأخلاق والتواضع والإحسان إلى أهل العلم والميل إلى الفقراء، وكان مشهوراً بالعدل والمشي على منهج الشرع. توفي رحمه الله يوم الخميس السابع والعشرين من شهر رجب سنة أربع وخمسين وألف. وقبره بشهارة بالقرب من قبر والده رحمهما الله تعالى.

١٠- عن والده الإمام الأعظم المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن الرشيد العلوي الحسني اليمني^١.

اشتغل بطلب العلم على شيوخ ذلك العصر، فبرع في الفنون الشرعية، ومشايخه مشهورون مذكورون. وله مصنفات جلييلة نبيلة، منها في الحديث «كتاب الإعتصام» جمع فيه كتب أئمة آل آل وكتب المحدثين من الأمهات، غيرها، وله «كتاب الإرشاد» في كراريس ذكر فيه فصولاً مفيدة نفيسة، وله رسائل ومسائل مشهورة معروفة.

توفي رحمه الله ليلة الثلاثاء الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وألف بشهارة.

١١- عن السيد أمير الدين بن عبد الله بن نهشل بن المطهر بن أحمد بن عبد الله بن عز الدين بن محمد بن إبراهيم ابن الإمام المطهر بن يحيى الزيدي^٢.

هو أحد علماء الزيدية المشاهير. قرأ على الإمام شرف الدين وأخذ عنه جماعة منهم الإمام القاسم بن محمد، وغيره.

وكان ساكناً بهجرة حوث ومات بها يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وألف، رحمه الله تعالى.

١٢- عن السيد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن محمد الوزير الحسني اليمني^٣.

أخذ عن السيد صلاح بن الإمام عز الدين بن الحسن، والسيد عبد الله بن أمير المؤمنين شرف الدين، والسيد عبد الله بن القاسم، وصالح بن صديق النمازي الشافعي، وإبراهيم بن محمد سلامة، وغيرهم. وجمع بين العلم والعمل، وحاز الفضل عن كمل، وانتهت إليه العلوم النبوية، وتفجرت منه ينابيع البلاغة، والحكم العلوية.

وكان مؤرخاً ثبتاً، صنّف في تاريخ أسرته «تاريخ السادات العلماء الكمل الفضلاء بني الوزير»، وشرح أرجوزة النمازي في نسب الإمام شرف الدين، وانتزع الأحاديث المستحسنة الدائرة على الألسنة، من كتاب السخاوي.

توفي رحمه الله في شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانين وتسعمائة.

١٣- عن الإمام المتوكل على الله شرف الدين بن شمس الدين بن الإمام المهدي العلوي الحسني اليمني^٤.

كان اسمه يحيى ولم يشتهر به، إنما اشتهر بشرف الدين قرأ على جماعة من العلماء منهم: عبد الله بن أحمد الشطبي في عدة كتب منها: «الخلاصة في علم الكلام». ثم رحل إلى صنعاء سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة فتم قراءة «المفصل» على الفقيه علي بن صالح العلفي، ثم قرأ شرح المفصل على الفقيه محمد بن إبراهيم الظفاري. وقرأ الحديث على الإمام محمد بن علي الوشلي، وقرأ كثيراً من الفنون، وبرع في العلوم العقلية والنقلية، واشتهر علمه وظهرت نجابته، وأكب على نشر العلم وتدريسه له مصنفات جلييلة منها: «كتاب الأثمار» توفي رحمه الله ليلة الأحد السابع من جمادى الآخرة سنة خمس وستين وتسعمائة، ودفن بحصن الظفير، ومشهده مشهور.

١ . ترجمته في: الشوكاني، البدر الطالع: ٤٧/٢-٥١.

٢ . ترجمته في: الشوكاني، البدر الطالع: ١٥٩/١.

٣ . ترجمته في: الشوكاني، البدر الطالع: ٣٦/٢.

٤ . ترجمته في: الشوكاني، البدر الطالع: ٢٧٨/١-٢٨٠.

- ١٤- عن السيد صارم الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن الهادي بن إبراهيم بن علي بن المرتضى الوزيري اليميني^١.
قرأ بصنعاء وصعدة على جماعة من الشيوخ في الأصول والعربية والفقه والحديث والتفسير وسائر الفنون، ومن مشايخه السيد علي بن محمد المرتضى، وأبو العطايا السيد عبد الله بن يحيى بن المهدي، والإمام المتوكل على الله المطهر بن محمد، والقاضي علي بن موسى الدواري، وغيرهم.
برع في جميع الفنون وصار المرجع في عصره والمشار إليه بالفضيلة. وله مصنفات جلييلة، منها: «الهداية» و «الفصول اللؤلؤية» توفي رحمه الله ليلة الأحد ثاني جمادى الآخرة سنة أربع عشرة وتسعمائة.
- ١٥- عن السيد أبي العطايا عبد الله بن يحيى بن المهدي بن القاسم بن المطهر بن أحمد العلوي الحسيني الزيدي اليميني^٢.
أخذ العلم عن والده السيد يحيى بن المهدي الحسني، ومحمد بن داود النهمي وغيرهما. وكان شيخ العترة النبوية في زمنه ومفسرها ومحدثها وفقهها والمعتنى بعلومها، تخرّج عليه جماعة من أكابر العلماء كالسيد إبراهيم بن محمد الوزير، وعلي بن زيد العنسي، والسيد محمد بن عبد الله الوزير وغيرهم. وله كرامات وفضائل مشهورة.
توفي رحمه الله سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة.
- ١٦- عن والده السيد يحيى بن المهدي بن القاسم بن المطهر بن أحمد العلوي الحسيني الزيدي اليميني.
١٧- عن الإمام الواثق المطهر بن محمد بن يحيى بن المرتضى بن المطهر^٣.
أخذ عن والده الإمام محمد بن المطهر، وغيره وبرع في العلوم ولاسيما علم البلاغة فإنه قليل النظر في ذلك، وأشعاره الفائقة ورسائله الرائقة شاهدة على ذلك بحيث يفوق على رسائل البلغاء المشاهير من أهل العصور المتقدمة، استمر مكبا على العلم حتى توفي عن عمر يزيد على الثمانين عاما.
توفي رحمه الله في نيف وثمانين وسبعمائة.
- ١٨- عن والده الإمام المهدي محمد بن المطهر بن يحيى بن المرتضى بن المطهر بن القاسم بن المطهر^٤.
بويع بالخلافة عند موت والده سنة ٦٩٠ هـ. وله علم واسع يدل على ذلك مصنفه الذي سماه «المنهاج الجلي في فقه زيد بن علي»، وله «عقود العقيان في الناسخ والمنسوخ من القرآن» و«السراج الوهاج في حصر مسائل المنهاج» و«الكواكب الدرية شرح الأبيات البدرية». وكانت بينه وبين سلاطين اليمن بني رسول وقعات كثيرة، افتتح فيها عدة حصون من جملتها ذي مرمر، وافتتح صنعاء وملكها آخر الأمر.
توفي رحمه الله لثمان بقين من ذي الحجة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، وقيل: في تسع وعشرين وسبعمائة.
- ١٩- عن والده المطهر بن يحيى بن المرتضى بن المطهر بن القاسم بن المطهر.
٢٠- عن الفقيه محمد بن أحمد بن أبي الرجال.
٢١- عن الإمام المهدي أحمد بن الحسين بن أحمد الزيدي اليميني^٥ فقيه زيدي له «خليقة القرآن في نكت من أحكام أهل الزمان» توفي سنة ست وخمسين وستمائة.
٢٢- عن الفقيه أحمد بن محمد الأكوخ المعروف بشعلة

١ . ترجمته في: الشوكاني، البدر الطالع: ٣١١/١-٣٣.
٢ . ترجمته في: الشوكاني، البدر الطالع: ١٣٩/٢-١٤٠/الملحق.
٣ . ترجمته في: الشوكاني، البدر الطالع: ٣١١/٢.
٤ . ترجمته في: الشوكاني، البدر الطالع: ٢٧١/٢.
٥ . ترجمته في: البغدادي، هدية العارفين: ٩٦/١، وكحالة، معجم المؤلفين: ١٩٩/١.

٢٣- عن السيد المرتضى بن شاهيك - الوافد إلى اليمن.

٢٤- عن أحمد بن زيد الحاجي.

٢٥- عن الشريف يحيى بن إسماعيل.

٢٦- عن عمّه الحسين بن علي الجويني.

٢٧- عن المؤلف الشريف المرتضى (الرضي) رحمه الله.

الطريق الرابع: رواية السيد شهاب الدين المرعشي النجفي (ت ١٤١١هـ).

السيد الجليل شهاب الدين أبو المعالي محمد الحسين الحسيني المرعشي النجفي (ت ١٤١١هـ).
ولد في النجف الأشرف في العشرين من صفر سنة خمس عشرة وثلثمائة وألف من الهجرة الشريفة. وفي الخامسة من عمره اشتغل بالقرآن الكريم لدى جدته أم والده رحمها الله، وأخذ عنها بعض الكتب الأدبية، وأخذ سطوح الفقه والأصول عن العلامة الأديب السيد محمد كاظم خرم آبادي النحوي، وأخذ الحساب والهندسة وسائر العلوم المدرسية عن الشيخ عبد الكريم البوشهري، وأخذ التفسير عن الشيخ محمد حسين عن محمد خليل الشيرازي، وقرأ الكلام والفلسفة على الحاج ملا علي محمد النجف آبادي، وأخذ سائر العلوم عن جماعة من العلماء الأجلاء والمشايخ الفضلاء ذكرهم في ترجمته لنفسه في كتابه «الإجازة الكبيرة» وهي ترجمة حافلة تدل على عناية السيد المرعشي بالعلوم كافة.

له المؤلفات الجليلة منها: «مشجرات آل رسول اله أكرم (صلى الله عليه وآله)» و«مصباح الهداية» و«التعليقة على كتاب إحقاق الحق» و«مزارات العلويين» و«طبقات النساين» و«سجع البلايل في ترجمة صاحب الوسائل» و«اللآلي الثمينة» و«أفجازة الكبيرة». وغيرها توفي رحمه الله في اليوم السابع من صفر سنة إحدى عشرة واربعمائة وألف هجرية ودفن بمدينة قم المقدسة.

٢- عن سيد الفقهاء والمتكلمين، حجة الإسلام آية الله الحاج السيد أبي القاسم الحسيني النجفي الأصفهاني (ت ١٣٥٣هـ).^١

ولد غرة شهر رجب سنة اثنتين وسبعين ومائتين بعد الألف من الهجرة الشريفة، أخذ العلوم عن عدة من المشايخ الأجلاء علماء العصر الموجودين في النجف الأشرف وفي مقدمتهم: العلامة الميرزا حسن الهزارجيري النجفي، والشيخ الأجل الحاج ميرزا حسين النوري، وغيرهما.

روى عنه السيد الجليل شهاب الدين بن السيد محمود المرعشي (ت ١٤١١هـ) وأجازه برواية الكتب الأربعة، وكتاب نهج البلاغة والصحيفة السجادية وسائر الكتب والأصول المعتمدة، فضلا عن إجازته برواية مصنفاته ومؤلفاته.

له مؤلفات كثيرة مفيدة منها: «بشارات السالكين» و«جنة المأوى» و«رسالة علمية» وغيرها. وتوفي رحمه الله في اليوم السادس من شوال سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة بعد الألف في مدينة اصفهان، ودفن في الزينبية.

٣- عن الشيخ الجليل الحاج الميرزا حسين بن الميرزا محمد تقي النوري.^٢

ولد الشيخ في الثامن عشر من شهر شوال سنة أربع وخمسين ومائتين بعد الألف من الهجرة الشريفة في مدينة نورمازندران، فتعلم فيها القراءة والكتابة على والده وعلى غيره من الشيوخ تلك المدينة، ثم توفي والده وله من العمر ثماني سنين، فسعى بنفسه إلى طلب العلم فرحل إلى طهران، ودرس على الحجة الشيخ عبد الرحيم البروجردي، ثم ارتحل إلى العتبات المقدسة في العراق سنة (١٢٧٣هـ) فمكث بها مدة ثم رجع إلى إيران. وتاقت نفسه إلى الرحلة فعاودها إلى العراق ثانية فنزل ب كربلاء وأخذ عن العالم الجليل الشيخ عبد الحسين الطهراني، ثم انتقل إلى النجف الأشرف وحضر بحث الشيخ مرتضى الأنصاري عدة أشهر، وحضر أيضا أبحاث

١ . ترجمته في: المرعشي، الإجازة الكبيرة: ٥١٩-٥٢٥.

٢ . ترجمته في: المرعشي، الإجازة الكبيرة: ١٧.

٣ . ترجمته في: المرعشي، الإجازة الكبيرة: ٣٢٠.

المجدد الشيرازي، وهاجر معه إلى سامراء، ثم عاد إلى النجف لأشرف سنة (١٣١٤هـ) واستوطنها إلى ان توفي بها.

له المؤلفات الجلية الكثيرة منها: «مستدرك الوسائل» استدرك فيه الأحاديث التي لم يذكرها المحدث العامل في «وسائل الشيعة» وله كتاب «دار السلام» وغيرهما توفي رحمه الله ليلة الأربعاء لثلاث بقين من جمادى الآخرة سنة عشرين وثلثمائة بعد الألف الهجرية، ودفن في الصحن الحيدري الشريف في النجف لأشرف من باب القبلة.

٤- عن العالم المولى الحاج الملا علي بن الحاج الميرزا خليل الطبيب الطهراني^١. صاحب الكرامات والمقامات، العالم الزاهد المجاهد، كان فقيها رجاليا مضطعا بالأخبار نشأ في حجر أبيه الفاضل الطبيب الشهير الميرزا خليل، وكان الملا علي أكبر سنا من أخيه حسين، وقد اعتنى به، وحضر دروس الفقه والأصول على جماعة من العلماء كان منهم: الشيخ الجليل عبد العلي الرشتي، والشيخ العالم لأجل محمد حسن صاحب «جواهر الكلام» روى عنه الشيخ الجليل حسن النوري، وأخوه حسين بن الميرزا خليل والسيد حسن بن السيد هادي الصدر (ت ١٣٥٤هـ).

توفي رحمه الله في شهر صفر سنة تسعين ومائتين بعد الألف من الهجرة الشريفة في النجف لأشرف.

٥- عن الشيخ الجليل العالم العامل التقي عبد العلي الرشتي^٢. أخذ عن جماعة من العلماء كان منهم: الشيخ جعفر الجناحي صاحب كتاب «كشف الغطاء» والسيد علي الطباطبائي، صاحب كتاب «رياض المسائل» والشيخ الفاضل محمد بن إسماعيل بن عبد الجبار صاحب كتاب «منتهى المقال في علم الرجال».

٦- عن الشيخ الفاضل أبي علي محمد بن إسماعيل بن عبد الجبار بن سعد الدين كان أصله من طبرستان. وقيل: مازندراني الأصل^٣.

ولد في كربلاء سنة تسع وخمسين ومائة بعد الألف الهجرية. أخذ العلوم والمعارف عن شيوخ عصره، منهم: شيخه الجليل وأستاذ الأكبر محمد باقر الوحيد البهبهاني، والسيد علي الطباطبائي، صاحب «الرياض»، روى عنه تلميذه العالم التقي الشيخ عبد العلي الرشتي، صنف كتاب «منتهى المقال في علم الرجال» الذي صار معروفا ومرجعا للعلماء لاشتماله على تمام التعليقات لأستاذه الأستاذ الأكبر الوحيد البهبهاني. وله كتاب «النقض على نواقض الروافض» في مجلدين في غاية الجودة.

توفي رحمه الله بكربلاء سنة خمس عشرة ومائتين بعد الألف من الهجرة الشريفة. ٧- عن الشيخ الجليل وأستاذ الأكبر المولى محمد باقر بن محمد أكمل الأصفهاني البهبهاني الحائري الشهير بالوحيد البهبهاني^٤.

فقيه العصر وفريد الدهر، وحيد الزمان، صاحب الفكر العميق والذهن الدقيق، صرف عمره في اقتناء العلوم واكتساب المعارف الدقائق، وتكميل النفيس بالعلم بالحقائق، ورزقه الله من العلوم مالا عين رأت ولا أذن سمعت، فصار فقيه العصر وفريد الدهر، وحيد الزمان، صاحب الفكر العميق والذهن الدقيق، صرف عمره في اقتناء العلوم واكتساب المعارف الدقائق، وتكميل النفيس بالعلم بالحقائق، ورزقه الله من العلوم مالا عين رأت ولا أذن سمعت، فصار إماما في العلم وركنا للدين، وشمسا لإزالة ظلم الجهالة وبدرا لإزاحة دياجير البطالة.

روى عن والده محمد أكمل، والسيد حسين بن إبراهيم القزويني. روى عنه جماعة من أعيان الطلبة النابهيين منهم: السيد محمد الجواد العامل صاحب كتاب «مفتاح الكرامة» والشيخ جعفر الكبير صاحب كتاب «كشف الغطاء»، والمحقق القمي الميرزا

١ . ترجمته في: النوري، خاتمة المستدرك: ١٣٧/٢، والمرعشي، الإجازة الكبيرة: ٢٤٦، و٤١٠.

٢ . ترجمته في: المرعشي، الإجازة الكبيرة: ٤٠، و٢٤٦، و٣٢٤، و٤١١، والنوري، خاتمة المستدرك: ١٣٧/٢.

٣ . ترجمته في: المرعشي، الإجازة الكبيرة: ٣٢٤، والنوري، خاتمة المستدرك: ١٣٧/٢-١٣٨.

٤ . ترجمته في: المرعشي، الإجازة الكبيرة: ٤٣٨، والنوري، خاتمة المستدرك: ٤٧/٢-٥٠.

أبو القاسم، صاحب كتاب «القوانين»، والسيد العلامة محمد مهدي الموسوي الشهرستاني الحائري، وغيرهم.

له المنفات المفيدة منها: «التعليقة على الرجال الكبير» و«شرح المفاتيح» وغيرهما. توفي رحمه الله سنة ثمان بعد المائتين وألف من الهجرة الشريفة بكر بلاء المقدسة ودفن في الحائر الشريف في الرواق الشرقي مما يلي قبور الشهداء (رضوان الله تعالى عليهم).

٨- عن والده الشيخ الجليل محمد أكمل البهبهاني.^١
٩- عن العلامة المؤيد المولى لأجل محمد باقر بن العالم الجليل محمد تقي بن المولى الورع مقصود علي المجلسي.^٢

شيخ الإسلام بدار السلطنة اصفهان رئيسا فيها بالرئاستين الدينية والدينية، وكان إماما مبرزاً في عصره في سائر العلوم ولاسما الحديث الشريف فضلا عن إمامته في الجمعة والجماعة. وهو الذي روج الحديث ونشره ولاسيما في الديار العجمية، وترجم لهم الأحاديث العربية بالفارسية.

وكان له شوق شديد في التدريس، وخرّج من مجلسه جماعة كثيرة بلغوا ألف نفس، وزار بيت الله الحرام، والأئمة المعصوميين بالعراق مرارا.

روى عنه جماعة من نواميس الملة، والمشايخ الأجلة، منهم: الشيخ الجليل علي بن محمد بن صاحب المعالم، وسيد الحكماء رفيع الدين محمد بن حيدر الحسيني الحسيني النائيني، والسيد الفاضل الأمير محمد قاسم بن الأمير محمد الطباطبائي القهبائي، والمولى محمد شريف بن شمس الدين محمد الرويدشتي الأصفهاني، والعالم الفاضل محمد محسن بن محمد مؤمن الأسترابادي، وشيخ المحدثين الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي، والعالم الفاضل السيد علي خان المدني الشيرازي الهندي، وغيرهم.

له المصنفات الجليلة النبيلة منها: «بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار» و«مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول» و«ملاذ الأخبار في شرح تهذيب الأخبار» و«الفوائد الطريفة في شرح الصحيفة» و«رسالة الوجيز في الرجال» و«رسالة في الأوزان والمقادير الشرعية» وغيرها.

توفي رحمه الله في السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك سنة إحدى عشرة ومائة وألف من الهجرة الشريفة، ودفن في الباب القبلي من الجامع الأعظم باصفهان.

١٠- عن والده العلامة محمد تقي المجلسي.^٣
١١- عن شيخ الإسلام العالم الجليل بهاء الدين محمد بن الحسين بن عبد الصمد الحارثي الهمداني (ت ١٠٣١ هـ).^٤

١٢- عن والده الفقيه عز الدين الحسين بن عبد الصمد الحارثي الهمداني (ت ٩٨٤ هـ).^٥

١٣- عن الشهيد الثاني زين الدين بن علي بن أحمد العاملي (ت ٩٦٦ هـ).^٦

١٤- عن الشيخ الجليل نور الدين علي بن عبد العالي العاملي الميسي.^٧

١٥- عن الشيخ الفاضل شمس الدين محمد بن محمد بن داود المؤذن العاملي الجزيني.^٨

١٦- عن الشيخ ضياء الدين علي ابن الشهيد الأول السعيد محمد بن مكي العاملي (ت ٧٨٦ هـ).^٩

١ . ترجمته في: المرعشي، إجازة الكبيرة: ٣٨-٤٣٩، والنوري، خاتمة المستدرک: ٤٩/٢.

٢ . ترجمته في الحر العاملي، أمل الأمل: ٢٥٢/٢، والبحراني، لؤلؤة البحرين: ٥٥-٦٠، والمرعشي، إجازة الكبيرة: ٣٣٧-٣٣٨، والنوري، خاتمة المستدرک: ١٧٣/٢-٢٤٠.

٣ . ترجمته في: المرعشي، إجازة الكبيرة: ٢٥٩.

٤ . تقدمت ترجمته في الطريق الثاني برقم: ٤.

٥ . تقدمت ترجمته في الطريق الثاني برقم: ٥.

٦ . تقدمت ترجمته في الطريق الثاني برقم: ٦.

٧ . تقدمت ترجمته في الطريق الثاني برقم: ٧.

٨ . تقدمت ترجمته في الطريق الثاني برقم: ٨.

٩ . تقدمت ترجمته في الطريق الثاني برقم: ٩.

- ١٧- عن الإمام فخر الدين أبي طالب محمد ابن العلامة الحلبي الحسن بن يوسف بن المطهر الحلبي^١.
- ١٨- عن والده الإمام الجليل جمال الدين الحسن بن يوسف بن المطهر العلامة الحلبي^٢.
- ١٩- عن الشيخ الجليل نجم الدين جعفر بن الحسن بن سعيد الهذلي المحقق الحلبي (٦٧٦هـ)^٣.
- ٢٠- عن السيد شمس الدين فخار بن معد بن فخار الموسوي الحائري (ت ٦٣٠هـ)^٤.
- ٢١- عن الشيخ الفقيه شاذان بن جبريل بن إسماعيل القمي^٥.
- ٢٢- عن الشيخ الجليل عماد الدين أبي جعفر محمد بن أبي القاسم علي بن محمد بن علي الطبري الأملّي الكجي^٦.
- العالم الجليل، الفقيه النبيل، الإمام الثقة، جليل القدر، محدث. أخذ العلم عن جلة المشايخ والعلماء منهم: الشيخ أبو علي بن الحسن بن محمد بن الحسن الطوسي، وشمس الدين الحسن بن بابويه العروف بحسكا، والشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن شهريار الخازن، والشيخ أبو البقاء إبراهيم بن الحسين بن إبراهيم الرفاء البصري، والشيخ الفقيه أبو النجم محمد بن عبد الوهاب بن عيسى السمان، وأكثر السماع عن والده أبي القاسم علي بن محمد بن علي الطبري، وغيرهم.
- له الكتاب الجليل «شارة المصطفى لشيعة المرتضى» و«تاب الفرج في الأوقات والمخرج بالبينات» «شرح مسائل الذريعة» و«كتاب الزهد والتقوى» وغير ذلك.
- قال النوري «قرأ عليه الشريف أبو جعفر محمد المعروف بابن الحمد النحوي في شهر سنة ثلاث وخمسين وخمسائة بمشهد مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه.
- ٢٣- عن الشيخ الفقيه الجليل أبي علي الحسن بن أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي^٧.
- العالم الكامل، والمحدث النبيل، والفقيه الجليل الذي تنتهي أكثر إجازات الأصحاب إليه، نجل شيخ الطائفة أبي جعفر الطوسي.
- قال الحر العاملي: «كان عالما فاضلا، فقيها محدثا، جليلا ثقة» أكثر الرواية عن والده أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، فروى عنه الياس بن هشام الحائري، والسيد ضياء الدين أبو الرضا فضل الله بن علي الحسيني، والشيخ أبو الفتوح أحمد بن علي الرازي، و الشيخ الجليل أبو علي محمد بن الفضل الطبرسي، والشيخ عماد الدين محمد بن أبي جعفر علي الطبري، وأبو عبد الله محمد وأبو الحسن علي ابنا علي بن عبد الصمد النيسابوري، وغيرهم.
- له المؤلفات الجليّة منها: «كتاب الأمالي» و«شرح النهاية في الفقه» من تأليف والده، و«المرشد إلى سبيل التعبد» يظهر من إجازاته لتلاميذه أنه كان حيّا في سنة خمس عشرة وخمسائة (رحمه الله).
- ٢٤- عن والده شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي البغدادي الغروي^٨.

- ١ . ترجمته في: المرعشي، إجازة الكبيرة: ٤٧٨.
- ٢ . تقدمت ترجمته في الطريق الأول برقم: ١.
- ٣ . تقدمت ترجمته في الطريق الأول برقم: ٤.
- ٤ . تقدمت ترجمته في الطريق الأول برقم: ٥.
- ٥ . تقدمت ترجمته في الطريق الأول برقم: ٦.
- ٦ . ترجمته في: الحر العاملي، أمل الأمل: ٢٣٤-٢٣٥، ومعالم العلماء: ١١٩، والنوري، خاتمة المستدرک: ١٣/٣، والثقات العيون في سادس القرون: ٢٤٢-٢٧٨، و«أعيان الشيعة»: ٦٣/٩، و«فهرس منتجب الدين»: ١٧٢.
- ٧ . ترجمته في: الحر العاملي، أمل الأمل: ٧٦/٢، والنوري، خاتمة المستدرک: ١٢٣/٣-١٢٥، معالم العلماء: ٣٧، والبحراني، لؤلؤة البحرين: ٢٩٢-٢٩٣، وفهرس منتجب الدين: ٤٢، وعبد الله أفندي: ٣٣٥/١.
- ٨ . ترجمته في: البحراني، لؤلؤة البحرين: ٢٩٣-٢٩٨، و«روضات الجنات»: ٥٨١، والنوري، خاتمة المستدرک: ١٦٦/٣-١٨٣، ورجال العلامة الحلبي: ١٤٨، ورجال بحر العلوم: ٢٣٨/٣-٢٣٩، والبداية والنهاية: ٩٧/١٢، ومعالم العلماء: ١٣٦.

شيخ الإمامية، ورئيس الطائفة، انتهت إليه رئاسة المذهب في وقته، جليل القدر، عظيم المنزلة، عارف بالأخبار والرجال والفقه والأصول والكلام والأدب وصنف في فنون الإسلام كلها، وهو المهذب للعقائد والأصول والفروع، الجامع لكمالات النفس في العلم والعمل.

ولد أبو جعفر سنة خمس وثمانين وثلثمائة، وقدم العراق سنة ثمان وأربعمائة، وتلمذ على الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان العكبري، مدة حياته، ثم بعد وفاته لازم السيد الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي، وغيرهما، ثم ارتحل إلى النجف الأشرف سنة ثمان وأربعين وأربعمائة بعد اشتداد الفتن والأضطرابات ببغداد، وتعرضه للمضايقات إذ احترقت كتبه وداره في جانب الكرخ، وأخذ يواصل التدريس فيها حتى توفي رحمه الله تعالى.

له المؤلفات الجليلة النبيلة منها: «الفهرست» و«تهذيب الأحكام» و«كتاب الاستبصار فيما أختلف فيه من الأخبار» و«المفصح في الإمامة» و«العدة في أصول الفقه» و«تلخيص كتاب الشافي في الإمامة» و«المبسوط في الفقه» و«مصباح المتهدد» و«هداية المسترشد وبصيرة المتعبد» وغيرها.

توفي رحمه الله ليلة الأثنين الأثاني والعشرين من محرم الحرام سنة ستين وأربعمائة بالمشهد الغروي المقدس على ساكنه السلام، ودفن بداره، وقبره معروف مشهور.

٢٥- عن السيد الشريف الرضي جامع كتاب «نهج البلاغة» ويجب الإشارة إلى ان كثيرا من المصادر التاريخية التي ترجمت لهؤلاء العلماء الرواة، وكثيرا من الإجازات العلميو التي حصلوا عليها من شيوخهم الأجلاء، أشارت إلى عدد كبير من الروايات المسندة، والطرق المعتمدة في رواية نهج البلاغة، فما تجد أحدا منهم إلا وله عدة طرق في رواية هذا الكتاب، سواء كانت هذه الطرق عنه مباشرة أم عن شيوخه الذين قرأ عليهم «نهج البلاغة» أو الذين أجازوه في رواية هذا الكتاب - وإذا امعنا النظر في الإجازات العلمية التي سطرها العلامة الجليل والمولى الكبير الشيخ محمد باقر بن الشيخ محمد تقي المجلسي (رحمه الله) في كتابه النفيس «بحار الأنوار» تجد مجموعة جليلة من الأسانيد والروايات المعتمدة لرؤية مجموعة طيبة من نفائس الكتب وذخائر التراث الإسلامي ومنها «نهج البلاغة» وكذلك إذا تفحصنا كتاب: «الإجازة الكبيرة» للعلامة السيد شهاب الدين المرعشي النجفي (رحمه الله) الذي وضع في مقدمة هذا الكتاب مجموعة من الإجازات العلمية التي حصل عليها من العلماء والمشايخ الأجلاء أبناء القرن الرابع عشر الهجري متصلة الأسانيد والطرق الصحيحة إلى جامع كتاب «نهج البلاغة» السيد الشريف الرضي (رضوان الله تعالى عليه) أجازوه إجازة خاصة أو عامة لرواية «نهج البلاغة» أو رواية مؤلفاتهم ومروياتهم ومسموعاتهم وما أجزى لهم ان يرويه عنهم يحق إجازتهم من شيوخهم الأجلاء.

هذه الإجازات العلمية جميعا في الكتابين المذكورين آفا وفي غيرهما من الإجازات العلمية، تلتقي معظمها في أسانيدنا وطرق روايتها لنهج البلاغة عند عدد من العلماء الأجلاء خصوصاً جزءا من وقتهم لرواية نهج البلاغة وتصدروا لتدريسه شرحا وتعليقا واستدراكا على أقوال المتقدمين من شيوخهم.

وتطالعك من اسماء هؤلاء الأعلام الرواة: العلامة الحلبي، وولده فخر الدين محمد، وابناء آل زهرة، وتاج الدين بن معية الحسني، ومجد الدين ابن العريضي والعلامة جمال الدين بن فهد الحلبي، والسيد علي بن عبد الحميد بن فخار الحسيني، والشيخ المحقق خواجه نصير الدين الطوسي، والسيد غياث الدين بن طاووس، والسيد هبة الله ابن الشجري النحوي، والسيد فضل الله بن علي الراوندي، والسيد برهان الدين القزويني، والشيخ أحمد بن سليمان العاملي، والقاضي عبد الله بن محمود بن بلدجي، وغيرهم العشرات لا بل المئات من الرواة الأعلام الذين وردت اسمائهم في أسانيد الرواية المعتمدة لنهج البلاغة.

وفي الإجازات العلمية لأعلام الحوزة العلمية الدينية في النجف الأشرف من أساطين العلم والمعرفة ترتبط أسانيدهم وطرق رواياتهم بكثير من الأسانيد وطرق الرواية التي ذكرناها، وتتشابه أحيانا إلى حد كبير في تسلسل الشيوخ الأجلاء والعلماء الفضلاء الذين تصدروا لرواية

«نهج البلاغة» واسماعه لطلابهم، ولكنها خالية من الإشارة الصريحة إلى سماع «نهج البلاغة» أو أفجزة المعنوية بهذا الكتاب، وربما تكون ضمناً وداخلة في منطوق الإجازة لرواية ما يصح روايته عن الشيخ من مؤلفاته ومسموعاته ومروياته، وما أجز له روايته. أسأل الله تعالى ان يوفقني في قابل الأيام إلى العثور على مجموعة من الإجازات العلمية تكشف عن نهضة علمية وأدبية تباها السلف الصالح في اسماع ورواية «نهج البلاغة» في مختلف العصور الإسلامية الزاهية وإلى يوم الناس هذا. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.